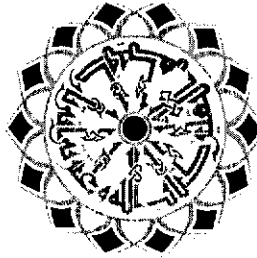


بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



سَائِلُ الثَّقَلَيْنِ

مَجَلَّةُ اِشْلَامِيَّةِ جَامِعَةِ

العددان الواحد والخمسون والثاني والخمسون

السنة الثالثة عشرة • ربيع الثاني - رمضان ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م

المراسلات والاتصالات باسم رئيس التحرير على العنوان التالي:

الجمهورية الإسلامية في إيران - قم - ص ب: (٨٩٤ - ٣٧١٨٥)

هاتف: ٢١٣١١ (٠٠٩٨٢٥١) فاكس: ٢٩١٣١٠٠ (٠٠٩٨٢٥١)

موقعنا على الانترنت

WWW.ahl-ul-bayt.org

لِلْجَمْعِ الْعَالَمِيِّ لِأَهْلِ الْبَيْتِ

◀ ترحب المجلة بمساهمات الباحثين في مجالات الفكر الإسلامي المعاصر، والتاريخ، والأدب، والتراث، ومراجعات الكتب، والمناقشات.

◀ يشترط في المادة المرسلة أن تلتزم بأصول البحث العلمي على مختلف المستويات: المنهج، المنهجية، التوثيق، وأن لا تكون قد نشرت أو أرسلت للنشر في كتاب أو دورية أخرى.

◀ تخضع المادة المرسلة لمراجعة هيئة التحرير، ولا تعاد إلى صاحبها، نشرت أم لم تنشر.

◀ للمجلة حق إعادة نشر المواد التي تنشرها منفصلة أو ضمن كتاب، بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى لغة أخرى.

◀ ما تنشره المجلة لا يعبر بالضرورة عن وجهة نظرها ولا المجمع.

◀ يخضع ترتيب المواد المنشورة لاعتبارات فنية بحتة.

العددان الواحد والخمسون والثاني

والخمسون، السنة الثالثة عشرة،

ربيع ٢٠٠٢ - رمضان، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥ م

المطبعة: ليلى

محتويات العدد

■ كلمة التحرير

قراءة التراث، معايير وضرورات....

حيدر حب الله ٤

العلامة شرف الدين

بين الحوار العقلاني الهادئ

والمشروع السياسي والبناء المذهبي

■ السيد عبدالحسين شرف الدين رجل

الاستثناء في الزمن الصعب

د. حسن محمد نور الدين ١٠

■ المنهج التأسيسي لعقلنة الحوار عند السيد

عبد الحسين شرف الدين

السيد محمد علي الحلو ٤٤

■ الإمام شرف الدين ودوره السياسي

والاجتماعي في لبنان والشرق الأوسط

د. أحمد جعفر ٦٣

دراسات :

■ المرجعية العلمية لأهل البيت
تتسالم عليها الأمة
الشيخ محمد علي التسخيري ١٩٤

■ الإمام علي عليه السلام، في حوار مع الكاتب
المسيحي جورج جرداق
حاوره: الأستاذ ضياء الشهيد ٢٢٣

■ هوامش نقدية على كتاب خلافة
الإمام علي بالنص أم بالنصب
أ. حسين الكاظمي ٢٣٧

■ ثنائيات النص القرآني
د. فتح الله نجار زادكان ٢٦٥
ترجمة: منال عيسى باقر

■ ثنائية الدين والوجدان
أ. حسين أحمد ٢٨٢

* * *

■ العلامة شرف الدين رائد الوحدة
الدينية والوطنية والقومية
والجهاد
أ. محمد أمين كوراني ١٠٩

■ جبل عامل، وإثراء ثقافة أهل
البيت ونشر علومهم
الشيخ حسن بغدادي ١٢٤

■ النزعة الأدبية في فكر الإمام
شرف الدين
د. حسن جعفر نور الدين ١٣٦

■ المقدس السيد عبدالحسين شرف
الدين والمذهب الجعفري في
صور
د. محمد عبدالله شرف الدين ١٦٢

■ الإمام شرف الدين، سيرة ذاتية
وجهاد علمي
د. حسن إبراهيم ١٨٣

قراءة التراث، معايير وضرورات مؤتمر العلامة شرف الدين العاملي

حيدر حب الله

أن تدرس الأمة تاريخها وتراثها، وتقوم بقراءته باستمرارٍ قراءةً واعيةً، لتوظيفه أو تثويره أو نقده أو...، ضرورة لا مجال لتجاوزها على ما يبدو، فالتراث هو الأمة، والأمة هي تراثها، إلى جانب الحاضر والراهن. وتبرز في التراث شخصياته وعظماؤه، الذين يفترض بالأمة ومتقفيها أن يتعرفوا إليهم، ويخبروا تجاربهم.

١- فأول شروط قراءة الرجال والتراث وأهمها، تجاوز القداسة فيه، وتخطي الحواجز التي تمنع الفكر من مطاولة مساحات قد تكون لدى بعض محرمةً أو لا مفكر فيها، فالقداسة غير الاحترام، وإذا ما سيطرت على قراءتنا للتراث فلن تنتج سوى لغة احتفائية تبجيلية، تشعر الذات معها بأن الماضي كان دائماً أفضل من الحاضر، وتشدّ النفس وتزعجها ناحية التماهي مع هذا الماضي المقدس، أو استتساخه حرفياً، أو اعتباره المرجعية المعرفية الوحيدة، وهذه الأمور جميعها مشاكل تعوق وعي التراث بشكل علمي أو موضوعي.

إنّ قرب الماضي ورجاله من عصر الوحي - داخل النسق الديني - لا يفترض به أن يعطينا قانوناً عاماً، يقدّم من سبق على من لحق، فقد لا يكون من الصحيح دائماً تصوّر الكمال في الماضي والتراجع في الحاضر، تلك الصورة التي لا ترى في الذات على الدوام سوى انحدارٍ أو اندحار، فتشلّها عن العمل، وتسقطها عن جرأة المعرفة والتفكير.

٢ - وفي هذا السياق، نخطئ حينما نحاول ممارسة استتساخ حرفي

للموروث ورجاله، كما نخطئ عندما نتصور أن مبدأ القطيعة التامة هو الذي يحكم علاقتنا بهذا الماضي ووجوهه، فالماضي نحن في الزمن الذي سلف، وهو نحن في الراهن المعاصر، لا يقبل القطيعة ولا الانقطاع، إنما الذي يقبلها هو الاستساخ الحرفي لهذا الماضي.

ثمة من يقرأ عن الرجال، عن الفلاسفة، والفقهاء، والمتكلمين، والعرفاء... فيخفض جناحه وينكسر قلبه أمامهم، فيندفع لتمثيل حياتهم في عصره، وكأن أنساق حياتهم هي المعيار الدائم لجميع العصور ومختلف الأمصار والبقاع، لقد شاهدنا - كثيراً - هذا النوع من الاستساخ في المجتمع الديني، ولربما كان أحد أسباب بعض مظاهر الإخفاق الذي نشاهده فيه.

صحيح أن رجال التراث منارات، وأنهم أسوة لنا وقدوة، وأنهم مفخرة لنا وعزة و...، فهذا الأمر لا نقاش لنا فيه، إنما النقاش في معنى الأسوة والمنارة والقدوة، فهل تعني معطى حرفياً أو أن روح تجاربهم بسياقها الزمكاني، وعلو كعبهم بما منحهم الله في عصورهم هو القدوة؟ أي يفترض تجريد الرجال في شكلانيات تجاربهم، ومظاهر نتائجاتهم، للنفوذ إلى المكونات الأساسية المتعالية عن الزمان والمكان الخاصين، وإلا اعتزلنا حياتنا، وهجرنا عصرنا، وعزفنا عن زماننا و...!

٣ - لهذا يفترض فهم الرجال في زمكانياتهم، سياسياً، واجتماعياً، وثقافياً، ومعرفياً، واقتصادياً.. وهذا مالا نقدر عليه، إذا بقينا - في قراءتنا للموروث - داخل النصوص التي تركها لنا التاريخ عن الرجال، فالنص - كما يقولون اليوم في الهرمنيوطيقا - صاحب دلالة ناقصة وإشارة معبرة لكن عاجزة، فمن الضروري وعي التاريخ لوعي رجاله، ووعي الرجال لوعي التاريخ، في علاقة جدلية مستديمة.

لم تولد النظريات من عدم، ولم تتوالد من بعضها بعضاً فقط، بل أسهمت في إيلادها العناصر الحافّة بالرجال والظواهر، إن هذه الرؤية قد تقلب كثيراً من تصوّراتنا عن الموروث ورجاله بعد ضمّ النقطة الأولى التي أشرنا إليها مطلع هذه الورقة، قد يعود فهم الأشياء تاريخياً أكثر من ذي قبل، وقد نعيد تصوّراتنا عن أشخاص كان السكون قد أعطانا صورة أخرى عنهم.

٤ - وفي هذا المجال، ننظر بعين النقد إلى الكثير من مؤتمراتنا الإسلامية العلمية التي تتناول عظماء وأعلاماً ورجال تراث نوابغ، كانوا مفخرة لأمتهم وعلماء لتقدمها، لقد لاحظنا أنّ محاور الدراسة في أغلب هذه المؤتمرات هي محاور تبجيلية احتفائية، تؤجّل النقد - خصوصاً الجذري منه - إلى مرحلة لاحقة؛ انطلاقاً من أنّ المرحلة هي مرحلة التعريف بالتراث، لأن الأمة غابت عنه، ولم تطّلع عليه، ولأن تقديم هذا التراث منتقداً قد يؤثر سلباً على المفاهيم الدينية في بعض المجالات.

وقد امتدّت هذه الحالة داخل المؤسسة الدينية إلى غير نشاط علمي، فالدوريات والنشرات الدينية تتجنّب مثل هذا النوع من النقد عادةً، وتراه يعكس مردوداً سلبياً أكثر من المردود الإيجابي، لا بل يذهب بعضهم إلى أنّه من غير الصحيح أن نفسح المجال لنقاد صغار (!) ليتناولوا بالنقد رموز التراث ورجالاته العظماء.

ويبدو أنّ لهذه الظاهرة غير مسوّغ، لكننا لا نراها إيجابية في هيمنتها على النشاط الفكري، بل يفترض أن تولي أهمية أكبر للفعل النقدي البناء للتراث، وأن تسلّط الأضواء عليه أكثر من أيّ وقت مضى، لا لتصفية حساب مع هذا التراث والعياذ بالله، بل لأن خلق هذه الروح وإفساح المدرسة الدينية، والمؤسسات والمراكز البحثية، والمؤتمرات والملتقيات الفكرية،

والنشریات والدوريات الإسلامية.. إفساحها جميعاً المجال لحركة النقد المنظمة هذه عنصرٌ أساسي في الإبداع وتقدُّم البحوث العلمية نحو الأمام، وبعث مناشط الفكر من جديد، ما دامت هذه الفعاليات النقدية تلتزم بحدود الأخلاق والأدب الرفيع، وتعتمد المنهج العلمي الرصين والأكاديمي الموثق في رصد المعطيات وتناول الأفكار، ولا تتجرف في سياق الشهوة العمياء الطاغية والداعية إلى تحطيم التراث والقطيعة معه، في غضب عارم من الموروث، نتيجة سوء علاقة مع امتداداته المعاصرة.

إننا نوجّه دعوةً جادةً لكل القيمين على العمل الثقافى والفكري في الساحة الإسلامية كي يدرسوا هذا الموضوع بجدية أكبر، ومن دون هيمنة المخاوف وأنواع القلق والاضطراب، ليتوصلوا إلى نتائج محمودة في هذا المجال إن شاء الله تعالى.

٥ - وفي ضمن سياق دراسة التراث تأتي ضرورة إحياء المدفون القيم منه، من الضروري الإسراع في خطوات إحياء التراث، وإخراجه من المخطوطات أو النسخ الحجرية إلى عالم الطباعة الأنيقة المعاصرة، تراثاً محققاً ومصححاً يسهل على الباحثين الرجوع إليه، ويؤمنهم من التورط في مشاكل النسخ واختلافها، فيختصر المسافات عليهم، ويسرّ العمل أمامهم.

من هنا، نوّكد أن ثورة حقيقية في عالم إحياء التراث الشيعي قد حصلت منذ بداية النصف الثاني من القرن العشرين، فقد شاهدنا موجة عارمة من هذا العمل، وتأسيس مؤسسات مرموقة ومشكورة، أسهمت بشكل فاعل في إحياء التراث في إيران، والعراق، ولبنان و.. وإن كانت هناك بعض الملاحظات على بعض العاملين في هذا المجال، لا سيما بعض دور النشر التجارية التي تتجاهل الضرورات العلمية والتحقيقية في مجال

إحياء التراث، لتستعجل بطباعة الكتب، طمعاً في المردود المادي فحسب، وهذه وإن كانت خدمة على أيّ حال لهذا التراث من حيث طبعه وإخراجه إلى العلن، إلاّ أنّها خيانة في حقه - في الوقت عينه - من حيث عدم إخراجه بالحلّة التي تحفظ مضمونه ومحتواه.

على أيّ حال، يفترض مواصلة هذا السبيل المحمود والمشكور، بل وتطويره إلى مختلف مجالات نشر التراث على الأقراص المدمجة أو صفحات الشبكة العنكبوتية (الانترنت) أو غير ذلك، متجاوزين فعلاً جملة ملاحظات ناقدة.

٦ - وفي الإطار نفسه، نلاحظ أن بعض مشاريع إحياء التراث كانت انتقائيةً، تهدف إلى ترويج أفكار محدّدة، ولا ضير في ذلك، لكن الأفضل أن تسعى المؤسسات الكبرى المهتمة بمجال تحقيق التراث إلى التعامل معه بطريقة علمية لا انتقائية تحكم عليه سلفاً، فقيمة تراثنا وحيويته تكمن في تنوّعه وتعدّد اتجاهاته، على مختلف الصعد وفي المجالات كافة.

٧ - وختاماً، وحيث تقيم بعض المؤسسات المرموقة المشكورة في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، قريباً مؤتمراً تكريمياً للإمام العلامة السيد عبدالحسين شرف الدين العاملي (١٣٧٧هـ)، وذلك في مدينة بيروت، بعد أن سبقه مؤتمر آخر قبل أشهر في مدينة قم الإيرانية.. فإننا نقدر جهود العاملين والمنظّمين، ونشكر سعيهم، ونشدّ على أيديهم، لإحياء فكر العلامة شرف الدين، ودراسة تجربته، سيما في المجال التقريبي والوحدوي، ونشر كتبه ومقالاته كاملةً في حلّة جميلة متكاملة، إن ذلك بالتأكيد يخدم الإسلام والفكر الإسلامي، ويرفع مستوى الوعي الإسلامي في أوساطنا أكثر فأكثر.

إنّ مجلّة رسالة الثقلين، وانطلاقاً من حرصها على كل ما يخدم

الفكر والثقافة الإسلاميين، ويعلي من شأن مدرسة أهل البيت عليه السلام،
تفتخر هذه المرة بأن تخصص عددها المزدوج: الواحد والخمسين والثاني
والخمسين للإطالة على فكر هذا العلامة العلم، والأنموذج الكبير في
الحوار الإسلامي - الإسلامي، الذي جمع بين أدب الحوار وأخلاقياته
وقواعده، وبين المصارحة الفكرية والمكاشفة التامة؛ دفاعاً عما يعتقده
المذهب الحق في خضم ازدحام المذاهب الإسلامية.

إننا نعتقد بأن عودة نحو الوراء تحصل اليوم في بعض الأوساط
الإسلامية إزاء ما كان يهدف إليه العلامة شرف الدين من بناء حوار نقي
ومفتوح داخل المذاهب الإسلامية، ونرى أن موجة الطائفية البغيضة المتنامية
مؤخراً في عالمنا الإسلامي تعدّ ارتكاساً عن المقولات والمفاهيم التي نادى
بها المصلحون المسلمون في القرن العشرين، من أمثال العلامة شرف الدين،
لهذا يفترض بمن يديم الطريق أن يعمل جاهداً لمواجهة هذه المصاعب، بروح
التضحية، والوعي، والمنطق..

لقد كان العلامة شرف الدين أنموذجاً من نماذج التضحية،
والجهاد، والبصيرة، والحوار، والنقد، فأقل ما يجب تجاهه على المسلمين
بعمامة، والشيعية بخاصة، والعاملين بالأخص، أن يدرسوا فكره، ويقرؤوا
تجربته، ويحيوا نتاجه، ففي فكره عناصر الدقة، والمتانة، وفي تجربته
مظاهر الوعي والأمانة، وفي نتاجه أرقى أشكال الأدب، وأبرز مظاهر
العربية، وأجلى سمات المنطق، آملين أن يلتفت القارئون والدارسون للنقاط
المطلوبة اليوم فكرياً في دراسة التراث ورجاله، مما ذكرنا بعضه آنفاً
باختصار.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر / ٩].

السيد عبدالحسين شرف الدين رجل الاستثناء في الزمن الصعب

د. حسن محمد نور الدين (*)

صعوبة الزمن

بين مفردتي الاستثناء والصعوبة، تتبدّى تقاسيم شخصية إنسان، من لبنان، تومئ حروف اسمه إلى تاريخ حقبة زمنية، تشكلت فيها صورة حية، لمرحلة أسست لعصر جديد، بعد أن أظهرت أن الكوكب الذي شاءه الخالق، موئلاً ومرتعاً للإنسان ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾^(١)، وأمر الكائنات أن تسجد له، لا يمكن أن يجمد، أو يستمر على نمط حركي واحد، أو حالة ثابتة من حالات الحكم المحكومة بأساليب عيش، ونظم حياة، تتفاوت يسراً وعسراً؛ لأن المتغيرات السياسية، وما أكثرها أو أسرعها، غالباً ما تفرض، أو تستوجب المداولة بين المراحل، اتساقاً مع ما يتطلبه الظرف في المكان والزمان.

وإذا كان الإنسان المقصود، رجلاً من بلد اسمه لبنان، ينتمي إلى هذا الكوكب الذي طاولته مفاعيل المتغيرات السياسية، هبوطاً وصعوداً، فإن ثمة مرحلة من الزمن، حدّاها (١٢٩٠هـ/١٨٧٣م - ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م)، تتدرج في إطار حقبة شهدت حشداً وازدحاماً لقضايا كبيرة وخطيرة، ولعل الأبرز منها، والأكثر أهمية في تاريخ البشرية، نشوب الحريين الكونيتين الأولى والثانية، وتناوب استعمارين على حكمها، وإقدام الأتراك على نشر الفساد المترافق مع التنكيل بالمواطنين، وفرض نظام التجنيد الإجباري، وقانون

(*) باحث من لبنان.

السخرة، وإفراغ البلاد من الأيدي العاملة ومن المؤن، والوقوف موقف اللامبالاة إزاء المجاعة، التي حلت وتفاقم خطرها، على مرأى من سلطة الانتداب، ورأسها جمال باشا السفاح (ت ١٣٤٢هـ / ١٩٢٢م)، الذي مرّ - يوماً - في بلدة جباع من جبل عامل ربيع ١٩١٦م، واستقبله شيوخ المناقاة، وقدموا له عريضة يشكون فيها الجوع، فسألهم: هل أكلت الوالدة ولدها عندكم؟ فأجابوا بالنفي طبعاً، فقال: إذا لا يوجد عندكم مجاعة بالمعنى الصحيح^(٢).

وكان طبيعياً أن يتولد عن مثل هذا الجواب، حالات من القهر والأسى، حملت الناس على التفتيش عن قوة تساندهم، وملاذ يشد من عضدهم، فكانت جمعية الثورة العربية^(٣)، التي تأسس لها فرع في صيدا والنبطية من جبل عامل، وكان أيضاً، أمير مكة الحسين بن علي (ت ١٣٥٠هـ / ١٩٣١م)، الذي أعلن استقلاله في ١٥ حزيران ١٩١٦م، وهاجم الحامية التركية في مكة، وأدخل الرعب إلى قلوب الأتراك الذين عمدوا إلى إخلاء دمشق^(٤)، بعد أن شرع نجم دولتهم بالأفول؛ لتبدأ مرحلة جديدة من الاستعمار لبلاد المسلمين والعرب، بتسيير الحلفاء حملاتهم العسكرية، بعد أن عينوا ضابطاً فرنسياً اسمه فيجل "Figel" مديراً لشؤون صيدا، ومباشرة فرنسا انتدابها بعنف، تمثل بدخول البلدات والمدن، شاهرة السلاح، وضاربة بيد من حديد، تصحبها حروب نفسية وفكرية وثقافية، ترمي إلى تشويه عقيدة الإسلام، وتحطيم شخصيات معتققيها، على اختلاف انتماءاتهم وأعرافهم.

إزاء هذه المتغيرات التي ذهب ضحيتها الشهداء، الذين علقوا على أعواد المشانق، في السادس من أيار عام ١٩١٦م، رأى اللبنانيون عموماً، والعالميون بشكل خاص، أنهم حققوا انتصاراً على الأتراك والفرنسيين،

واجتازوا مرحلتي التسلط، وهم جاهزون للاتحاد مع سورية، فذهبوا إلى المؤتمر السوري المنعقد في الثاني من تموز عام ١٩١٩م، تعبيراً عن رغبتهم، ومبايعين الملك فيصل (ت ١٣٥٢هـ / ١٩٣٣م)، وذهبوا أيضاً إلى صيدا، للاجتماع بلجنة كينغ - كراين، التي أرسلها الرئيس الأميركي توماس ولسون (ت ١٣٤٤هـ / ١٩٢٤م) للوقوف على حقيقة آراء الطوائف والمذاهب الإسلامية والمسيحية، وفوضوا السيد عبدالحسين شرف الدين التحدث باسمهم، وتقديم وثيقة تؤكد ما طرحوه في المؤتمر السوري^(٥).

وعمدوا أخيراً إلى عقد مؤتمر على نهر الحجير^(٦)، يوم السبت في ٥ شعبان ١٣٣٨هـ الموافق ٢٤ نيسان ١٩٢٠م، حضره أعيان جبل عامل وفاعلياته، افتتحه السيد عبدالحسين شرف الدين بكلمة، شرح فيها الظروف الداعية إلى عقده قائلاً: «... إخواني أعلام الأمة... فأما عزة لا تفصم، أو ذلة لا ترحم. أما حياة حرة، أو هوان تهدر في حماته إنسانية الإنسان. أما استقلال دون وصاية، أو استعباد نكون معه كالأيتام على مأدبة اللئام... ألا وإن جبل عامل، بعد هذا المؤتمر، بين أمرين، عز لا تنفصم عروته... أو ذل تهاوت معه كواكب السعد... ألا وإن النصارى إخوانكم... فأحبوا لهم ما تحبون لأنفسكم، وحافظوا على أرواحهم وأموالهم كما تحافظون على أرواحكم وأموالكم، وبذلك تحبطون المؤامرة، وتخدمون الفتنة»^(٧).

وبعد التداول، وافق المؤتمر على إرسال وفد إلى سورية، قوامه السيدان عبدالحسين شرف الدين وعبدالحسين نور الدين (ت ١٣٧٠هـ / ١٩٥٠م)، للاجتماع بالسيد محسن الأمين (ت ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م)، ومن ثم التفاوض مع الملك فيصل^(٨)، وإبلاغه قرارات العاملين القاضية بالانضمام إلى الوحدة السورية، وتعيينه ملكاً على سورية، ورفض الدخول تحت حماية الفرنسيين أو انتدابهم.

وما أن تناهت، هذه الأخبار، إلى المتضررين من هذه الخطوات، حتى ثارت ثائرتهم، بدعم من الفرنسيين، الذين شرعوا ببذر الشقاق، ونجحوا في شق الصف العاملي نسبياً^(٩)، واختلاق الفتن الطائفية التي أدت إلى فاجعة قرية مسيحية مجاورة لمدينة بنت جبيل^(١٠)، من جبل عامل، تدعى عين إبل، انجلت عن مئة قتيل ونيف من أهلها يوم السبت في ١٩ شعبان ١٣٣٨هـ الموافق ٨ آيار ١٩٢٠م^(١١)، وانتصر لهذا الحدث جريدة البشير، يومها، متهمة السيد شرف الدين بتهييج عواطف القوم ضد المسيحيين^(١٢)، وهذا - طبعاً - كان بإيعاز من الفرنسيين^(١٣)، الذين دخلوا في صراع مع الشعب والحكومة في لبنان، فاعتقلوا رئيس الجمهورية، ورئيس الحكومة، ووزراء، ونواباً، من المناطق كافة؛ لينتهي الصراع بالإفراج عن المعتقلين في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٣م، الذي أصبح - لاحقاً - يوم استقلال لبنان^(١٤).

هذا الخضم من الحوادث المتشعبة والمعقدة، والاضطرابات المتداخلة، يشير إلى المرحلة التي تختصر عمر السيد عبد الحسين شرف الدين، العالم الشاب الذي ارتضى لنفسه صفة المنافع عن الحق، ونصرة المظلوم ضد الظالم، والجرأة في قول الكلمة، والشجاعة في المواجهة. ولعل الخصوصية التي تميز بها، كرجل دين، ليس له في دوائر الحكومة اسم أو صفة، تفرض على السلطات العسكرية التعامل معه كتعاملها مع القائمين على الكنائس والأوقاف من أحبار اليهود، وأساقفة النصارى، وعلماء المذاهب الأربعة^(١٥)، لعل هذه الخصوصية تضفي على مهمته شيئاً من الصعوبة التي تتماهى مع صعوبة المرحلة، أو الزمن الذي شهد الويلات والمصائب، التي لا يقوى على مجابعتها، أو قهرها، إلا الاستثنائيون من الرجال، الذين قدر للسيد شرف الدين، أن يندرج في لائحتهم.

ويعيش مخاطر الاستهداف، عاملاً في الجهاد الوطني، مقاوماً للانداب الفرنسي^(١٦)؛ لأنه شاء أن يكون رقماً بارزاً، في حياة أُمّته، ومعلم هداية على طريق نموها وتقدمها، إثباتاً لاستثنائيته وجدارته، واضطلاعاً بدوره وريادته.

وإذا كانت الأمور بخواتيمها، والمقدمات بنهاياتها، والمجريات بظروفها ومتطلباتها، والمتغيرات بتداعياتها، فإن المهمات الصعبة، في الأزمنة الصعبة، تستدعي حضور من يقوى على المواجهة والتصدي، من رجال أقوياء يحسنون توظيف قدراتهم، واستثمارها بصدق؛ ليحكم لهم، ويفوزوا، وتفوز معهم الأمة، ويتحولوا إلى رواد وأعلام وعيالم، تهتدي بنهجهم الأجيال الصاعدة، ويصبوا إليهم الشباب الواعي، الذي يتمثلهم قدوة حسنة، ويتطلع إليهم قادة مخلصين.

وهذا لبنان، ومنه جبل عامل، قد وقع فعلاً تحت وطأة الزمن الصعب، في مرحلة حياة العلامة السيد عبدالحسين شرف الدين، وبدت الحاجة - يومها - ماسة إلى الرجال الاستثنائيين، الذين تكرسهم مواصفاتهم أولاً، وتلازم أقوالهم مع أفعالهم ثانياً، رواد إصلاح، ورموز تنوير لإحداث التغيير نحو الأفضل، والانتصار على الواقع المظلم، انتقلاً إلى واقع تسوده الطمأنينة، ويعمه السلام.

استثنائية الرجل:

ولما كان لهذا المجاهد شرف المشاركة، أو ريادة هذا الدور، فإن الضرورة تدعو على بيان موقعه، في ومن ذاك الزمن، وهل ساهم فعله، وفكره، ونهجه، ودوره في ما آلت إليه أوضاع المسلمين والعرب اليوم؟ وهل كان شخصية استثنائية حقاً وكيف؟

إن الرجل الاستثنائي، في الزمن الصعب، ليس الذي يقول كلمته ويمشي، أو من يسجل على الجدران أنه مرّ أو أقام، أو حلّ هنا وخيم هناك، أو ذاك الذي يهين الأشكال والألوان من الأثواب التي يرتديها تبعاً للطارئ من الظروف والأحوال، أو ذاك الذي يأخذ من عمته أو عباته شماعة يعلق عليها تقاعسه وكسله، يقضي العمر بعيداً عن شؤون الناس وشجونهم، وإنما الذي يعرف الحق، فيسعى إليه، أو يمشي معه، مضططاً بدوره الصعب، حين تدعوه لإنقاذها أمة تعمر قلوب أبنائها بالعرفان المشيع غضباً، جرّاء تكبيلها بسلاسل الجور والظلم، فيلبي، ويجسد شخصية المتفاني في الدفاع عنها من أجل بقائها، وعلو شأنها، وضمان استمرارها.

وهذا لعمرى، يستوجب إلى جانب الدفاع المستميت، والصدق، والإخلاص والتضحية، مواصلة الجهاد بحكمة ودراية، في المستقبل تحصيناً للمسيرة، وحفظاً للمكاسب، وصوناً للأهداف، وهي السمات التي حكمت سلوكية السيد عبدالحسين شرف الدين، وجسدت دوره كشخصية إصلاحية بامتياز، ورجل عصامي، ومجدد تنويري شجاع، وثائر عصري بلباس علمائي مؤمن، كرسها، ربما، ذلك التكامل الواضح، والتلازم المحكم بين جملة من الخصائص المعنوية والمادية، في شخصيته الفردية، كثراء الفكر، وشجاعة الموقف، ووضوح المنهج، وسلامة الخط المصحوب بحسن الأسلوب في التطبيق، وصولاً إلى ما أثر من تراث يعتد به، أو علم ينتفع منه.

ثراء الفكر

فالثراء الفكري، قرين العلامة السيد عبدالحسين شرف الدين، المسلم بالسليقة، وريبب الأبوين المتصل نسبهما بسابع أئمة أهل البيت الإمام

موسى الكاظم^(١٧) (ت ١٨٣ هـ / ٧٩٩م) عليه وعليهم السلام^(١٨)، وسليل الأسرة العلمية، من جبل العلماء المجاهدين في مطلع القرن العشرين^(١٩)، المتلمذ على أبيه السيد يوسف (ت ١٣٣٤ هـ / ١٩١٥م)^(٢٠)، الذي لقنه المنطق وسطوح الفقه، وعلوم المعاني والبيان والبديع، والأدب العربي، وكان قاسياً في تعليمه، إذ كان يدرسه كتب النحو، ويلزمه قراءة العبارة وإعرابها، ثم تفسيرها، قبل الدرس في كل يوم، ثم يطلب منه حفظ بيتي شعر من ديوان الحماسة يومياً، أو غيره من شعر العرب، ويتلوهما، ويفسرهما، فضلاً عن إلزامه بحفظ ألفية ابن مالك، مع التركيز - طبعاً - على حفظ القرآن، وفهم تفسيره، ودراسة (نجات العباد) التي كانت مرجع المقلدين^(٢١)، للعمل على مقتضاها، وقراءة كتابي (فقه الإمامية) و (شرائع الإسلام)^(٢٢)، والغاية واضحة، هي إعداده بإتقان ليخرج إلى المجتمع عالماً متكاملًا، ومحيطاً بجوانب الرسالة الإسلامية كافة.

وعندما أظهر كفاية وتميزاً، وبدت رغبته الطموح في التحصيل، قرر الوالد إيفاده إلى العراق؛ لإكمال دراسته، حيث انتظم في حوزات الكاظمية، وسامراء، وكربلاء، ثم النجف ومدارسها، صارفاً عقداً ونيفاً، من عمره، مع العلماء، تعلماً، وممارسة للشرعية، وتعليماً، إذ كان له شيوخ أخذ عنهم، وطلاب أخذوا عنه؛ ليعود، بعدها، إلى لبنان عالماً مشهوداً له، ومعروفاً في العديد من الأوساط المثقفة، ومتوجاً بإجازات أكابر العلماء^(٢٣)، الذين شهدوا له بالاجتهاد المطلق، ودعوا العامة إلى الأخذ بما يعطي، والامتناع عما يردع^(٢٤).

وهكذا، بدأت مرحلة جديدة من حياته، وبات مقصد العلماء، وكهف الفقراء والمحتاجين، ما فرض عليه الانتقال إلى مدينة صور سنة (١٣٢٧ هـ / ١٩٠٧م)، ليشد أوصالها، بعد أن كانت مفككة، ورفع

صوتها، بعد أن كان خفيضاً، وأنشأ فيها مؤسسات دينية وثقافية واجتماعية، وتربوية، بعد أن كانت صفراً منها؛ ليمثل عالماً فقيهاً، ومثقفاً مميزاً، ورائداً مصلحاً، وصاحب دستور تربوي فريد.

وتتمثل صور عاصمة للفتيا والقضاء، ومنتدى للعلم والأدب، وموئلاً تهفو إليه قلوب المستضعفين، والمعتدين في الأرض، ومركزاً تقام فيه المواسم الإسلامية والاجتماعية والتراثية، تخفق فيها الرايات، وتتزاحم المناكب، وتتابع الوفود من أفغانستان، وباكستان، وإيران، والعراق، فضلاً عن الوفود اللبنانية الجنوبية وشمالية، بقاعية وساحلية، بل كانت ملتقى للعلماء والأدباء والشعراء، يجدون فيها نجعتهم... وكم عقدت فيها حلقات العلم، وندوات الأدب واللغة والتاريخ، وكم التقى فيها زائرون من قم وخراسان والنجف والكاظمية وكربلاء وبغداد، ومن حلب واللاذقية، ومن بعلبك وطرابلس، وكان السيد يزور كل هؤلاء ويزورونه^(٢٥)، ما ساهم في ذبوع صيته، وانتشار اسمه في الأصقاع، حيث راح يتلقى الدعوات لزيارة الأقطار العربية، التي شرع بتبليتها، ومنها: العراق، والحجاز، ومصر.

وهذه الأخيرة أدت إلى نسج علاقات مهمة، أنتجت اتصالاً فكرياً بين مدرستي النجف والأزهر^(٢٦)، تمثل بأبحاث فقهية دارت مع أعلام الأزهر، تضمنها كتاب المراجعات، الذي حوى مئة واثنى عشرة مراجعة طرحها شيخ الأزهر، حينذاك، الشيخ سليم البشري (ت ١٣٣٢هـ / ١٩١٧م)، وردّ عليها السيد شرف الدين بأسلوب فقهي، لا يستتطق فيه رأي الشيعة في ما يقول السنة، ولكنه كان يستتطق ما يقوله علماء أهل السنة، من خلال قواعدهم الفقهية، التي يلتزمون بها في مناقشة فكرهم وفقهم^(٢٧).

وهذه المراجعات، دارت حول: الإمامة، والخلافة، ووحدة المسلمين،

وحب أهل البيت والاحتجاج بكلامهم، والقياس، واحتجاج أهل السنة برجال الشيعة، والتماس النص بالخلافة، وحديث المنزلة، وبيان المراد من الولي، والأدلة على نزول آية الولاية، وفضائل الإمام عليّ، والتماس حديث الغدير، والوراثة والوصية، والإعراض عن حديث أم المؤمنين، وأفضل الزواج النبي، والتخلف عن سيرة أسامة بن زيد بن حارثة (ت ٥٤هـ / ٦٧٤م) إلى غزو الروم، ويوم السقيفة.

وختم الشيخ البشري هذه المراجعات قائلاً: «أشهد أنكم في الفروع والأصول، على ما كان عليه الأئمة من آل الرسول، وقد أوضحت هذا الأمر فجعلته جلياً، وأظهرت من مكنونه ما كان خفياً، فالشك فيه خيال، والتشكيك تضليل، وقد استشفعته (أي نشرته وفتشته) فراقني إلى الغاية، وتمخرت ريحه (أي بحثت عن مهبها) الطيبة، فأنعشني قدس مهبها بشذاه الفياح، وكنت - قبل أن أتصل بسببك - على لبس فيكم، لما كنت أسمعه من إرجاف المرجفين، ومصباح دجى، وانصرفت عنك مفلحاً منجحاً، فما أعظم نعمة الله بك عليّ، وما أحسن عائدتك لديّ، والحمد لله رب العالمين»^(٢٨).

بعد هذه المراجعات المهمة، اعترفت جامعة الأزهر، رسمياً، بالمذهب الإمامي الجعفري إلى جانب المذاهب الأربعة، وظهر لكتاب المراجعات، مع ما نجم عن علاقات الإمام شرف الدين بأعلام الأزهر، من نتائج وآثار، عادت على المسلمين، عامة، بأعم الفوائد وأجداها، وساهمت لاحقاً في إزالة ما كان علق في أذهان الأجيال من أفكار بالية^(٢٩)، وكرست السيد عبد الحسين شرف الدين مرجعاً متكاملاً موثقاً، محيطاً بأمر الدين والدنيا إحاطة العارف الحاذق، وأشعرته أهمية موقعه، وخطورة دوره ودقته، وهي أمور تلزمه الجد والمتابعة والعمل الدؤوب من أجل الاستزادة

المعرفية والعلمية، خصوصاً، في ميادين الإنسانيات، والاجتماع والسياسة، فكان اهتمامه بالتاريخ، والفلسفة والأدب، والمعارف الأخرى، واتسعت آفاقه، وتعمقت أبحاثه، وتشعبت اهتماماته، وغطت رسائله معظم الموضوعات^(٣٠)، التي راحت تنتشر، وتروج في حقبة الزمنية، التي سادتها تيارات جديدة، أفرزت أعلاماً تنويريين، رفعوا شعارات تنبئ بالإصلاح والتقدم، وبذلوا، في سبيل تحقيقها، غالياً ونفيساً، ومن هذه التيارات: تيار الوحدة الإسلامية، والعثمانية، والوطنية، والقومية، وتيار الوحدة العربية، ولكل منها سمات وخصائص، قد تلتقي أو تتعارض مع خصائص الآخر.

فتيار الوحدة الإسلامية، الذي كان نشأ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ممتداً إلى القرن العشرين، جاء رداً على الغزو العسكري والثقافي الغربي للعرب والمسلمين، الذين كانوا قد عجزوا عن صدّه^(٣١)، ما جعل مفكري هذا التيار، ومنهم: جمال الدين الأفغاني (ت ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م) واسمه محمد بن صفر، أي "صف" و "در" ومعناها مخترق الصفوف، وقد تكتب صفتراً^(٣٢)، ومحمد عبده (ت ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م)، وأحمد شوقي (ت ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م)، ومحمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ / ١٩٣٥م)، يطلقون دعوة إلى مواجهة الغربيين، ودحرهم تحت راية الدين، ولاقت هذه الدعوة هوى في نفوس الناس في مصر وغيرها، لكنها ضعفت بعد موت الأفغاني..

فقام على أنقاضها تيار العثمانية الذي تمسك دعائه بالدولة العثمانية، باعتبارها الممثلة الأفضل للإسلام، والأجدر بإنقاذه، ومن رجالاته: أحمد فارس الشدياق (ت ١٣٠٤هـ / ١٨٨٧م)، ومصطفى كامل (ت ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م)، وأحمد عرابي (ت ١٣٢٩هـ / ١٩١١م)، ومحمد فريد (ت ١٣٣٨هـ / ١٩١٩م)، وكان أحمد عرابي قد دعا إلى مؤازرة الدولة العثمانية، معتبراً

عدم الوقوف إلى جانبها، خروجاً عن الدين الإسلامي، وتدميراً له^(٣٣).
 ويلي هذين التيارين، تيار الوطنية، الذي شكل مزيجاً من فريقين،
 الأول يقرن أصحابه^(٣٤)، الإيمان بالدين والوطنية، ويرون أن خدمة الوطن
 واجب، وأي إهمال أو تقصير في هذا الواجب، يعتبر خيانة كبرى^(٣٥)،
 والثاني يرى أصحابه^(٣٦)، أن الدين نقيض رابطة الوطنية، التي تشكل
 القاسم المشترك الوحيد بين الناس^(٣٧).

ثم ظهر تيار القومية، الذي تراوحت أفكار أتباعه بين القومية
 الشاملة على طريقة القومية الألمانية وغيرها، والقطرية والمناطقية، لتتجسد
 لاحقاً بدعوات على القومية اللبنانية، والفرعونية والسورية، وغير ذلك من
 الدعوات التي تحكمت بآفاق تطلعات مناصريه من لبنانيين ومصريين
 وسوريين وسواهم.

أما تيار الوحدة العربية، فقد قام بعد أن تمادى الأتراك في التعبير عن
 عدائهم للعرب، وازداد تمسكهم بالدعوة الطورانية، وأظهروا عنصريتهم
 التركية، من غير أن ينفع معهم النصح والإرشاد^(٣٨)، مما حمل قادة الرأي
 من العرب، على بلورة تصوراتهم لمستقبل أوطانهم بطرق منظمة، أسفرت
 عن تأسيس عدد من الجمعيات والأحزاب السياسية كالإخاء العربي،
 والجمعية القحطانية، والمنتدى الأدبي، وجمعية النهضة العربية، والعربية
 الفتاة التي اختصرت أهدافها بالسعي إلى استقلال البلاد العربية وتحريرها
 من السيطرة التركية، أو أية سيطرة أجنبية، ومن أبرز أتباع هذا التيار:
 سليم البستاني (ت ١٣٠٢هـ / ١٨٨٤م)، وإبراهيم اليازجي (ت ١٣٢٤هـ /
 ١٩٠٦م)، وعبد الغني العريسي (ت ١٣٣٤هـ / ١٩١٦م)، ويعقوب صروف
 (ت ١٣٤٦هـ / ١٩٢٦م)^(٣٩).

إن هذا التداخل بين هذه التيارات المتعددة، تجلى بوضوح أمام السيد

عبد الحسين شرف الدين، الذي أدرك إدراكاً مسؤولاً وواعياً، أن فكره، أو فكر أي مخلص في تطلعاته الوطنية والقومية والإسلامية، لا يمكن أن ينزل عن الجو الذي خلفته الحالة التي تشهدها الحقبة التي انتمى إليها زمنياً، كما أدرك أن النهضة الحديثة لم تكن وليدة الصدفة، ولم تحصل نتيجة الفوضى والاضطراب، بل كانت ثمرة الانفتاح الواعي، والتفاعل الإيجابي بين الحضارات^(٤٠)، التي انفتحت بعضها على البعض الآخر، ليتم التلاقح فكرياً واجتماعياً وثقافياً وغير ذلك.

لذا، أراد لفكره أن، يكون تأصيلاً للشوايت الدينية الخالصة، في جوهرها، من كل البدع والخرافات، واستيعاباً مسؤولاً ومدرراً لحضارات تراثه الإيمانى، تعبيراً عن الاتصال المستمر أو التكامل بين الحقب والأزمنة، إذ لا مستقبل بدون حاضر، ولا حاضر بدون ماضٍ، وهضماً سائغاً لنظريات الأمم الأخرى، وتكيفاً إيجابياً مع السائد من التيارات الحديثة، أخذاً بالإيجابى الحسن منها، ولفظاً للسىء ونبذه.

إذاً، ثمة تسليم واضح، وإقرار جريء وصريح، من قبل مفكرنا السيد شرف الدين، باستحالة إلغاء فكر لفكر، أو تيار لتيار، فضلاً عن إيمانه الراسخ بمبدأ المشاركة والتفاعل؛ لأن الكون، باعتقاده الصائب، يتسع لمن يقوى على التكيف مع غيره، كما يتسع للتنوعات الفكرية والسياسية والدينية والمذهبية، ويحتضنها في نطاق الحوار والاجتهاد؛ لأن الفكر الإنسانى خارج دائرة الاحتكار والانحباس، فهو مشاع للعالمين، يأخذ منه من يشاء ما يشاء، مما يتناسب وطبيعة عمله وتفكيره، وهذه سمة كونية يجب أن يتعامل معها كل راشد وواع.

وعليه، سعى السيد شرف الدين إلى استقرار الأفكار والعقائد، وغاص عمودياً في حيثياتها وجزئياتها؛ ليأخذ بكل إيجابى فيغنيه، ويرفض

كل سلبي فيزيهه، موظفاً، كل ذلك، في سبيل الوحدة التي آمن بها، بعد التأكد والتأكيد أن مرض التجزئة والتمزق والتعصب، ما زال آخذاً في النمو، والقضاء عليه لا يكون بالإمعان في ما يغذيه من محاولات تفتيت، بل بالتعاون والدعوة إلى الوحدة، عملاً بالنصوص الإلهية: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ و﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٤١).

واستجابة للحديث الشريف: «المسلم أخو المسلم، لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله، ولا يظلمه ولا يحقره، كل المسلم على المسلم حرامٌ دمه وماله وعرضه.. ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة» (٤٢).

وإيماناً بقول الإمام علي عليه السلام: «عجبت لرجل يأتيه أخوه المسلم في حاجة فيمتنع عن قضائها...» و«لا يكونن أخوك على قطيعتك أقوى منك على صلاته» (٤٣).

وتيمناً بقول الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام (ت ١٤٨هـ / ٧٦٥م): «المسلم أخو المسلم، وهو عينه ومراته ودليله، لا يخونه ولا يخدعه، ولا يظلمه، ولا يكذبه، ولا يفتابه» (٤٤).

لذا، نجده يركز في خطبه وحواراته، باستمرار، على الحديث الشريف: «من قال لا إله إلا الله، محمد رسول الله، حرام دمه وماله وعرضه» (٤٥).

متابعاً: ليعلم الناس أن أمر المسلمين ليس كما يزعمه إخوان العصبية، وأبناء الهمجية، وحلفاء الحمية حمية الجاهلية... وهذا عصر العلم، عصر الإنصاف، عصر النور، عصر التأمل في حقائق الأمور، عصر الإعراض عن كل تعصب ذميم (٤٦).

ومؤكداً على أن الإسلام لا يفرق بل يجمع، ب: أشهد أن لا إله إلا

الله وأن محمداً رسول الله، بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم الشهر وحج البيت، والإيمان باليوم الآخر، وإحياء ما أحياء الكتاب والسنة، وإماتة ما أماتاه، وتحقيق ما حققاه، وإبطال ما أبطلاه^(٤٧).

أما كيف لهذه الوحدة أن تقوم؟ فإن السيد شرف الدين، حدد جملة من الأسس التي تصلح أن تكون أرضية مناسبة لها، وأهمها:

١ - عدم استغراق مذهب إسلامي في مذهب إسلامي، والابتعاد عن الصغائر التي تؤثر على الجوهر، وهو يقول في هذا الصدد: إن الطريق الوحيد إلى الوحدة الإسلامية بين طوائف المسلمين، إنما هو تحرير مذاهبهم، والاكتفاء من الجميع بالمحافظة على الشهادتين والإيمان باليوم الآخر، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة^(٤٨)، وهو - هنا - يلتقي مع الداعين إلى اعتبار الإمامة، كشهادة ثالثة، أصلاً من أصول المذهب، مع أنه مؤمن بها أصلاً من أصول الدين.

٢ - تناسي الماضي، وعدم نبش الخلافات السابقة؛ لأن المسلمين، حسب رأيه، أحوج إلى التعاون والمسالمة، لا إلى التفرقة والمحاربة^(٤٩)، ومن مؤيدي هذا الرأي الشيخ محمد جواد مغنية (ت ١٤٠٠ هـ / ١٩٧٩ م)، الذي يدعو أيضاً إلى دفن الماضي للاتحاد والتعاون بين المسلمين^(٥٠).

٣ - تشجيع مواقف الداعين، بإخلاص إلى الوحدة الإسلامية، وهو يعبر عن هذا المبدأ بتشجيعه وثائته على وزير الأوقاف المصرية، في عصره، الشيخ أحمد حسن الباقوري لإصداره كتاباً في فقه الإمامية، يهدف من خلاله إلى التقريب بين المذاهب الإسلامية كافة، وثائته، أيضاً، على هاشم الدفتردار المدني، ومحمد علي الزعبي لنشرهما كتاب الإسلام بين السنة والشيعة الذي ساهم في تضيق شقة الخلاف^(٥١).

وكي لا تجوّف هذه الوحدة، أو تفرغ من مضمونها، دعا السيد

شرف الدين إلى الترفع فوق الجزئيات، ونبذ الحساسيات، وإدراك أن الاستعمار وأعوانه، ما تخلفوا قط، ولا للحظة واحدة عن شعارهم (فرق تسد)، بل واضبوا، بثبات، على بث روح الطائفية، وبذر بذور الفتنة، وأصلكوا الخلافات، وغذوا النزاعات، منتصرين لهذا دون ذلك؛ ليصلوا إلى أهم هدف وأخطر غاية ألا وهي القضاء على الإسلام والمسلمين^(٥٢)، إلى ذلك أشار شيخ الأزهر محمود شلتوت (ت ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م) حين أدلى بحديث، بعد وفاة السيد شرف الدين بسنة تقريباً قائلاً: وجد المستعمر ثقباً نفذ منها، وأخذ يعمل على توسيع تلك الثقوب، حتى استطاع أن يلج منها إلى وحدة المسلمين يمزقها، ويفرق شملها، وبذلك دبت، فيما بينهم، عقارب العصبية المذهبية، وكان من آثارها السيئة ما حفظه التاريخ...

وها نحن ندعة باسم الله، واسم كتاب الله، واسم الوحدة الإسلامية، وباسم الاعتصام بحبل الله، ندعو علماء الفريقين إلى التقارب، والمصافحة، حتى نسد الثقوب على المستعمر، ويعود إلينا مجدنا وشعارنا^(٥٣)، وأكد ذلك، أيضاً، الشيخ محمد جواد مغنية حين قال: أجل، لا شيء أكثر فساداً، وأعظم ضرراً من الاستعمار... فعلينا نحن رجال الدين، مسلمين ومسيحيين، أن نقف له بالمرصاد، ونحاربه... علينا أن نعلن مساوئه أينما حل، ونصرخ في وجهه ألى اتجه، بذا نؤدي رسالة الدين بأمانة وإخلاص ونكون مجددين^(٥٤).

إذاً، الاستعمار نقيض التوحيد دائماً، ولتحقيق غايته في التجزئة والتفرقة، يثير النزعات المذهبية، ويستميل من يساعده في ذلك، من زعماء ومأجورين يحرضهم ضد المناوئين لهذه السياسة، لا سيما رجال الدين أمثال السيد شرف الدين؛ لأن أكثر ما يضير هذا الاستعمار، وحدة المسلمين، لما لهذه الوحدة من أبعاد إنسانية تفضح النوايا الخفية للمستعمر، من جهة،

ومن جهة أخرى، تظهر الجوهر الحقيقي للإسلام كدين توحيدى، يمقت التجزئة، ويرفض أي خلاف بين الناس؛ لأن تعاليمه السمحاء، لا تدعو إلا إلى رفاه البشرية وغيرها، وهل أُوحي للرسول ﷺ بغير ذلك؟ وهل جاء خاتم النبيين إلا لنشر القيم الداعية إلى المحبة والسلام؟! ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٥٥).

الإسلام إذاً، دين محبة، ودعوة تآلف ووحدة، ودستور عدل وحرية ومساواة، وبه وبواسطة مبادئه وتعاليمه، تشهد المجتمعات الإنسانية أنها تخلصت من الشوائب، التي خلفتها الجاهلية، حيث كانت شريعة الغاب هي السائدة، لكن انتشار الإسلام خارج الجزيرة العربية، وامتداده إلى أصقاع الدنيا، واختلاف الناس في فهمه، وطريقة تطبيقه، وأسلوب ممارسته، أدت إلى خلل أصاب صورته بشيء من التشويه، خصوصاً عندما راح المفرضون يحملونه مسؤولية تخلف الأمة، ويحاولون إظهاره مظهر السد والحاجز في وجه الحضارة والرقى، متذرعين حيناً بالتخلف الذي كان سائداً أيام الأتراك، الذين عملوا ما بوسعهم لإبعاد الناس عن جوهر الدين، وحيناً آخر بممارسات الأنظمة التي تتبنى الإسلام شكلاً لنظام الحكم، وفي الجوهر تنأى عنه وتبعد كلياً.

فالإسلام، مثلاً، يحارب الفقر ويمقته، ويمنع الفوارق بين الناس، ويدعو إلى المساواة، ويرفض العبودية والاستغلال والاستبداد، ويرفع من قدر المرأة، ويحترم حريتها، ويوجب التعاون، ويوطد أواصر القربى، في حين أن مسلمي الأنظمة، يمسكون بمقاليد السلطات، ويستأثرون بمقدرات الأوطان، ويحرمون الشعب، ويمارسون استبدادهم وكأن سلطتهم مستمدة من سلطة الله عز وجل، ويشغلون الرعية بالقيود، ويحبسون المرأة في دونية مظلمة؛ لتصبح سلعة مجوفة من مضمونها الإنساني.

كلها عوامل تضافرت لتغدو سمة الزمن الصعب، وتبدو كفيلة بالحض على ظهور من يجابهها، فكانت الدعوات الإصلاحية، التي كثرت معها الدراسات والأبحاث، وبرز عدد من المصلحين، ومنهم: عبدالرحمن الكواكبي (ت ١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م) الذي لم يجد وسيلة للقضاء على الظلم والاستعباد إلا بسيادة العدالة والمساواة بين الناس^(٥٦)، ورفاعة الطهطاوي الذي حمل لواء العدالة الاجتماعية، والقضاء على الاستغلال^(٥٧)، وأحمد فارس الشدياق الذي جرد سيفه لقمع الفقر^(٥٨)، وقاسم أمين الذي جاهر بدعوته إلى تحرير المرأة، وتعليمها وخروجها إلى العمل كالرجل^(٥٩).

شجاعة الموقف،

هذه الدعوات التي راحت أفكارها تنتشر بين الناس، لتشكّل مادة حوار ونقاش في المجتمعات، خصوصاً تلك المحكومة ممن لا يعترفون بالمجاعة إلا إذا أكلت الأم ولدها، طرقت سمع السيد شرف الدين، ودخلت إلى قلبه المطعم بها أصلاً، فاستوعبها وهضمها، وصهرها بفكره، وراح يترجمها قولاً وفعلاً، جامعاً بين الدين والأخلاق، التي يراها ملكات في النفس، إنسجاماً مع قول عبدالرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م): لا تحصل الملكات إلا بتكرار الأفعال؛ لأن الفعل يقع أولاً، وتعود منه للذات صفة، ثم تتكرر فتكون حالاً، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة^(٦٠)، ثم يزيد التكرار، فتكون ملكة أي صفة راسخة، يمكن اكتسابها عبر التربية والمعايشة اللينة، إذا حسنتا، ابتعد المكتسب عن الخطأ، وآل المجتمع والإنسان إلى الصلاح.

ولأن الوحدة لم تعد مجرد واجب ديني إسلامي مقدس، ومن

مكونات إيمان المسلم، بل غدت ضرورة حياتية يدركها العقل؛ لضمان الحد الأدنى من سلامة الأمة، وبقاء الكيانات التي تتشكل فيها دولاً ومجموعات إقليمية، فهي، من الناحية الموضوعية المصلحية، المحضة، ليست ترفاً يقتضيه ويبرره الاكتفاء، بل ضرورة تقتضيها المصلحة أيضاً^(٦١).

ولأنها، أي الوحدة الإسلامية، قضية حيوية بالنسبة للمسلمين، وهي تتصل بوجودهم وبكراماتهم، تشكل البعد الأساس للمستقبل^(٦٢)، الذي يقتزن فيه الدين بالعمل الصالح، المعبر عنه بالمعاملات الدائرة بين أبناء المجتمع، فإنها في مطلق معانيها وأشكالها، شكلت غاية إصلاح، وفي كل ميدان من ميادين الحياة، عند السيد شرف الدين^(٦٣)، الذي اعتقد أن نجاحها أو قيامها، مرهون، أولاً، بحل العضلات الاجتماعية، وهو أمر دون تحقيقه مخاطر، تستدعي التضحية التي لم يرضَ بها ويبخل، بل مجرد أن خرج الأتراك من لبنان، ودخل الفرنسيون الذين شجعوا إنشاء الحكومات المحلية، ولأنه لم يؤمن بانتداب أو حماية دولة استعمارية، سارع إلى إنشاء حكومة في صور برئاسة السيد عبدالله يحيى خليل^(٦٤)، قائلاً: وأنشأنا في صور حكومة.. تحتفظ بالزمام لتلقيه بعدئذٍ إلى الأمير فيصل حتى تُتَوَجَّ مساعيه بالنجاح^(٦٥).

ثم سارع إلى إعلان الجهاد من أجل التحرير والوحدة^(٦٦)، محولاً داره إلى ندوة أحرار، وكم كان له من وقفة وطنية، يقاوم الاستعمار، ويصد البغي والظلم، ويدافع عن الكرامة، كرامة أُمته ووطنه^(٦٧)، وخير دليل على ذلك، قيامه بكل جاسوس الفرنسيين ابن الحلاج^(٦٨) برجله، وإتباعه بضربات عنيفة بالحذاء على رأسه ووجهه، حين جاء لاعتقاله، فعاد منهزماً مع من معه من جلاوزة الفرنسيين، الذين كادت أيدي الناس وأرجلهم أن

تقضي عليهم^(٦٩).

وفي موافقه لم يخرج عن تشديده على صون الوحدة الوطنية، عبر المحافظة على المسيحيين وحماية أملاكهم، وفي سبيل ذلك أقسم اليمين في وادي الحجير وقطعه على من حضر هناك، ولما لم يرق للفرنسيين مثل هذه المواقف، قاموا بمحاولات لاغتياله، فهاجموا داريه في صور وشحور وأحرقوهما، حيث فرّ وألتجأ إلى كهف على نهر الليطاني، كان التجأ إليه أحد أجداده السيد صالح شرف الدين سنة (١٨٧٣م) فراراً من جور أحمد باشا الجزار (ت ١٢١٩هـ / ١٨٠٤م)^(٧٠).

وتحقيقاً للعدالة والمساواة بين الناس، أرسل رسالة إلى حبيب باشا السعد عام (١٣٤٧هـ / ١٩٢٧م)، رئيس الجمهورية اللبنانية تحت الانتداب الفرنسي لسنتين من (١٩٣٣م حتى ١٩٣٥م)، منها: «أما الجنوب فإن مرابعه يياب، وماءه محض سراب، لم تمتد إليه يد ببناء، ولم تلح له بارقة رجاء، ولعل يدك الكريمة تسرع إليه بما أبطلأ عنه غيرك، وتعود إليه بما حرم منه»^(٧١).

كما أرسل رسالة أخرى إلى الرئيس بشاره الخوري (ت ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م)، أول رئيس للجمهورية اللبنانية بعد الاستقلال سنة (١٩٤٣م)، إثر اعتداء الصهاينة على الجنوب اللبناني في عام (١٣٦٨هـ / ١٩٤٨م)، ينتقد فيها التقصير الرسمي، قائلاً: «حسبنا الآن نكبة جبل عامل، في حدوده المتاحة، ودمائه المباحة.. هذا الجبل المرابط يدفع جزية الدم لشذاذ الآفاق، من كل من لفظته الأرجاء، ونبذته الأرض والسماء، وهذا الجبل الذي يقوم بما عليه من واجبات، ولا يعطي ما له من حقوق، كأنه الشريك الخاسر، يدفع الغرم، ومن الغنم يحرم...»^(٧٢).

ومثلها رسالة أخرى إثر حملة عسكرية قامت بها الحكومة اللبنانية

على عشائر الهرمل في أيلول ١٣٦٩هـ / ١٩٤٩م، يحدد فيها سياسة إنمائية تتتهجها دولة حكيمة، يقول: «... ألا ترون أن تغزوهم بجيش من التسامح، تريحون به جناح الوطن المهيبض، وتشفون جنبه المريض؟ ألا ترون أن تؤدبهم بنقلهم من البداوة إلى الحضارة، ومن البطالة إلى العمل، ومن اليأس إلى الأمل؟ ألا ترون أن إعمار المدارس والمستشفيات، يغني عن إعمار السجون والقبور؟ وشق الشوارع والطرق، يغني عن شق الجيوب والصدور؟» (٧٣).

وهو في ذلك، يريد للدولة أن تقوم بما يزيل الحيف اللاحق بالمستضعفين والمحرومين، وإنصافهم وظيفياً وإنمائياً عبر انخراطهم في الوظائف، وتنفيذ مشروع الليطاني، وتأسيس المدارس، وشق الطرقات وتعبيدها، ورفع مستوى الخدمات، وتطوير المحاكم الشرعية وإصلاحها، وتعليم المرأة وتشجيعها على أخذ دورها في المجتمع.

لمواجهة الفقر والبؤس، استثار الأغنياء من مهاجرين وغيرهم، لتأدية ما عليهم من حقوق، كان يأخذها، ويوزعها على الفقراء بالتساوي، قائلاً في هذا المجال: «طفقت، يومئذ، استجد الكرام الموسرين، وأستجدي ضمائرهم لأولئك الهلكى بمرأى ومسمع منهم.. رفعت صوتي، بذلك، أستخرج من أعماق الناس معانيهم الإنسانية، ولعلي أبلت في ذلك بلاء حسناً، فيسر الله لي بفضلته وكرمه، ما كنت ألتسه لأولئك الجوعى العراء.. وبرزت الأخماس تقفوها الزكوات، وتتلوها أثلاث الموتى إلى رصيد معلوم..» (٧٤).

وانتصاراً للمرأة، وخوفاً عليها أن تتيه في صحراء العمه والضلال، وتطفئ عليها موجة الجهل المرير، فتغرق في تلك اللجة السحيقة، افتتح مدرسة الزهراء، في صور، ليخرج الفتاة معدة لتربية مستقبل، وبناء جيل،

كما يخرج الفتى من المدرسة الجعفرية... ولما نودي بإقفال هذه المدرسة من قبل الحكومة اللبنانية سنة (١٣٦٢هـ / ١٩٤٢م)؛ لتحل محلها المدرسة الرسمية سنة (١٣٦٣هـ / ١٩٤٣م)، سارع إلى فتح داره أمام الفتيات، المقتحمن العقبات، بأسمى معاني الحياة^(٧٥).

كل ذلك، كان تعبيراً عن حماسة للعلم الذي فرضه الله ورسوله على كل مسلم ومسلمة، وتدعيماً له، اندفع إلى تأسيس مدرسة تقضي على الجهل، وشعاره المدوي دائماً: لا ينشر الهدى إلا من حيث انتشر الضلال. فكانت الكلية الجعفرية في صور سنة (١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م)، التي درّس فيها العلوم الدينية والعصرية^(٧٦)، وسعى إلى تطويرها بإلحاق مسجد بها، جعل سطحه معداً لبناء سبع غرف للتدريس... ثم أنشأ في الطبقة العليا من المؤسسة غربي المدرسة صرحاً ضخماً، أسماه نادي الإمام جعفر الصادق، يستقبل الناس أيام المواسم الدينية، وأيام الأفراح والأتراح، وعند إقامة الحفلات في سائر الشؤون، لا سيما يوم عاشوراء، ومولد سيد الأنبياء، والغدير^(٧٧)، وكان يطمح أن يحولها إلى جامعة قائلاً في هذا الصدد: «.. نأمل بتوفيق الله عز وجل، أن تظل سائرة على سنة النجاح المطّرد إلى جامعة لأنواع الثقافات العالية من العلوم الإسلامية وغيرها»^(٧٨). وهو يبغى إلى تعهد الأجيال، وصولاً إلى بناء المجتمع المتحضر، والقادر على التكامل مع محيطه، للعب دور فاعل في المسيرة القومية، التي أخذت من اهتمامه.

وهو الذي عاش مأساة فلسطين، وناضل من أجل نصرتها، وشجع كل من وقف معها، وآزرها وحرص على الجهاد في سبيلها، قائلاً: «ولنكن نحن من فلسطين مكان الحسين من قضيته، ليكون لنا وفلسطين، ما كان له ولقضيته، من حياة ومجد وخلود... لقد دقت

الساعة، وحمّ الأجل، وموعدا فلسطين، فيها نموت أو عليها نحيا» (٧٩). وفي سنة (١٣٦٨هـ / ١٩٤٨م)، وإثر انعقاد مؤتمر عمان لإنقاذ فلسطين، أرسل برقية إلى الملك عبد الله (ت ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م)، يحث فيها العرب والمسلمين على تحريرها، جاء في خاتمة البرقية: «وليس ذهاب فلسطين فاجعاً، لولا أنه ذهاب لريح العرب وعزّ الإسلام، وكرامة الإنسان المسترق في غد هذا الشرق القريب» (٨٠)، ولعله هنا، يعبر عن ميله القومي، تأييداً لقيام وحدة عربية إسلامية، تستند إلى وحدة برامج تعليمية تربوية، ووحدة سياسية خارجية، ووحدة جمارك، على أن يحميها جيش عربي قوي، ويفهم هذا من قوله للملك فيصل حين قدم له مبلغاً من المال وتبرع به: «تمنيتُ أن أكون درهماً، لأضع نفسي في صندوق الجيش العربي، لأدافع عن الإسلام والعروبة» (٨١).

وهو لم يخف هذه الرغبة، بل أظهرها بالتعبير عن إعجابه بالرئيس جمال عبدالناصر (ت ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م) وبسياسته وفكره، حين أرسل رسالة لفيصل الثاني (ت ١٣٧٧هـ / ١٩٥٨م) ملك العراق، يدعوه فيها أن يكون لشعبه كما هو عبدالناصر لشعبه مخلصاً (٨٢).

وهذه المهمات التي يقصر عنها مجموعة من الرجال، اضطلع بها السيد شرف الدين، وتصدى إليها، من غير أن تشبه عن متابعة البحث والتأليف، وهو الذي أصدر العديد من المؤلفات المطبوعة، وأودع الأخرى أدراج المكتبة استعداداً للطباعة، فمن المطبوع مثلاً: الفصول المهمة في تأليف الأمة: المجالس الفاخرة في مآتم العترة الطاهرة؛ أجوبة مسائل موسى جار الله؛ الكلمة الغراء في تفضيل الزهراء؛ فلسفة الميثاق والولاية؛ أبو هريرة؛ إلى المجمع العلمي العربي؛ كلمة حول الرؤية؛ النص والاجتهاد؛ مؤلفو الشيعة في صدر الإسلام، زينب الكبرى؛ ثبت الأثبات في سلسلة

الرواة؛ بغية الراغبين في سلسلة آل شرف الدين، الذي طبع لاحقاً بعناية وإشراف ولده السيد عبدالله شرف الدين؛ وأخيراً المراجعات.

وهناك كتب أخرى طبعها بالاشتراك مع غيره من العلماء، أما المؤلفات المخطوطة، فمنها: المسائل والرسائل، كما أن هناك مؤلفات عاثت بها أيدي الأشرار، ففقدت حين اعتدى الفرنسيون على داره^(٨٣).

إنها غزارة في التأليف، تؤثر إلى حب العلم والثقافة، باعتبارهما دعامتين أساسيتين للمجتمع الذي يسعى أبناؤه إلى تطويره، التحاقاً بركب الحضارة والتقدم.

والسيد شرف الدين، في علمه الجهادي، ودأبه على التأليف والعطاء، لم يحد عن العلمية والموضوعية، بل كان صاحب منهج واضح، وأسلوب عمل حسن أيضاً، يمكن تلمسه من خلال كتاباته وتطبيقاتها ومواقفه وطرائق تصديه للمشكلات، التي أظهرته بحق مصلحاً دينياً، وسياسياً، واجتماعياً.

وسطية المنهج ووضوح الأسلوب:

على المستوى الفقهي، ذهب السيد شرف الدين مذهب المعتزلة في عدم إمكانية رؤية الخالق، التي نفاها عقلاً وشرعاً^(٨٤)، وعارض أهل المشبهة والمجسمة القائلين بأن الله جسم مركب من لحم ودم، وأنه على صورة الإنسان، له طول وعرض، كما له وجه وعينان^(٨٥)، والتقى مع المعتزلة قائلاً: إن الله منزّه عن الجسم والكيف، ومقدس عن أن يحس، أو يحاط به علماً، وهو أي الله تعالى دل على ذاته بذاته، وتترزه عن مجانسة مخلوقاته^(٨٦)، وفي مسألة الاختيار والجبر، نجده في أمر بين أمرين، إذ لا جبر ولا تفويض عنده، وكذا في مسألة الإمامة، فإنه، إزاءها، صاحب

معتقدين، الأول: الإمامة أصل من أصول الدين، يمارس ذلك، في عباداته وفي علاقاته مع الخالق، وفي مجالسه الخاصة والضيقة، والثاني: الإمامة أصل من أصول المذهب، ويعبر عن ذلك في مجالسة العامة، وحواراته، وعلاقاته، مع أئداده من العلماء المسلمين، مركزاً - دائماً - على الحديث الشريف: «من قال لا إله إلا الله، محمد رسول الله يحترم ماله وعرضه»؛ ليوظف كل ذلك في سبيل الوحدة الإسلامية التي آمن بها، وعمل لأجلها، ودعا إلى قيامها، لكنه، في الوقت عينه، لم يحد عن القول بعصمة الإمام، وأعلميته، وأفضليته، على أهل زمانه علماً وورعاً وأخلاقاً.

وإذا وصلنا إلى الأحاديث النبوية، التي ذكرها أبو هريرة، وجدناه يرفض المتناقض منها، الذي لا يتفق مع منطق العقل، ويمسّ العقيدة، وهو يحدد نوعيتها بالقول: بعضها يمس العقيدة في صورتها ومعناها، وبعضها يمس الطوائع في نواميسها ونظرتها، وبعضها متناقض متداحض، وبعضها خارج عن قواعد العلم المشتقة من صلب الدين، وكثير منها تزلف، وبعضها خيال أو خبال، وهي بجملتها خروج على أصول الصحة في كل معانيها^(٨٧).

أما مسألة المآثم الحسينية، فإنه لم يحرمها، لكنه لم يشجع، أو يحبذ القيام بشعائرها على الطريقة التقليدية، والدليل على ذلك، عدم إقامة الشبه (أي مسرحية عاشوراء) لا في صور، ولا في بلدته شحور، مركزي إقامته، كما أنه كان ينتقي خطباء المنابر الحسينية من الشباب المثقفين، ويخضعهم لرقابة مشددة، يتولاها بنفسه، ويعدّهم إعداداً جيداً، لغة وأسلوباً ومضموناً، وطريقة أداء، لينأى بهذه المجالس عن المبالغات الممقوتة، والسخافات الهابطة التي لا يقبلها الذوق، ولا يألّفها العقل، حتى إنه كان في كثير من الأحيان، يقوم مقام المقرئ، معتمداً على استخراج العبرة (بكسر العين) من ثورة الحسين، لا على استدرار العبرة (بفتح العين)

حزناً وأسى؛ لأن الحسين لا يُبكى عليه، بل يقتدى به^(٨٨)، ووضع لأجل ذلك، مؤلفاً هو المجالس الفاخرة في مآتم العترة الطاهرة^(٨٩).

ولأن سهام النقد والتجريح، راحت تنهمر من المؤمنين وغير المؤمنين، عمد إلى تهذيب المعتقدات، وتشذيب الدين، وتجديد الفكر بمرونة واعتدال، وحسم الموقف مما كان مثار خلاف وجدل، كولادة الرسول ﷺ، حيث وافق على الثاني عشر من ربيع الأول كتاريخ لهذه الذكرى العظيمة، علماً أن الشيعة يرونها في السابع عشر منه، ليستوي السيد صاحب منهج وسطي في الإسلام تتطلع إليه كل الأعين الرانية إلى الوحدة، وتهفو إليه كل الأفئدة المتعطشة إلى الخلاص من الفرقة والتعصب.

وهو في عمله، كان يجمع التقوى والإيمان إلى جانب العلم والعمل، مستثمراً طاقات الأجيال، ليوظفها في سبيل المصلحة العامة، كالذي فعله مع المغتربين العاملين في إفريقيا، حين استقدم منهم المساعدات المالية، ليبني صرحاً أسماه بناية المهاجر، وأوقفه معهداً علمياً سنة (١٣٦٩هـ / ١٩٤٩م)^(٩٠)، وهذا السلوك المتلازم وطبيعة المهمة، لا يتناقض مع سلوكه في حياته الخاصة، أو علاقته مع الآخرين، فإذا فاجأ أمر ما، يستحضر سرعة البديهة على الفور، وإذا شاء إخفاء أمر ما، يلجأ إلى الترميز بالابتعاد عن التصريح، وتمثيلاً على الأول: كان في إحدى الحفلات في مصر، وتقدم الحضور منه لمصافحته، وبينهم الأدبستان فاطمة اليوسف، ومي زيادة (ت ١٣٦٠هـ / ١٩٤٠م)، واسمها ماري بنت إلياس زيادة، وحين همت السيدة مي، بيدها، لمصافحته، لفَّ يده بعباءته وصافحها، فارتبكت، ولكن السيدة اليوسف، أنقذت الموقف بقولها: لعل الشيخ على وضوء. وتمثيلاً على الثاني: أرسل ذات يوم رسالة مرمزة إلى معلم المدرسة

المسؤول عن ابنه جعفر، الذي فخر بها على زملائه وهي من الشعر:
بارك الله بجعفر يقرأ الخط المبعثر
يجمع الحرف كجوهر فلعمر الله تُشكر^(٩١)

وقريب من هذا، ما جرى بينه وبين أحد أقاربه الشباب، الذي دخل عليه يوماً، ويده كتاب حول ديكارت، فبعد أن قلب صفحاته مسرعاً، راح يعرض لنظريات الشك واليقين، والإلحاد والإيمان، ثم التفت إليه قائلاً: يا بني إن اهتماماتي بموضوعات معينة، لا تسمح لي بمطالعة مثل هذه الكتب، وأعتمد عليك في أن تجعلني على اتصال مع المؤلفات الحديثة، وهو هنا، ترك له حرية المطالعة، واحتفظ لنفسه بالمراقبة^(٩٢)، بعد أن أوحى بما لا يشجع على قراءة مثل هذا الكتاب.

هذا الحشد من الخصائص المميزة في شخصية الإمام شرف الدين، وذاك الدور الرائد وطنياً وقومياً في الميادين الاجتماعية والتربوية والأخلاقية، المستند إلى وسطية المنهج، واعتدال الرؤية والأسلوب وشجاعة الموقف، وذلك الكم من المؤلفات النوعية التي تتم عن غنى معرفي، وعمق تحليلي، تأخذ بصاحبها إلى موقع الصدارة، وتضعه موضع الرفعة؛ ليكون صاحب مكانة، تمثلت:

أولاً: بالتأييد الشعبي، الذي عبر عنه محمد علي الحوماني (ت ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م)، حين صوّر مشهد عودته من المنفى إلى بلده شحور، قائلاً: أتذكر يوم عدت من مهجرك في سبيل الجهاد، وهبطت صور، فانكفأ الجبل بأسره عليك... إلى أن يقول: وشهدت، أيضاً، يوم أعلنت صعودك إلى قريتك شحور، ثم سعدت والخيّل في ركابك تمتد أميالاً، حتى إذا وطأت أرضها، غصّت الحقول بالمستقبلين، حتى لم يبق شجرة تتدلى فروعها على غير محبيك، وزائريك^(٩٣).

وثانياً: بالشهادات التي حظي بها من قبل عارفيه، ومنهم: محمد رشيد رضا الذي أشاد بالروح الإسلامية العالية التي كان يتمتع بها السيد شرف الدين^(٩٤)، والكاتب عبدالعزيز سيد الأهل الذي وصفه بالإمام، ووصفه محمد كرد علي بالإخباري^(٩٥)، والسيد محمد حسين فضل الله الذي اعتبره إماماً في الوحدة الإسلامية، في الخط الموضوعي للوحدة، وفي الخط العلمي للوحدة، كان يسبق عصره^(٩٦)، والدكتور مصطفى الرافعي الذي لم ير فيه زعيماً روحياً لمذهب من مذاهب المسلمين فحسب، بل رأى فيه زعيماً روحياً لأبناء المذاهب الإسلامية كلها^(٩٧)، ومي زيادة التي قالت: لا أدري هل خاتمه أطوع لبنانه، أم فكره أطوع لسانه^(٩٨)، وجمعية منتدى النشر في النجف، قالت عنه: علم الأمة الشامخ، وحصنها المنيع^(٩٩)، ومجلة رسالة الإسلام وصفته بالعلم من أعلام الأمة الإسلامية^(١٠٠)، وغير ذلك الكثير ممن أحلّوه محلّ المقدمين.

وثالثاً: بإجازات أعلام المسلمين، الذين ركزوا على علمه، وإيمانه وعدله، واجتهاده، معترفين بعالميته ونزاهته، وأمانته، وتقاه، ومرجعيته، وجمعه لشرائط الإفتاء^(١٠١).

وهذه المكانة التي سعت إلى السيد عبدالحسين شرف الدين، ولم يسع إليها، في زمن قلما نجا معاصروه من لوثة سيقّت إليهم عمداً، أو بطريق الصدفة، أحلّته محلّ الأعلام المجاهدين، والرجالات المبرزين، وأنزلته منزلة النافحين بصدق، عن حقوق سلبت، وأهداف طمست، وقدمته إلى الجمهور علماً وضع العقل والفكر في أرفع منزلة من سلم النشوء والارتقاء، وجامعاً لمعارف الدين والدنيا، وصاحب دستور تربوي رائد، وصاحب منهج وسطي في إسلامه الصادق، وأسلوب مميز في التعاطي مع ما يعرض له من مشكلات وهموم وقضايا، ومبدلاً لمعتقدات قديمة أن

لا شأن لرجل الدين بالسياسة وأمور الاجتماع، بل يقتصر دوره على التحليل والتحريم؛ لتقوم معتقدات جديدة أن رجل الدين هو من صلب المجتمع، ومن لا يتصدى لدوره يشك بإيمانه وإسلامه، وهي السمة السائدة اليوم، والمنتشرة بشكل واضح في المجتمعات، وفيها عبق من ضوع السيد عبدالحسين شرف الدين الذي استقر أخيراً، شاهداً على عصره الصعب، وزمانه المعقد، كقيمة استعلت على المكان والزمان، وقائداً رائداً، ومصلحاً واعظاً، ومتوراً مؤمناً، وقدوة حسنة استحضرها العلماء في العصر الحاضر، منطلقين إلى أخذ دورهم في المجتمع الذي حرم من طاقاتهم أعصرأ ودهوراً، مشكلاً نقطة ارتكاز دائرة الاستثناء في الزمن الصعب، حيث يشار إليه، ويستحضر عند كل أمر جلل، وحسبه أخيراً، كما حسبنا، كلام رب العالمين: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (١٠٢).

* * *

الهوامش:

- (١) فاطر: ٣٩.
- (٢) علي مروة، تاريخ جباع ماضيها وحاضرها: ٤٣٤، ط. الأولى ١٣٨٧هـ / ١٩٧٧م، دار الأندلس - بيروت.
- (٣) أمين سعد، الثورة العربية الكبرى ١: ٨، مطبعة عيسى البابي - القاهرة.
- (٤) جورج أنطونيوس، يقظة العرب: ٣٣٣، ط. السادسة ١٤٠١هـ / ١٩٨٠م، دار العلم للملايين - بيروت.
- (٥) عبدالحسين شرف الدين، صفحات من حياتي: ٦، مجلة الألواح، العدد ١٤؛ وأنظر أيضاً: حسن محمد سعد، جبل عامل بين الأتراك والفرنسيين ١٩١٤ - ١٩٢٠: ٥٣ - ٥٦، ط. الأولى ١٤٠١هـ / ١٩٨٠م، دار الكتاب - بيروت.
- (٦) وهو مكان يتوسط البلاد العاملية، يلفظ بالتصغير، واقع على بعد خمسة عشر ميلاً من النبطية غرباً؛ أنظر: محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل: ٢٢٦، ط. ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، دار النهار - بيروت، وأنظر أيضاً: محسن الأمين، خطط جبل عامل: ١٦٨، تحقيق: حسن الأمين، ط. الأولى ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، الدار العالمية - بيروت.
- (٧) عبدالحسين شرف الدين، بغية الراغبين في سلسلة آل شرف الدين ٢: ٤٣٩ - ٤٤١، تحقيق وإعداد السيد عبدالله شرف الدين، ط. الأولى ١٤١١هـ / ١٩٩١م، الدار الإسلامية - بيروت.
- (٨) أحمد رضا، مذكرات للتاريخ: ٩٨٩، مجلة العرفان المجلد ٣، الجزء ٩.
- (٩) هاني فرحات، الثلاثي العاملي: ٤١، ط. ١٤٠٢هـ / ١٩٨١م، الدار العالمية - بيروت.
- (١٠) بنت جبيل: مدينة لبنانية تقع في أقصى الطرف الجنوبي من جبل عامل، تبعد عن بيروت ١٢٠ كلم، مركز قضاء في محافظة النبطية، يناهز سكانها الخمسين ألفاً منهم حوالي الأربعين في المهجر خصوصاً في أميركا. أنظر رامز حوراني، بنت جبيل الشاعرة: ١٣ - ١٤، ط. الأولى ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.
- (١١) بغية الراغبين، مصدر سابق ٢: ١٦٠.
- (١٢) جريدة البشير، ٢٠ آيار ١٩٢٠.
- (١٣) تاريخ جبل عامل، مصدر سابق: ٢٢٦ - ٢٢٧؛ وأنظر: علي عبدالمعظم شعيب، مطالب جبل عامل: ٧٨، ط. الأولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، دار مجد - بيروت.

- (١٤) زاهية قدورة، تاريخ العرب الحديث: ١٧، ط ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م، دار النهضة العربية - بيروت.
- (١٥) بغية الراغبين، مصدر سابق ٢: ١٤١.
- (١٦) محمد كاظم مكي، حجة الإسلام السيد حسين يوسف مكي العاملي في حياته ومماته: ٥، ط. الأولى ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م.
- (١٧) شجرة النسب: عبدالحسين شرف الدين بن يوسف بن جواد بن إسماعيل بن محمد الثاني ابن محمد بن إبراهيم أبو محمد الملقب بشرف الدين بن زين العابدين بن علي نور الدين بن نور الدين علي بن عز الدين الحسين بن محمد بن الحسين القطعي بن موسى السجة بن إبراهيم المرتضى ابن الإمام موسى الكاظم عليه السلام.
- (١٨) عبدالحسين شرف الدين، النص والاجتهاد: ٧، ط. الثانية ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م. مؤسسة الأعلمي - بيروت.
- (١٩) محمد كاظم مكي، مصدر سابق: ٥.
- (٢٠) السيد يوسف ابن السيد جواد، وأمه كريمة الحاج درويش ابن الحاج علي. ولد في شحور سنة ١٢٦٢ أو ١٢٦٣ للهجرة، ارتحل إلى جبع سنة ١٢٧٥ هـ، ثم هاجر إلى العراق سنة ١٢٨٥ هـ، ثم عاد إلى بلدته شعور، ومنها انتقل إلى بنت جيل، ثم عاد إلى بلدته، ومنها إلى طورة بطلب من أهلها، ثم إلى بلدته من جديد، حيث توفي سنة ١٣٣٤ هـ. أنظر: بغية الراغبين ١: ٤٥٩ و ٤٦٩.
- (٢١) أنظر: بغية الراغبين، مصدر سابق ٢: ٦٤.
- (٢٢) مجلة المعهد: ٤، العدد ٣، آذار ١٩٤٧ م.
- (٢٣) من أبرز الذين أجازوه: شيخ الطائفة في عصره الشيخ محمد طه نجف، والشيخ محمد كاظم الخراساني، والشيخ آقا رضا الهمداني، والشيخ عبدالله المازندراني. الشيخ فتح الله الشيرازي، والسيد إسماعيل الصدر. أنظر بغية الراغبين، مصدر سابق ٢: ٨٧ - ٩٢.
- (٢٤) هادي فضل الله، رائد الفكر الإصلاحية السيد عبدالحسين شرف الدين: ٤٨ - ٥٠، دار عز الدين - بيروت.
- (٢٥) المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، (جعفر شرف الدين) دفتر الذكريات الجنوبية ٢: ٥٤، دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م.

- (٢٦) هادي فضل الله، مصدر سابق: ٥٢.
- (٢٧) محمد حسين فضل الله، السيد عبدالحسين شرف الدين الشخصية المتعددة الجوانب: ١٥٠، الكتاب الصادر عن المؤتمر المنعقد حول السيد شرف الدين عام ١٩٩٢م.
- (٢٨) أنظر: عبدالحسين شرف الدين، المراجعات: ٣٧٤ . ٣٧٥، ط. الثامنة عشرة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م، دار التعارف للمطبوعات - بيروت.
- (٢٩) عبدالحسين شرف الدين، مجلة العرفان: ٧٧٨ - ٧٨٠، المجلد الخامس.
- (٣٠) هادي فضل الله، مصدر سابق: ٥٥.
- (٣١) علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٧٩٨ . ١٩١٤ : ١٠٩، ط. الثالثة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، الدار الأهلية - بيروت.
- (٣٢) بسام عبد الوهاب الجابي، معجم الأعلام: ٧٢١، ط. الأولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، نشر الجفان والجابي - دمشق.
- (٣٣) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١ : ١٤٨، ط. الثانية ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م، مكتبة الآداب - القاهرة؛ وانظر: ساطع الحصري، ما هي القومية: ٢١١، ط. الثانية ١٣٨٢هـ / ١٩٦٣م، دار العلم للملايين - بيروت.
- (٣٤) ومنهم رفاة الطهطاوي.
- (٣٥) علي المحافظة، مصدر سابق: ١٢٥.
- (٣٦) ومنهم عبدالله النديم.
- (٣٧) عبدالله النديم، سلافة النديم ٢ : ٧٨، مطبعة الهندية - القاهرة ١٣٢١هـ / ١٩٠١م.
- (٣٨) محمد جابر آل صفا، مصدر سابق: ١٨٦.
- (٣٩) جورج انطونيوس، مصدر سابق: ٨٨؛ وانظر: ساطع الحصري، محاضرات في نشوء الفكرة القومية: ٢٢١ - ٢٢٣، ط. الرابعة ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م، دار العلم للملايين - بيروت.
- (٤٠) Volney, Voyage en syrie et en egypte. Paris, ٢ edition. P. ٣٩٥ - ٣٩٨.
- (٤١) آل عمران: ١٠٣، والأنعام: ١٥٩.
- (٤٢) رواه مسلم. أنظر النووي، رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين: ٩٣ - ٩٤، دار الجيل - بيروت.
- (٤٣) القاضي الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٦١ و ٤٢٤، ط. الأولى ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م، تحقيق: عبدالحسين دهيني، دار الهادي - بيروت.

- (٤٤) جماعة التقريب بين المذاهب، دعوة التقريب بين المذاهب: ٥٣، دار الجواد - بيروت.
- (٤٥) النووي، مصدر سابق: ٩٣.
- (٤٦) عبدالحسين شرف الدين، «حرمة المسلم» في دعوة التقريب بين المذاهب: ٥٩ - ٦٥.
- (٤٧) عبدالحسين شرف الدين، بغية الراغبين ٢: ٤٤٨.
- (٤٨) عبدالحسين شرف الدين، أجوبة مسائل موسى جار الله: ١٢٥، ط. الثالثة ١٣٦٨هـ / ١٩٦٦م، دار النعمان - العراق.
- (٤٩) المصدر السابق: ١٨.
- (٥٠) محمد جواد مغنّية، الشيعة والحاكمون: ٨٥ - ٨٦، ط. الرابعة، دار التعارف - بيروت.
- (٥١) راجع مجلة العرفان: ٣٩١، المجلد ٤٥.
- (٥٢) عبدالحسين شرف الدين، الفصول المهمة في تأليف الأمة: ٢١، ط. السابعة ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م، دار الزهراء - بيروت.
- (٥٣) راجع مجلة العرفان: ٦٠٨ - ٦١٠، المجلد ٤٦.
- (٥٤) راجع مجلة العرفان: ٦١٠، المجلد ٤٦.
- (٥٥) الأنبياء: ١٠٧.
- (٥٦) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد: ٤١ - ٦٤، مؤسسة ناصر الثقافية، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.
- (٥٧) رفاعة الطهطاوي، مناهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية: ٨٤ - ٩٣، ط. الثانية ١٣٣٢هـ / ١٩١٢م، مطبعة الرغائب - القاهرة.
- (٥٨) أحمد فارس الشدياق، الساق على الساق: ٥٩٢، مكتبة الحياة - بيروت ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م.
- (٥٩) قاسم أمين، تحرير المرأة: ١٤ و ٤٧ و ١٠٩، دار المعارف - القاهرة ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م.
- (٦٠) ابن خلدون، المقدمة ١: ٥٥٤، ط. الرابعة، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- (٦١) محمد مهدي شمس الدين، "البعد الفقهي في شخصية الإمام شرف الدين العلمية": ٥٩، في الكتاب الصادر عن المؤتمر المنعقد حول شرف الدين سنة ١٩٩٢م.
- (٦٢) موسى الصدر، الرجل.. الموقف.. القضية: ٢٧.
- (٦٣) حسين القوتلي، التوحيد منهج للإصلاح الإسلامي العربي عند عبدالحسين شرف الدين: ٩، في كتاب المؤتمر المنعقد في ١٩٩٢م.

- (٦٤) هادي فضل الله، مصدر سابق: ١٤٧.
- (٦٥) عبدالحسين شرف الدين، صفحات من حياتي، مجلة الألواح: ٥، العدد ١٤ لسنة ١٩٢٠م.
- (٦٦) عبدالحسين شرف الدين، النص والاجتهاد: ١٥.
- (٦٧) عبدالرؤوف فضل الله، "السيد عبدالحسين شرف الدين شخصية فذة": ٣٠٠، في كتاب المؤتمر المنعقد عام ١٩٩٢م.
- (٦٨) ابن الحلاج: اسمه جبران، من أهل صور، وقد فر بعد ذلك إلى إفريقيا، وتوفي سنة ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م.
- (٦٩) عبدالحسين شرف الدين، بغية الراغبين ٢: ١٤٩ - ١٥٠.
- (٧٠) جعفر شرف الدين، من دفتر الذكريات الجنوبية: ١٥.
- (٧١) عبدالرؤوف فضل الله، مصدر سابق: ٢٩٩.
- (٧٢) عبدالحسين شرف الدين، المسائل والرسائل، مخطوط.
- (٧٣) عبدالحسين شرف الدين، بغية الراغبين ٢: ٤٧٣.
- (٧٤) المصدر السابق ٢: ١٤٤، وانظر محمد شريعتي، "جوانب من سيرة الإمام المجاهد السيد عبدالحسين شرف الدين": ١٤ في الكتاب الصادر عن مؤتمر شرف الدين سنة ١٩٩٢م.
- (٧٥) بغية الراغبين ٢: ١٢٩ و ١٣٠.
- (٧٦) من دفتر الذكريات الجنوبية ٢: ٧١.
- (٧٧) بغية الراغبين ٢: ١٢٨ - ١٢٩.
- (٧٨) راجع مجلة العرفان: ٦٨٠ و ٧٧٧، المجلد ٤٥.
- (٧٩) المصدر السابق: ٦٨٠ - ٧٧٠.
- (٨٠) من دفتر الذكريات الجنوبية ٢: ٤٥.
- (٨١) النص والاجتهاد، مصدر سابق: ٢٧.
- (٨٢) المسائل والرسائل، مخطوط.
- (٨٣) عبدالحسين شرف الدين، الكلمة الغراء في تفضيل الزهراء: ٢٥١ - ٢٥٣، ط. الثالثة ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م، مطبعة النجف - النجف الأشرف.
- (٨٤) عبدالحسين شرف الدين، كلمة حول الرؤية وفلسفة الميثاق والولاية: ٨ - ٩، دار المحيط - العراق.
- (٨٥) الشهرستاني، موسوعة الملل والنحل: ٤٥، ط. الأولى ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، مؤسسة ناصر للثقافة - بيروت.

- (٨٦) كلمة حول الرؤية وفلسفة الميثاق والولاية، مصدر سابق: ٧ و ٦٠.
- (٨٧) عبدالحسين شرف الدين، أبو هريرة: ١٠، ط. الرابعة ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م، دار الزهراء - بيروت.
- (٨٨) من دفتر الذكريات الجنوبية ٢: ٩٤.
- (٨٩) هادي فضل الله، مصدر سابق: ١٣٧ - ١٣٨.
- (٩٠) من دفتر الذكريات الجنوبية ٢: ٥٢.
- (٩١) المصدر السابق: ٢٤ و ٤٠ - ٤١.
- (٩٢) محمد شريعتي، في الكتاب الصادر عن مؤتمر شرف الدين: ١٥.
- (٩٣) محمد علي الحوماني، مجلة العروبة، العدد ٢٠.
- (٩٤) النص والاجتهاد، مصدر سابق: ١٤.
- (٩٥) مجلة العرفان: ٨٤٨ - ٨٥١، المجلد ٣٧.
- (٩٦) محمد حسين فضل الله، مصدر سابق: ١٥٤.
- (٩٧) مصطفى الرافعي، "البعد الوحدوي للمجتهد الأكبر السيد عبدالحسين شرف الدين": ٢٨٣، في كتاب مؤتمر شرف الدين لسنة ١٩٩٢م.
- (٩٨) جعفر شرف الدين، من دفتر الذكريات الجنوبية: ١٢٤.
- (٩٩) بغية الراغبين، مصدر سابق ٢: ٢٥٨.
- (١٠٠) المصدر السابق: ٣٦٥.
- (١٠١) هادي فضل الله، مصدر سابق: ٥٢ - ٥٣.
- (١٠٢) المجادلة: ١١.

المنهج التأسيسي لعقلنة الحوار عند السيد عبدالحسين شرف الدين

السيد محمد علي الحلو (*)

مدخل

بين حنايا جبال عاملة، ينطلق صوتٌ رأى نوره الأول وهو يحدّق بتلك القبتين الكاظميتين اللتين كانتا تشيران إلى عالمٍ يشب على كل الحقائق والمثل والقيم؛ ولطالما ظل السيد عبدالحسين ابن السيد يوسف ابن السيد جواد شرف الدين يرنو على نشوته العلوية، التي تحمل معها أسرار الحقيقة، فيقف راجعاً إلى النجف؛ لينهل من نعيم الولاء، وعذوبة الحقيقة التي طالما تفتقت على ربي الوادي المقدس، وقد حمل الأسرار الإلهية بكل مكنوناتها المصونة في مطاوي الأسرار العلوية.

لم يكد السيد شرف الدين يبلغ العقد الثالث حتى امتلأت خزانة روحه بعلوم الشريعة المحمدية ومكنونات معارفها، خصوصاً ما فتحتة جولته العلمية هذه على معارف مقامات أئمة الهدى عليهم السلام؛ ليحمل ذلك العطاء إلى ذوي حامتِه وعصبة قرابته، وأهل عشيرته، وبني قومه العاملين، الذين طالما تطلّعوا إلى نجم نبوغه، وهو يبرز متوهجاً في سماء العلم والمعرفة.

ويحطّ رحاله العلامة شرف الدين بعد جولة العلم في ربوع الغري الحافل بالبركات القدسية العلوية؛ ليُسقي قومه من منهل العذب بعد أن ظمّوا من تلك المعارف وقتذاك.

لم يشأ شرف الدين أن يرضَ من نفسه عالماً يحمل قومه على المحجة

(*) باحث وكاتب في الحوزة العلمية، من العراق.

السابقة فحسب، ما لم يكن مجدداً، قد أخذ بزمام الإصلاح، طامحاً أن يقدم مذهب أهل البيت عليهم السلام، بأنه المنهج الواضح، والطريق اللاحب الذي لا مفرّ لأي إنسان من انتهاجه.

ولعله استشعر بضرورة عقلنة الحوار الذي يعين على أدلجة الحقيقة، دون أن يتهاوى بين رقّ العاطفة وأسر الشعور الذي يلتهمه التهاماً؛ ليُبْعِدَه إلى أقاصي المجهول دون أن يرسو على الحقيقة التي يبحث من أجلها.

ولعل السيد شرف الدين كان يكابد من مرارة الالتفاف على الحقيقة التي ينتهجها البعض، حتى دفعه حرصه إلى بيان خطأ ما يرتكبه أولئك الذين تصدوا لإغواء الآخرين بحجة البحث والتتقيب.

كان السيد شرف الدين يتلمّس مواضع الحاجة لرفد العقلية الإسلامية بالحقائق؛ لترميمها بعد الصدمات التي تعرضت إليها، جرّاء الغسيل الذي تعمدته خطط النظام السياسي في حرف مسيرة المعرفة، مما دعى السيد أن ينتهج منهج الحوار، وأن يصبّ اهتماماته على عقلنته، والذي سينقذ الكثير من الحقائق بعد ضياعها في مجاهيل التزوير، ما سينقذ الكثير من الناس بعد شتاتهم في مهاوي التفرير والجهل والتعمية والتمويه.

يُعدُّ منهج الحوار لدى السيد شرف الدين عليه السلام فتحاً، على المستوى العلمي، إذ استطاع بحواراته أن يفتح النوافذ على المذهب الجعفري، وأن يعرفه بتعريف لم يخفّ على البصير، فهو بحواراته هذه يُعدُّ صاحب المنهج التأسيسي الذي لم يتبنّاه بهذه الهيئة أحدٌ قبله من علماء الطائفة، فهم - رضوان الله عليهم - حاولوا انتهاج الحوار إلا أنهم كثيراً ما اعتمدوا على تقليدية الأداة والآلية في استخدامها للحوار، في حين تميز منهج السيد بالتجديد عبر السبل التالية:

١ - لم يعتمد السيد عليه السلام على مصادر الطائفة في حواراته، بل كان

يستشهد بمصادر العامة، ويفاجئهم بالاحتجاج عليهم بما يعدونه ثقة مسلم الصحة لا نقاش فيه، كاعتماده على الصحاح الستة، وتركيزه على صحيح البخاري ومسلم، إذ هما مدار بحثه ومخاضته.

٢ - يحاول السيد رحمته الله الاعتماد على حجج الخصم ويقدمها في حواراته ليستفيد منها حججاً تدعم مبادئه وعقائده.

٣ - اعتمد السيد رحمته الله على التاريخ المقارن، أي التاريخ الذي يقرأ به الخصم، والاستفادة من الوقائع التاريخية الموجودة لديه ليقيم بها حجته.

٤ - سعى رحمته الله إلى منهجية التقريب في حواراته، وفلسفة التقريب تعني عنده السعي لبيان المذهب الحق، وتوضيح ما خفي، وما أشكل على الكثير مما دعى كل من تمعن في حواراته ضمن تأليفاته أن يتبصر الحق ويعتق مذهب أهل البيت عليهم السلام، فكان - بحق - منهجه التقريبي منهجاً لا يمكن تجاوزه أو البحث عن بدائله، وسوى ذلك يُعدّ تفريطاً بالحق وتضييعاً للوقائع.

٥ - يُعدّ جهده في البحث والتحقيق جهداً جماعياً مشتركاً، في حين تولى السيد بجهد الفردي وامكانياته التي يقوم بها جماعة عمل مشتركة، كما نجده في متابعاته الأحاديث الموجودة لدى أهل السنة، فضلاً عن إحصائه لرجالهم ومعرفة روايتهم، بشكل لا يوفره إلا جهد مؤسسات تحقيقية، تستعين بالأجهزة الحديثة كالكومبيوتر، فضلاً عن النقص في المصادر المطبوعة وقتذاك.

ولم يكن السيد رحمته الله قد ألقى الأمر هكذا على عواهنه، ما لم تكن هناك مناهج اختطها لنفسه في الحوار التأسيسي الذي أكده في بحوثه، ولعلنا نستقي بعض تلك المناهج التي اتكأ عليها؛ لنعرف مدى جدية منهجة حواراته، ومشروعه التجديدي كذلك.

أولاً: المنهج التفسيري

لم يعتمد السيد ﷺ أسلوب المنهج الواحد في التفسير، حتى اعتمد أسلوب التفسير المقارن الذي يستقصي من خلاله رأي الآخر في التفسير، فيستخدم فكرة الخصم ورأيه في تفسير الآية ويوجهه نحوه مستفيداً من إقراراته.

فمثلاً، في تفسير آية الولاية التي اعتمدها في حوارياته المراجعاتية، ركز على تفسير الصحاح الذي أثبت من خلالها أن الآية نزلت في علي عليه السلام حين ركوعه ومتصدقاً بخاتمه، فقال في سؤال الشيخ سليم البشري عن آية الولاية، ما هي؟ وفيمن نزلها؟ كما ورد في المراجعة التاسعة والثلاثين فقال: نعم، أتلوها عليك آية محكمة من آيات الله عز وجل في فرقانه العظيم، ألا وهي قوله تعالى في سورة المائدة ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾^(١)، حيث لا ريب في نزولها في علي حين تصدق راکعاً في الصلاة بخاتمه.

قال: والصحاح - في نزولها بعليّ إذ تصدق بخاتمه وهو راکع في الصلاة - متواترة عن أئمة العترة الطاهرة، وحسبك مما جاء نصاً في هذا من طريق غيرهم حديث ابن سلام مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ فراجعته في صحيح النسائي، وفي تفسير سورة المائدة من كتاب الجمع بين الصحاح الستة، ومثله حديث ابن عباس، وحديث عليّ مرفوعين أيضاً. فراجع حديث ابن عباس في تفسيره هذه الآية من كتاب أسباب النزول للإمام الواحدي. وقد أخرج الخطيب في المتفق.

وراجع حديث عليّ في مسندي ابن مردويه وأبي الشيخ، وإن شئت فراجعته في كنز العمال، على أن نزولها في عليّ أجمع المفسرون عليه، وقد

نقل إجماعهم هذا غير واحد من أعلام أهل السنة ، كالإمام القوشجي في مبحث الإمامة من شرح التجريد ، وفي الباب ١٨ من غاية المرام ٢٤ حديثاً من طريق الجمهور.. إلى آخر كلامه رحمته.

هذه الطريقة التي اعتمدها السيد رحمته في تفسير مطالبه القرآنية ، حيث أثبت في منهجه التفسيري الحجة له على خصمه ، دون أن يستطيع محاوره أن يتخلص من قبضته عند المحاجة ، فقد استطاع رحمته أن يتماشى مع خصمه فيما أقره من توثيقه للمصادر التي اعتمدها دون اللجوء إلى مصادر الطائفة أو الاستشهاد بأقوال علمائهم أو طرح رأي مفسريهم ، بل انتزع حجته من نفس الخصم وألقاها له ، دون أن يعترض الخصم أو يتكأ عن التسليم والقبول بما ألقاه السيد رحمته.

ثانياً، المنهج الحديثي

كان لتضلع السيد شرف الدين في الحديث أثره على عقلته حواراته ، فقد أرسى منهجه بناءً على ما يمتلكه الآخر من موروث حديثي حاول توجيهه وترشيده من أجل مبانيه العقائدية فضلاً عن الفقهية.

ففي مراجعاته رحمته بعارضته الحديثية وحسن استخدامه للحديث من أجل عقيدته التي آمن بها ، والفكرة التي حاول إثباتها. وبالفعل فقد كان يأخذ خصمه بذلك عاجلاً أو آجلاً ، حتى يستسلم بعد ذلك بخوعاً لما أورده السيد في حواراته.

فعند ذكر السيد حديثي السفينة وباب حطة ، واعتماده على مصادر أهل السنة في ذلك ، وإثباته وجوب اتباع أهل البيت عليهم السلام استناداً إلى هذين الحديثين ، فأردف محاوره - البشري - بقوله:

أطلق عنان القلم، ولا تخف من سأم، فإن أذني لك صاغية، وصدري

رحب.. إلى آخر مراجعته. بعد ذلك أعطف السيد ﷺ على ما أسلفه من أحاديث مناقشاً دلالاتها، عارفاً بعامها وخاصها، مطلقها ومقيدها، كل ذلك من المصادر التي يعتمد عليها محاوره، دون أن يلجأ إلى مصادر أخرى يكون فيها سبب النزاع وعدم التسليم.

كان ﷺ قد ابدع في إثبات حديث الغدير من حيث تواتره، ذاكراً طريقه العدة التي نافت على أكثر من مئة طريق، إلا أنه ﷺ يرجع تواتره - فضلاً عن تصحيحات علماء السنة - إلى السنن الطبيعية في التاريخ، حيث يوعز إلى أن السنن الطبيعية تتعهد بتواتره إذ أن الجمع الحاشد الذي كان مؤلفاً من آلاف الحاضرين، وهم يستمعون إلى خطبة النبي ﷺ في يوم الغدير لا يمكن أن تصده مهاترات السياسة المفضوحة أو تقولات المتخربين ما لم يكن هذا الحديث قد فرض نفسه متواتراً دون أن يشكك أحد بذلك طرفة عين، وقد أوعز تواتره إلى الفطرة الطبيعية الإنسانية التي لا يمكنها تجاهل التواتر أو الغض عنه، فقال: على أن تواتر حديث الغدير مما تقضي به النواميس التي فطر الله الطبيعة عليها، شأن كل واقعة تاريخية عظيمة يقوم بها عظيم الأمة، فيوقعها بمنظر وبمسمع من الألواف المجتمعة من أمته من أماكن شتى؛ ليحملوا نبأها عنه إلى من ورائهم من الناس، ولا سيما إذا كانت من بعده محلّ العناية من أسرته وأوليائهم في كل خلف، حتى بلغوا بنشرها وإذاعتها كل مبلغ، فهل يمكن أن يكون نبؤها - والحال هذه - من أخبار الآحاد؟ كلا، بل لا بد أن ينتشر انتشار الصباح، فينظم حاشيتي البر والبحر، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَخْوِيلًا﴾ (٢).

ثم يردف بعد ذكره لثلاثين صحابياً روى الحديث بقوله: وأنت تعلم أن تواطؤ الثلاثين صحابياً على الكذب مما يمنعه العقل، فحصول التواتر

بمجرد شهادتهم إذن، قطعي لا ريب فيه.. (٣)

وبهذا أثبت السيد ﷺ تواتر الحديث من حيث السند والدلالة والعقل، فضلاً عن إضافته للسنن التاريخية، والطبيعية معاضداً للتواتر، ولعله أول من أبدع في الإشارة إلى هذا المعنى.

إذن، لم يكن المنهج الحديثي لدى السيد ﷺ منهجاً سردياً، وإنما كان منهجاً تحليلياً علمياً محضاً، لا تشوبه الشكوك والشبهات.

ثالثاً، المنهج الرجالي

كان للمنهج الرجالي الذي استخدمه السيد شرف الدين في محاوراته أثر كبير في عقلنة هذا المنهج، فهو مُطالبٌ من الخصم أن يثبت صحة مسانيد ما يحتج به، فكان بارعاً في توثيق أو تصنيف الرواة على حسب مباني الخصم، وكان في نهاية جولة التفحص والاستقصاء عن المجروحين والضعفاء مفلحاً في مخاصمته، لذا فلا بد للخصم أن يدعن له، ويعترف بصحة دعواه.

ولعل أروع ما قدمه السيد في منهجه هذا هو استقصاؤه لرواة شيعة دخلوا في مسانيد السنة واحتجوا بهم، وكانوا على مبانيهم ثقة لا يروون إلا الصحيح، وهو جهد يعجز عنه الكثيرون وقتذاك، أما اليوم فمع توفر أجهزة البحث كالكمبيوتر، أصبح هذا المنهج متعارفاً لدى الأوساط العلمية والتحقيقية، في حين تُعدّ جهوده باكورة الأعمال الإحصائية والاستقصائية، وهذه الطريقة هي إحدى إبداعات السيد ﷺ.

رابعاً، المنهج الفقهي

كان للفقه المقارن الذي اعتمده السيد في حواراته أثر في تمتين

منهجه الحوارية هذا، فقد كان ﷺ ملماً بفقهاء المذاهب الإسلامية، بارعاً في معرفة جزئياته، مستمكناً من المحاجة في أصول الخلاف، موفقاً في إظهار هذا الخلاف واستخدامه في تمتين الحجة ضد خصمه، ملزماً له بما ألزم نفسه.

ففي مسأله الفقهية احتج السيد ﷺ بالمسائل الخلافية التي بيننا وبين المذاهب الأخرى، وناقش ما أورده عليهم في مخالفتهم الكتاب والسنة والشريعة، معتمداً في ذلك على ما ورد في الصحاح الستة، وثبت بطلان ما التزموه من مبانٍ فقهية مفنناً إياها بالأدلة المعتمدة لديهم.

فمثلاً في مناقشته لمسألة المسح على الأرجل، استعرض آراء المذاهب الأربعة في وجوب غسل الأرجل، وأشار إلى من قال بوجوب الجمع بين الغسل والمسح، ومن قال بالتخير، ثم استعرض حجة الإمامية في وجوب المسح مستنداً إلى قوله تعالى: ﴿امْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾، ولم يقدم تفسيره حتى استعان بقول الرازي في الاحتجاج بهذه الآية، بقوله: «وقد كفانا الإمام الرازي بيان الوجه في الاحتجاج بهذه الآية بما صدع به مفصلاً»، ثم استعرض ما أوعزه الرازي من الاختلاف إلى القراءات المتعددة، وفي نهاية كلام الرازي خلاص إلى القول: «فصار ظاهر القرآن هو المسح»^(٤). ولم يعلق السيد على ذلك إلا ما استخلصه من القول: «أما مع كونه - أي المسح أو الغسل - محل النزاع فلا يؤبه به، ولا سيما مع اعترافهم بظهور الكتاب في وجوب المسح، وحسبنا في ذلك ما توجهه القواعد العربية من عطف الأرجل على الرؤوس الممسوحة بالإجماع نصاً وفتوى»^(٥).

ثم أورد على القائلين بالغسل بحجة عبدالله بن عباس التي توجب المسح، فقال: وحسبك في إنكار الغسل ووهن أخباره ما كان من حبر الأمة وعيبة الكتاب والسنة عبدالله بن عباس، إذ كان يحتج للمسح فيقول:

افترض الله غسلتين ومسحتين ألا ترى أنه ذكر التيمم فجعل مكان الغسلتين مسحتين وترك المسحتين، إلى غير ذلك من حججه القويمة المستقاة من مصادر القوم، حتى لم يترك لأحد مقالاً إلا أن يخضع للحق ويدعن للرهان.

وفي نكاح المتعة حاجج القوم بما لم يبق للحصيف إلا التسليم للحق، فاحتج بالكتاب والسنة والإجماع، إلى غير ذلك من الأدلة التي تلزم الخصم لولا الإصرار على المخالفة والعناد للحق.

إذن، فقد استمكن السيد عليه السلام من الخصم، بحجج لا يمكن إنكارها، واعتمد الاختصار وعدم الإطناب؛ لئلا تضع الحجة وليتمكن الفقيه وغيره من قبول استدلاله، واستيعاب مبانيه، حتى إنه لا يترك للآخرين مندوحة المخالفة أو النقاش ما لم يستمكن من كل ما يمكن لهم إيراده، فيدفع دخل الشبهة، ويدحر إمكانية الالتفاف على الدليل.

وهذا لعمري من أهم الخطوات التأسيسية لعقلنة حواراته والاستفادة منها في تشكيل العقلية الإسلامية وترميمها من التصدع الذي أحدثته خلافات السياسة والمصالح.

خامساً: المنهج الأصولي

يُعد المنهج الأصولي الذي اعتمده السيد عليه السلام من أهم المناهج في حركته التأسيسية، فالأصول التي ناقشها مع الآخرين في حواراته - وإن كانت مقتضبة تبعاً للمباني الأصولية المختصرة لديهم - إلا أنها كانت نقلة نوعية في مجال الحوار.

ففي مناقشاته للاستحسان أبطل شبهة أن المصالح المعقولة لا يتمتع أن تكون أسباباً للعبادات المفروضة، فقال عليه السلام رداً على ذلك:

نحن نؤمن بأن الشارع المقدس لاحظ عباده في كل ما كلفهم به من أحكامه الشرعية، فلم يأمرهم إلا بما فيه مصلحتهم، ولم ينههم إلا عما فيه مفسدة لهم، لكنه مع ذلك لم يجعل شيئاً من مدارك تعبدتهم بأدلة قوية عينها لهم، فلم يجعل لهم مندوحة عنها إلى ما سواها.

وفي إثبات الحسن والقبح العقليين أنكر محاوره - الشيخ البشري في مراجعاته - نفيه لقول أهل السنة بالحسن والقبح العقليين، وأرجع القول بالحسن والقبح العقليين الذي تقوله الشيعة إلى مقتضى العقل الذي لا يأبى ما ذهب إليه الشيعة من مذهبهم هذا وأنها ضرورة عقلية، وأوعز الإنكار إلى المعاندة، والتسليم له من ضرورات الفطرة الإنسانية، فقال في الرد عليه: وقلتم في الجواب عن الأمر الثاني أن أهل السنة لا يقولون بالحسن والقبح العقليين إلى آخر كلامكم في هذا الموضوع، وأنا أرى بكم عن هذا القول، فإنه شبيه بقول السوفسطائية، الذين ينكرون الحقائق المحسوسة؛ لأن من الأفعال ما نعلم بحسنه، وترتب الثناء والثواب على فعله لصفة ذاتية له قائمة به، كالإحسان والعدل من حيث هما إحسان وعدل، ومنها ما نعلم بقبحه وترتب الذم والعقاب على فعله؛ لصفته الذاتية القائمة به، كالإساءة والجور من حيث هما إساءة وجور. والعقل يعلم أن الضرورة قاضية بذلك، وليس جزم العقلاء بهذا أقل من جزمهم بكون الواحد نصف الاثنين، والبداهة الأولية قاضية بالفرق بين من أحسن إليك دائماً، وبين من أساء إليك دائماً، إذ يستقل العقل بحسن فعل الأول معك واستحقاقه للثناء والثواب منك، وقبح فعل الثاني واستحقاقه للذم والقصاص، والمشكك في ذلك مكابر لعقله.. إلى أن قال:

وقد أراد الأشاعرة أن يبالغوا في الإيمان بالشرع والاستسلام لحكمه، فأنكروا حكم العقل، وقالوا: لا حكم إلا للشرع، ذهبوا منهم

عن القاعدة العقلية المطردة - كل ما حكم به العقل حكم به الشرع - ولم يلتفتوا إلى أنهم قطعوا خط الرجعة بهذا الرأي على أنفسهم، فلا يقوم لهم بعده على ثبوت الشرع دليل؛ لأن الاستدلال على ذلك بالأدلة الشرعية دوري لا تتم به حجة، ولولا سلطان العقل لكان الاحتجاج بالنقل مصادرة، بل لولا العقل ما عبد الله عابد، ولا عرفه من خلقه كلهم واحد^(٦).

وبهذا فقد أبطل شبهة الخصم في مخالفته لقاعدة ما حكم به العقل حكم به الشرع، وأوعز ذلك إلى العقل والفطرة اللتان تحكمان بضرورة ذلك.

هذه إحدى نماذج منهجه الأصولي في الاستدلال على دعواه، وهي مناقشات لا تخفى فيها الدقة والإبداع.

سادساً، المنهج التاريخي المقارن

التاريخ المقارن من أهم سمات المنهج التأسيسي الذي انتهجه السيد عليه السلام في حواراته، فهو يعتمد على رصيد تاريخي في المصادر المعتمدة لدى الآخر، ولعلنا لا نجاء في الحقيقة إذا قلنا أن ركيزة الحوار على الجانب التاريخي يعطي زخماً مهماً في تدعيم الفكرة والأطروحة التي يعتمدها المحاور.

فالبحث القرآني بالرغم من قطعيته إلا أن الخصم يستطيع بعناده أن يعوم فكرة الحوار مستنداً إلى دعاوى النسخ أو يحاول التشويش على مجريات البحث قاصداً تلكؤ الباحث والتضبيب على رؤيته مستفيداً من دعاوى النسخ وادعاءات التخصيص أو التقييد في غير محلها مستخدماً إيّاها لاحتواء الفكرة وإفشالها.

وكذا الحال في البحث الروائي فإنه يقصد إلى تضعيف الأحاديث

الواردة، والتشكيك في دلالتها إن سلمت مسانيداً من التضعيف، ومثله البحث الفقهي أو الأصولي الذي بإمكان المقابل التهرب بطريقة مجحفة منافية للحقائق، في حين لا يمكن للمقابل أن يتهرب من الواقعة التاريخية التي توثقها مصادره المعتمدة.

لقد رأى السيد عليه السلام ضرورة المنهج التاريخي المقارن؛ وذلك لأن ضعف المقابل يكمن في الثغرات التاريخية التي لا يمكن للخصم الإجابة عنها، فيكون مدعياً بما ألقاه محاوره مشيداً على هذه المباني التاريخية أكثر أطروحته.

ففي محاوراته استفاد السيد من المادة التاريخية، واستخدمها كوثيقة مهمة في محاججاته، وبذلك فإنك تجده في كتبه كالمراجعات، والنص والاجتهاد، وأجوبة مسائل جار الله، وغيرها، قد اعتمد فيها على المادة التاريخية أساساً في حواراته، مما أعطى للسيد زخماً قوياً في دفع محاوراته بنجاح باهر.

فمعالجته للحادثة التاريخية يستخدمها في إثبات الخلافة وأحقيتها للإمام أمير المؤمنين عليه السلام في خضم الهياج الذي انتاب المؤسسة السياسية إبان رحيل النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان حكيماً، واحتججه بأعمال الشغب التي أحالها معاوية إلى معركة صفين، أو التمردات السياسية الصاخبة التي أحدثها الثالوث الساسي المرتجل: عائشة، الزبير، طلحة، فضلاً عن أعمال العنف للجماعات الإرهابية التي قادتها فلول الخوارج في معركة النهروان، فقد حاول السيد عليه السلام توظيف الحقيقة التاريخية لصالح قضية إثبات خلافة أمير المؤمنين عليه السلام، ومن غير الممكن أن يتغاضى عنها الخصم؛ لأنها وقائع تاريخية حدثت في زمانٍ ولها دلالاتها، وبذلك استطاع السيد شرف الدين عليه السلام في منهجه التاريخي أن يساير الواقع بمسايرته للحادثة التاريخية الواردة

والمسلّمة.

ولا أدل في ذلك بما استفاده السيد عليه السلام في منهجه التاريخي من كتابه القيم (النص والاجتهاد)، فقد زأوج بين الواقعة التاريخية وبين ملازماتها الفقهية، ودلائلها الأصولية والمنطقية، التي أثبت من خلالها حق أهل البيت عليهم السلام وأحقية مذهبهم.

فتأولات أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم، وظفها لصالح قضيته مستفيداً من الوقائع التاريخية بما يمكنه مقارعة الخصم بالحجة الواضحة والبرهان الساطع.

سابعاً: المنهج الأخلاقي

ونقصد به السير السلوكي والأخلاقي الذي تعاطى به السيد مع خصومه في حواراته. فكان في خلقه يهيمن على الخصم، ويحتوي غضب المحاور وهياجه عند مواجهته بالحجة والبرهان، فإذا امتصّ نغمته بممارسته الأخلاقية الرفيعة، سكن المقابل وتراجع عن مهاجمة محاوره.

ويمكن التنويه إلى حقيقة أن المقابل في حواراتنا هذا اليوم لا يمتلك الحجة الواضحة، وتراه حين يُحصر في زاوية من النقاش يتشبث بالشتم والسباب، وهذا لعمرى آفة الحوار ومشكلته، وهو ما نراه اليوم على صفحات (الإنترنت)، حيث سوء الخلق والنفرة والإثارة تسيطر على الحوار، مما يفقد الحق موقفه من الحوار، ويوهن المحاور في الوقت نفسه، ويفسح المجال لتمويه الحقائق أن تأخذ موقعها فتمسخ الحقيقة حينئذٍ.

كان السيد عليه السلام يقتضي خلق أسلافه من العلماء رضوان الله عليهم، وزاد في التأكيد على منهجه الأخلاقي إبان محاوراته أساليب أخرى، وهو ما تجده واضحاً في كتاب المراجعات، وفي كتابه مسائل فقهية، والرد على

جار الله وفي غيرها.

ففي حوارات المراجعات كان السيد قد هيمن على خصمه بخلقه الكريم، والتعاطي مع محاوره بكل لباقة وأدب، فقد ردّ على كتاب الشيخ البشري الذي يطلب فيه الاستئذان بالحوار، فرد عليه السيد بقوله: استأذنت في الكلام - ولك الأمر والنهي - فسل عما أردت، وقل ما شئت، ولك الفصل وحكمك العدل وعليك السلام^(٧).

وفي مسائل فقهية كان رائعاً في رده، فقد قدّم الدعاء للمحاور، ثم أورد حجته، فقال ردّاً على السندي حينما قال تعليقاً على حديث أبي حية قال: أردت أن أريكم طهور نبيكم ﷺ، وذلك فيما جاء في غسل القدمين، فعلق السندي على هذا الحديث: هذا ردّ بليغ على الشيعة القائلين بالمسح على الرجلين، حيث الغسل من رواية عليّ، قال: ولذلك ذكره المصنف، وأجاد في تخريج حديث عليّ في هذا الباب جزاء الله خيراً، قال: وظاهر القرآن يقتضي المسح كما جاء عن ابن عباس، فيجب حمله على الغسل. فردّ السيد شرف الدين على ذلك بقوله:

هذا كلامه بلفظه عفا الله عنه وعن الإمام ابن ماجه وسائر علماء الجمهور، فإنهم يعلمون سقوط هذا الحديث بسقوط سنده من عدة جهات^(٨).

وفي رده على مفتريات جار الله، لم يتجاوز الحجة والبرهان معرضاً عن شتائم جار الله وكذبه وسفاسفه بالدليل، ومقارنته بالحجة البالغة والخلق الرفيع.

شرف الدين وأثر عقلنة الحوار على مسيرة البحث في عالمنا المعاصر

لا يمكن لنا أن نستعرض منهج العلامة شرف في عقلنة الحوار ما لم

نستفد منه كتأسيساتٍ في مسيرتنا التحقيقية والحوارية.

فقد أضاف ﷺ معلماً آخر من معالم الحوار المتبادل بين الفريقين، وهو عقلنته وتهذيبه، بل منهجته نحو الأرقى والأكمل، فكيف لنا الاستفادة من هذه المنهجية وتسخيرها كآلية مهمة في عقلنة حواراتنا؟

إننا ولله الحمد أتباع مذهب له دلائله القاطعة وحججه البالغة، وبراهينه الواضحة، دون أن نحتاج إلى أساليب الالتفاف والتزوير أو أخلاقيات الشتم والسباب، فإن ذلك شأن غيرنا، وطريقة خصومنا، بل هو دأب الضعيف الذي تنقصه الحجة والدليل، ونحن لا تعوزنا الحجة فإنها حجج كتاب ربنا وبراهين نبينا وأهل بيته ﷺ، ودلائل العقل والقطرة والوجدان.

إذن، ما الذي يعوزنا؟

إن ما نحتاجه اليوم هو إحكام الأسلوب وسبك الأطروحة التي يقدمها محققونا زاد الله في برهانهم وسطوع حجتهم، فإننا نعيش اليوم في عصر فن الحوار، وجمالية الأسلوب، والإبداع في الطرح، إذ لا تكفي بعد ذلك فرض الفكرة على الخصم، دون الحاجة إلى مقومات عقلنة الحوار، في عالم يعيش اليوم طروحات فكرية مترامية المقاصد، متعددة الدواعي، يعتمد المتصدون لهذه الطروحات إلى ابتكار الأسلوب الإبداعي، واستقطاب القارئ، وخضوع المحاور، ولا يكفي الانكفاء على أساليب الحوار التقليدي، دون النزوع إلى الأسلوب الرائج والابتكار المبدع.

إن حالات الخطاب الإسلامي تتعدد اليوم بين القوة التي تستخدمها بعض الأطراف؛ لإكراه الآخر على قبول الفكرة والتسليم لها بالتسلط والعنف، وبين محاولات التموه التي يتبعها الآخرون، وبين محاولات صرف العقلية الإسلامية عن واقعها المعاش، وذلك بصرفها عن واقعها التاريخي،

أي قطفها عن ماضيها واستئصال حاضرها؛ لترك الأمة هكذا هائمة لا تعي ما جرى تاريخياً وما يجري اليوم كتبعاتٍ للماضي.

إن خطابنا تبعاً لأئمتنا الهداة عليهم السلام يبتني على ركائزه العقلانية ومبانية الخيرة التي تأخذ بالاعتبار إنسانية الإنسان، واحترام فطرته، ومراعاة وجدانه، وذلك بتقديم الواقع بأساليب الإقناع التي يعترفُ بها العقل وتقبلها الضرورة.

إن ما نستفيد من منهجية السيد شرف الدين في عقلنة حواراته ركائز حوارية مهمة، منها:

أولاً: التأكيد على الأسلوب الإبداعي، وابتكار الطريقة التي توافق الحاضر المعاش.

ثانياً: الاهتمام بالقضية التاريخية وكونها آلية ناجحة في إثبات الحقائق وإفحام الخصوم.

ثالثاً: التأكيد على الفقه المقارن الذي بإمكانه أن يعبد الطريق للولوج إلى حلبة الحوار، والتمهيد لإيضاح ما ارتكب من مخالفات للكتاب والسنة والعقل حسب المنظور الفقهي، وإذا كان الأمر كذلك فعلى المستوى العقائدي من باب أولى فضلاً عن كون ترك سنة النبي صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام تحدد بالآخر من ارتكاب مخالفات الشريعة المقدسة.

رابعاً: الحفاظ على السير الأخلاقي الرشيد الذي كان أئمتنا عليهم السلام يسلكونه مع خصومهم، فكلما حاول الخصم إثارتهم عليهم السلام كلما غمروه بعطفهم، حتى هيمنوا على القلوب وقادوا النفوس إلى حيث الحق.

خامساً: التشدد على اتباع منهجٍ عقلانيةٍ في الحوارات التي تُقام على شبكات (الإنترنت)، وترشيد الشباب، وتوضيغهم بما يكفل الوصول إلى الحق وإثباته.

سادساً: التأكيد على إقامة دوراتٍ لتدريب الناشئة والشباب على فن الحوار، فإن لفن الحوار أسسه، بل ممارساته وتعاطيه مع الواقع، وبذلك سوف نضمن جيل حوارٍ متعقل يفرض الحق ويهدي إلى سبيل الرشاد. ونود التنويه إلى التجربة التي أُقيمت في مركز البحوث العقائدية التابع لآية الله الشيخ جواد التبريزي، فكانت تجربة رائدة ناجحة، حصلت على نتائجها المثمرة، حيث اجتمع العديد من طلبة العلوم الدينية وقاموا بممارسات تدريبية وضمن برامج حوارية نموذجية، راجين أن تعاد مثل هذه التجارب، وأن يكون لها حضورها العلمي في المنتديات العلمية كافة.

السيد شرف الدين ومنهجية التقريب بين المذاهب

لم يكن التقريب بين المذاهب الإسلامية عند السيد شرف الدين رحمته الله غاية، يقدر ما هو وسيلة مهمة لإثبات الحق وبيان مبادئه. كان السيد شرف الدين يعيش ضمن مجتمعٍ متعدد الرؤى والاتجاهات، وكانت ممارسات التضبيب حول الرؤية الواقعية لمذهب أهل البيت عليهم السلام تأخذ محلها من لدن هؤلاء، وللسيد شرف الدين رسالته في تبليغ الحق، ورفع حجب الزيف والتمويه عن الأمة المبتلاة بالتوجهات السياسية والمصالح الأخرى، فضلاً عن هجمةٍ حقيقية يقصدها النفعيون وذوي المآرب ضد مذهب أهل البيت عليهم السلام، لذا كان على السيد رحمته الله أن يجاهد من أجل إثبات أحقية مذهب أهل البيت عليهم السلام، ورفع حجب التشويه المفتعلة. إذن، كانت دعوى السيد شرف الدين رحمته الله في مسألة التقريب لا تعدو عن بيان الحقائق، ورفع الشبهات التي أثارها البعض ضد مذهب الحق، وبالفعل فقد حقق السيد هدفه السامي، وهو بيان مذهب أهل البيت عليهم السلام، مما دعى الكثير ممن انطلت عليهم الشبهات أن يتفهموا المذهب الحق، وأن

يستبصروا للهدى، بل صار بعضهم مدافعاً عن المذهب ومناصرراً له. هذه هي غاية السيد في التقريب، وهي غاية خالدة تتسامى بمرور الوقت، كلما رفع الباطل عقيرته ودعى إلى التكالب ضد الحق وأتباعه، لذا فمن المهم جداً أن نقضي أثر السيد في ممارساته التقريبية، وأن لا نتجاوز الخطوط الحمراء التي شخّصها لنا أئمة أهل البيت عليهم السلام في ممارساتنا التقريبية، كالتنازل عن الأسس والمبادئ والمسلمات وضرورات المذهب، التي لا يمكن المساومة عليها بأي حالٍ ولأي عذرٍ كان. إذن، علينا أن نوحّد بين الأمة الإسلامية ببيان مذهب الحق، فإن الأمة متى ما عرفت مذهب الحق، توحدت على أتباعه، ودخل الجميع في رؤية واحدة موحدة، وبذلك تضيق شقة الخلاف بين الأمة، بل تنعدم؛ لأن النزاعات التي حدثت وسوف تحدث، منشؤها الخلاف في الرؤية، وسبب في الانشقاق والنزاع، حتى قيل: «ما سلّ سيف على قاعدة دينية كما سلّ على الإمامة».

فإذا اتفقت الأمة على رؤية واحدة، ومشرب واحد، اتفقت كلمتها واتسق أمرها، وهذا مصداق «بهم تأتلف الأمة وتجتمع الكلمة، وبموالاتهم تقبل الطاعة المفترضة».

سائلين المولى تعالى أن يجمعنا على هدى أئمتنا عليهم السلام، واقتفاء أثر علمائنا الأعلام، والاهتداء بمنهج السيد شرف الدين لمعرفة الحق وأهله.

* * *

الهوامش:

- (١) سورة المائدة: ٥٥ - ٥٦.
- (٢) المراجعات: المراجعة ٥٦.
- (٣) المصدر السابق نفسه.
- (٤) مسائل فقهية: ١٠٣ في مبحث المسح والغسل للأرجل.
- (٥) المصدر السابق نفسه.
- (٦) المراجعات: المراجعة ٧٦.
- (٧) المصدر السابق: المراجعة ٢.
- (٨) مسائل فقهية: ١١١، دار الأندلس - بيروت.

الإمام شرف الدين ودوره السياسي والاجتماعي في لبنان والشرق الأوسط

د. أحمد جعفر (*)

مدخل

دخلت الدولة العثمانية في طور الاحتضار، بعدما سادتها الفوضى على المستوى السياسي والإداري بوجه خاص. وأصبحت في مهب ريح الأعيب السياسية الأوروبية^(١).

ودخل جبل عامل مع المنطقة العربية في هذه الفوضى^(٢)، وقد استشعر قادة عامليون (زعماء وعلماء) مخاطر الأزمة، ومرحلة التغيير المتسارعة إثر الحرب الكونية الأولى وما قبلها وما تبعها^(٣).. وما تكشف من مؤامرات حيكت للاستيلاء على المنطقة العربية والإسلامية^(٤)، فكانت محاولات استيعاب ما يحصل بالتداعي إلى الوحدة ورص الصفوف ومقاومة هذا التغيير، باتجاه ما يراه العامليون الأفضل والصحيح^(٥)... فانسجموا مع طروحات العروبة آنذاك، ربما انسجاماً مع طروحات الشريف حسين من جهة... وعلماء النجف من جهة ثانية^(٦)، وربما الاثنين معاً، حيث إن ثورة الشريف حسين لم يكن يراد منها الخروج عن حظيرة الدولة العثمانية أو جامعتي الخلافة والإسلام^(٧). وكذلك علماء النجف، لكن مغالاة الاتحاديين - جمعية الاتحاد والترقي (تركيا الفتاة) - وغرقهم في الفوضى، هي التي أدت إلى تغيير المواقف نحو العروبة^(٨)... مع خيبة أمل، حيث إن المُرْكَب (في الدولة العثمانية) كانت تتلاطمه الأمواج من كل صوب.

(*) كاتب من لبنان.

يتضح مما تقدم أن العاملين كانت غايتهم، وانسجاماً مع المواقف التاريخية لهذا الجبل، هي الوحدة الإسلامية، انطلاقاً من الانفتاح على الآخر بالحوار، وهذا ما كرسته مدرسة الشهيد الأول^(٩)، وبعده الشهيد الثاني، وبينهما العلامة الكركي، وصولاً إلى علامتنا الإمام شرف الدين.. لكن المناداة بالعروبة بحسب ما اتضح لنا آنفاً كانت هي ابنة ظرفها المحلي.. خصوصاً إذا ما انتبهنا إلى أن الفكر القومي كان قد بدأ يغزو المنطقة في تلك المرحلة^(١٠).. ولا ضير عند العاملين عموماً وعلامتنا الإمام شرف الدين خصوصاً أن تكون العروبة القاسم المشترك الإستراتيجي نحو الوحدة. وليس نحو التجزئة كما أرادها المستعمر^(١١).

سار العاملون في مطالبهم بالاستقلال مع العروبيين^(١٢) على ديدن علماء النجف^(١٣) «تحت العلم العثماني المظفر»^(١٤)، لكن الحرب أرخت بظلالها، وزاد العثمانيون من تتكيلهم بالعرب ظناً منهم أنهم وراء هزيمتهم أمام الحلفاء^(١٥)، فانضم الشريف حسين - مصطفىاً - إلى الحلفاء عندما وعدوه بالاستقلال^(١٦).. وانسحب العثمانيون بعد أربعة قرون ونيف من حكم المنطقة العربية^(١٧) التي دخلها الحلفاء (فرنسا وبريطانيا)، فاشتدت المطالبة بالاستقلال ورفضاً لهذا الاحتلال، وكان المطلب هو المناداة بفيصل ابن الشريف حسين ملكاً على سورية الطبيعية (سوريا، لبنان، فلسطين، الأردن)، والتي يشكل جبل عامل جزءاً منها^(١٨).

عودة السيد شرف الدين إلى جبل عامل ودوره في هذه المرحلة:

عاد السيد عبدالحسين شرف الدين من النجف الأشرف إلى جبل عامل في تاسع ربيع الأول (١٣٢٢هـ / ١٩٠٥م) يتجلبب ببردة (الاجتهاد) المطلق^(١٩)، وفي الأفق كانت تنتظره مرحلة من أصعب المراحل التي مرت

بها الأمة والمنطقة، والتي لا زالت إلى اليوم تعاني من آثارها، ألا وهي الاحتلال الإنكليزي والفرنسي لبلادنا، وتقاسم النفوذ، والتأسيس لنشأة الكيان الصهيوني..

الديني والسياسي يستقبل السيد شرف الدين

كانت دمشق المحطة الأولى في رحلة العودة للإمام شرف الدين، حيث استقبله هناك المقدس السيد محسن الأمين، وثلة من العلماء.. أما في جبل عامل، وعند وصوله إلى بلدة (عديسة) جدّ في استقباله (أعلام البلاد) من كبار العلماء فمن دونهم، وفي خدمتهم زعيم عاملة السياسي كامل بك الأسعد، ووجوه العشائر، أعيان البلاد.

يتحدث الإمام شرف الدين عن جانب من ذلك الاستقبال، وتلك الحفاوة، فيقول: «فتابعوا بنا السير - بعد تبادل التحية بيننا وبينهم بأدائها الشرعية - حتى نزلنا بتلك الجماهير في رحاب الكامل - الطيبة - فأخذته أريحية الكرم، ومدّت باعه يباري الغيث جوداً، فما كعب بن مامة، ولا معن بن زائدة إلاّ دونه. وبعد تناول الطعام.. تابعنا السير فكنا نلتقي بالناس أفواجاً أفواجاً، مشاةً وركبانا، حتى أتينا قريتنا شحور..» (٢٠).

يلفتنا في هذا السياق في عودة الإمام شرف الدين، والاستقبال الحاشد من العلماء الأعلام وزعيم عاملة، تلفهم الجماهير.. الدخول في الاجتماع السياسي من بابه الواسع، حيث لا يكفي علامتنا برسم تلك اللوحة الواضحة لهذا الموضوع بشكل عام، بل قرر أن يوضّح لنا الأمر على المستوى الخاص، بذكره تشجيع والده له بالدخول إلى هذا الميدان قائلاً: «أرادني ولي النعمة أن أتصدى - وأنا في خدمته - للأُمور الحسبية» (٢١) وسائر الشؤون العامة.. وعلى هذا جرى الأمر بيننا إلى منتهاه، والحمد لله» (٢٢).

لكن ساحة شحور، تلك القرية النائية في جبل عامل، لم تكن لتسع طموح علامتنا الشاب، إذ أن اتصالات كانت قد جرت مع والده «ومؤمنون من أهل صور»، راغبين في أن يكون العلامة الشاب «بين ظهرانهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورعاية الدين، ونشر أحكامه.. فعُني - أعلى الله مقامه - بأمرهم، واهتم بشؤونهم، وأمكنهم من بغيتهم»^(٢٣).

أولاً: التأسيس لمشروع النهضة في صور

وهكذا فتحت المدينة (صور) التاريخية أمام طموح علامتنا الشاب حيث يقول: «أتيناها منتصف ذي الحجة سنة ١٣٢٥هـ، وألقينا فيها العصا... وبحلولنا انتظمت إلفة المؤمنين، فإذا هم كأنهم الثريا، وكانوا قبل كبناات نعش، قد سعى بينهم متزعموهم (إشارة إلى الزعامة السياسية الإقطاعية في عهد الدولة العثمانية)^(٢٤)، عملاً بالقاعدة الإقطاعية (فرق تسد)، لكن الله سبحانه لمّ شعثهم ملتقين بي إخواناً...»^(٢٥).

وبالفعل، لقد شكلت صور انطلاقة طموح العلامة شرف الدين الشاب، وها نحن نرى موقفه من الزعامة السياسية - الإقطاعية، وفعلها على المستوى الاجتماعي، وكان له إزاء ذلك مشروعه النهضوي.

١ - إبتداء النهضة في صور: يعتبر المسجد في الإسلام هو الركيزة الأساسية في مجتمع المدينة، التي تلتف من حوله. أما في صور فلم يكن في حينها مسجد للشيعية يخولهم عقد الجماعة فيه؟^(٢٦) فكان من أولى الأمور التي تصدى لها علامتنا، ولكن وفق إستراتيجية قامت على استطلاع الرأي العام «فكان الفصل بينهم أن نستقصيهم مبتدئين بالأقرب منهم فالأقرب، فعلنا ذلك في دورات عديدة، فاشتد الوثام، وكثر الازدحام...»^(٢٧). إلى أن يقول علامتنا: «حينئذ دعوت وجوههم فاستصرختهم برفق، وشكوت إليهم

بشي وحزني ومصيبتي: بما أنا لا جامع لنا.. ولا مدرسة، ولا.. ولا..
يدخل الأجنبي صور وهي عنوان الإمامية في البلاد العاملة، فلا يحس
منهم بأحد.. وهم الأكثرية»^(٢٨)، ثم يتابع علامتنا بث الحمية «راغباً إليهم
في اتخاذ مسجد يجمعهم على عبادة الله تعالى، ويطلق عنهم ريقة هذا
الخمول...»^(٢٩).

ويبدو أن جماعة ما استخفوا برأي السيد، وأرادوا إحباط عزمه،
ولعلمهم من الزعامات المحلية الذين تهيّبوا خطة السيد، فيقول بنبرة عالية،
ملؤها العزيمة والإقدام: «فنفضت يدي منهم، وعلمت أنني إنما أستصرخ
منهم غير مصرخ.. لكن عزيمتي لم تفشل.. وكأن أولئك المتزعمين قد
صقلوا - بصدودهم - أذهان المخلصين، [فجلونا] عنها صدى الفتور، فما
خنست بعدها لهم همة، ولا انقبض لهم ذرع»^(٣٠).

لكن على ما يتضح فإن مشروع بناء المسجد قد توقف بتدخل من
هؤلاء الزعماء الذين استقووا بالحكومة العثمانية، فبادر السيد إلى إقامة
مجمع استعاض به مع إخوانه عن المسجد في كل ما يشغله من أمور العبادة،
ووقفه على روح سيد الشهداء، وأسماء (الحسينية)، فكانت «بدلاً عن دار
الندوة في [كل ما] يعقد وينقض من أمورنا العامة.. وبدلاً عن المحكمة..
وبدلاً عن المدرسة.. نقيمها أيام المواسم.. لا سيما عاشوراء.. ويوم الغدير
العلوي إذ يهرع إلينا المؤمنون من نواحي الجبل العالمي»^(٣١).

٢ - توسع التحرك بعد إرساء أسس المشروع: وكأنها استراحة
محارب، عاد السيد بعدها إلى ساحة النهضة، التي لم يغادرها في الحقيقة؛
لأنه وكما يقول: «بلغنا بالحسينية بلغتنا من هذه المهمات كلها، غير أننا لم
نحرز بها فضل المسجد»^(٣٢).. وما كنت لأجتزئ بها، لو لا أنني كنت مع
أولئك المتزعمين: «كراكب الصعبة إن أشنق لها خرم، وإن أسلس لها

تقحم»^(٣٣)، وقد منينا منهم بخبط وشماس، وتلون واعتراض، فصبرت على طول المدة، وشدة المحنة، أتريص سائحة الفرصة.. حتى شممت مخائل الرجاء، بسخط الوالي العثماني عليهم، واشتغالهم عنا بأنفسهم.. فانتهزنا بتغييهم فرصة لإشادة الجامع.. فأبرقت للسلطان محمد رشاد.. وما إن أبرق منعماً بالإجابة^(٣٤)، حتى أسسنا الجامع.. على هندسة جامع الجزائر في عكا. وما إن فرغنا من قواعده الراسخة من تخوم الأرض إلى سطحها، حتى مني العالم بقارعة الحرب العالمية، فاشتغلنا بويلاتها عن كل شيء^(٣٥).

ولما وضعت الحرب وزارها.. ثبنا إلى الجامع لنكمله، فكان أولئك المتزعمون لنا بالمرصاد، حتى أغروا الحكومة الفرنسية بنا فصادرتنا بها... فألجأتنا إلى كف أيدينا عنها مؤقتاً، فرددنا أنفسنا عن مكروهاها، لكنها استقرت مطوية على إنقاذ القطعة منهم بالحق عند أول فرصة، وقد استتب لنا ذلك بعد لأي والحمد لله»^(٣٦).

إن النصوص الأنفة الذكر تشير على المصاعب التي اعترضت إمامنا العلامة في مشروع نهضته، ليس من طرف الجماهير والناس، ولكن من أهل السلطة والزعامة. وهذا ما يدل على سمو مشروع السيد شرف الدين في تخليص المجتمع من ربقة هؤلاء الزعماء الذين تمادوا في الممانعة للنهضة، حتى بعد انسحاب العثمانيين ومجيء الفرنسيين. وهذا دليل آخر على المصاعب التي واجهت السيد من جهة، وتحفزه وعلو همته من جهة ثانية؛ لأن الأمور الصعبة التي وصفها لنا أعلاه، لم تنش عن بناء مسجد في قطعة أرض أخرى أكبر مساحة من الأولى، بعد أن عمل سماحته وثلة من المخلصين على شراء أرض مجاورة بهدف التوسعة، إلى أن انتهى من العمل بالمسجد عام ١٣٤٧هـ^(٣٧).

هذا وإن كانت المدة في إنشاء المسجد قد استغرقت منذ قدوم علامتنا إلى صور عام ١٣٢٥هـ، أي ما يقرب من الاثنين وعشرين عاماً، إلا أنه حقق ما أمر الله تعالى أن يعمّر، وإلى ذلك يشير الإمام شرف الدين في بغيته من أثر المسجد ومنبره^(٣٨)، إلى أن يصل في حديثه وفق المشروع إلى بناء صرح علمي يضع حداً للجهل وبالتالي للغزو الثقافي إذا جاز التعبير.

٣ - المدرسة الجعفرية وترويض الصعاب في سبيلها: ويتابع ربان السفينة قيادة مركبة بين تلاطم الأمواج إلى بر الأمان، بعدما دخل السرور إلى قلبه في - الأساس - المسجد، والتفاف أهل صور ومعهم أهل القرى العاملة ﴿وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَذَبٍ يَنْسِلُونَ﴾^(٣٩)، لكن الإمام هذه المرة كانت عينه على خطر دائم على المجتمع، وثقافة المجتمع وحركته العلمية والتربوية، بعد التغير الحاصل في نظام المدرسة والدراسة، خصوصاً بعد دخول جبل عامل في الكيان السياسي الجديد للبنان إبان الانتداب الفرنسي^(٤٠).

في هذا المضمار، كان للسيد شرف الدين رأي هو: «في الحق لقد خُدعت أمتنا بأوهام من الغرور باطلة، حيث أرادت استرجاع مجدها بتعليم ناشئتها، فدفعتم إلى أحضان هذه المدارس، وأضاعت مجدها على وجه آخر، هو أتقن وأبرع وأشد وأفضع، إذ تخرجوا جنوداً علينا، وعلى مقدسات مبادئنا، وتلك مصيبة ما مني الإسلام والشرق بمثلها، فإننا لله وإنا إليه راجعون»^(٤١).

لم يكن هذا الرأي وقوفاً على الأطلال للتباكي، بل كان الطرح البديل في إطار المشروع النهضوي، «ومن الطبيعي - يقول السيد شرف الدين - أن ينتج الفكر لنا راحة تضمن ما نصبو إليه، من متاع في علم يُرجع لنا اليقظة التي بُني عليها تاريخنا المجيد، وفي مصارعة هذا التيار أوحى إلينا

الواجب الديني أن نقوم بتأسيس المدرسة الجعفرية على الشرط الذي كنا نفكر فيه من بعيد...»^(٤٢).

في هذه المرحلة، كان الانتداب الفرنسي يخطب ودّ السيد شرف الدين، «وذلك بما ينسبنا سيئاتهم معنا»^(٤٣)، وكنا نحن إذ ذاك نلقاهم على حرف - أي في السراء دون الضراء - فأوعزوا إلينا أن نؤسس المعهد في القطعة الرشادية التي كانوا كفوا أيدينا عنها...»^(٤٤) في مشروع بناء المسجد كما مرّ معنا.

لكن الانتداب لم يكن سعيه مصلحة جبل عامل وأهله بقدر مصلحته في تثبيت أقدامه، فما أن بُدئ العمل بمشروع المدرسة حتى لجأ المعارضون إلى المستشار الفرنسي.. مما اضطر السيد معها أن يراجع «السلطة المستعمرة»^(٤٥)، وراودها بالأمر.. حتى حصل على وصل رسمي واستلم سند التملك لتلك الأرض بما فيها.

«وهنا قامت قيامة أولئك المعارضين ﴿وَهُمْ أَوْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾»^(٤٦)، وكانت محاكمات أظهر الله بها الحق في المحكمة العقارية في صور، ثم في محكمة بداية الجنوب - وهو الاسم الذي نسخ اسم جبل عامل - في صيدا... وكانت المحاكمات استمرت أكثر من سنتين. بعدها جاء الحق وزهق الباطل...»^(٤٧)، وفتحت المدرسة أبوابها في العام ١٩٣٨م، وهي مستمرة إلى اليوم.

إلى هذا يكون الإمام شرف الدين قد هباً أرضية التغيير الاجتماعي، وأرسى دعائم مشروعه النهضوي، لكنه - تقدست روحه الطاهرة - كان وبعين باصرة في الأفق البعيد، يرى أن هذا المشروع التغييري والنهضوي في حال الأمة والمجتمع، لا يكتمل إلا بالوحدة وهو القائل في خطبته لمؤلفه الشهير (الفصول المهمة في تأليف الأمة): «لا تتسق أمور العمران»^(٤٨)، ولا

تستتب أسباب الارتقاء، ولا تثبت روح المدنية.. ولا نرفع عن أعناقنا نير العبودية بيد الحرية، إلا باتفاق الكلمة واجتماع الأفئدة، وترادف القلوب، واتحاد العزائم، والاجتماع على النهضة بنواميس الأمة، ورفع كيان الملة... فتُشر روح الإنسانية من أجدائها، وتُحشر الملة الفطرية من رفاتها، ويتبلج القسط بازغة أنواره، ويستوسق نظام العدل خافقة بنوده، ويتفقد الحاكم أمر رعيته تفقد الوالد العطوف أمر ولده، وعندها تجب مؤازرته في إحياء مواتها، وعمارة فلواتها، ورتق ما انفتق، وإصلاح ما فسد، وإرشاد من ضلّ، وجهاد من بغى، وإعانة من ضعف، وتعليم من جهل...».

ويختم الإمام شرف الدين خطبته هذه كما ختم الإمام الحسين (عليه السلام) خطبته في كربلاء «إن أريد إلا الإصلاح..»^(٤٩). ولا شك أن هذه الخطبة الرائعة تنفك عن صورة شاملة وتصور دقيق للمشروع النهضة المتكامل..

ثانياً، التأسيس لمشروع الوحدة الإسلامية (زيارة أرض الكنانة مصر)

لئن عاد الإمام شرف الدين من النجف (مجتهداً)، حاملاً معه حلم نهضة الأمة، لكنه كان يعرف تمام المعرفة - وكما أسلافه، الشهيد الأول والشهيد الثاني وبينهما العلامة الكركي والسلسلة الذهبية إلى إمامنا الخميني قدّست أسرارهم جميعاً - أن هذا الحلم لا يتحقق إلا بالوحدة، وكانت مصر ولا تزال منارة من منارات العلم في الشرق العربي وبلاد الإسلام، يؤمها رواد المعرفة، ومنتجعو الثقافة من مختلف الأقطار، وقد كانت تكافئ النجف الأشرف بأزهرها الشريف، وكانت زيارة الأزهر من أمنيات إمامنا السيد عبدالحسين شرف الدين، الذي يقول في هذا الصدد: «حتى حقّرها خالي المرحوم السيد محمد حسين الصدر في أواخر سنة ١٣٢٩هـ... وكان لهذه الزيارة أثر محمود في نفسي وفي حياتي،

ذلك أنني توخيت أن أتغلغل في الحياة العلمية، وأستبطن دخائل المجتمعات الأدبية بالتحدث إلى العلماء، والسماع منهم وتبادل الزيارات بيني وبينهم، وبالمناظرة في أهم المسائل العلمية التي كانت مدار البحث، ومحك الفضيلة»^(٥٠)، كل ذلك في سبيل الوحدة.

وهناك في مصر، كانت للإمام شرف الدين صلات واتصالات استجاز فيها العديد من علمائها^(٥١)، وكان من بينهم الشيخ سليم البشري شيخ الأزهر الذي تمخّض النقاش والحديث فيما بينهما عن كتاب (المراجعات)، فيقول السيد: «ولو لم يكن من آثار هذه الزيارة إلا هذا الكتاب لكانت جديرة بأن تكون خالدة الأثر في حياتي على الأقل»، إلى أن يقول: «وقد نجمت هذه الاجتماعات الكريمة عن فوائد جمة أقلها الاتصال الفكري بين مدرستي النجف والأزهر»^(٥٢).

ثالثاً: الحرب الكونية الأولى وتداعياتها ودور الإمام شرف الدين

١ - الحرب وويلاتها وتدبير الأمور من قبل الإمام شرف الدين: وكما ذكرنا في بداية البحث فإن مغالاة الاتحاديين، وغرقهم في الفوضى والتعسف، أدى إلى ضرب مطلب المحافظة على وحدة الدولة العثمانية، والتراجع إلى مطلب استقلال الدولة العربية تحت راية الشريف حسين ملكاً عليها، ورفضاً للاحتلال الأجنبي المتمثل ببريطانيا وفرنسا.

مع اشتداد وطيس الحرب العالمية الأولى من جهة، وتعسف الأتراك من جهة ثانية، أصيبت البلاد بالمجاعة المدققة، وكانت الموتى مطروحة في البيوت وفي الشوارع العامة وفي البراري لا يؤبه بها^(٥٣). ويأتي دور الإمام شرف الدين، حيث يقول: «حسبي ما أولاني بلطفه وكرمه من إيقاظي وإنهاضي إلى تدارك أمر العلماء في محنتهم يومئذ، وعلاج ما يتسنى علاجه

من بلاليا الجمهور حولي...» (٥٤).

أ - محنة العلماء:

في البدء تداعى العرب عند إعلان النفير العام للتجنيد، ولم يتخلف منهم إلا من أعفاه من الخدمة قانون أخذ العسكر الجديد (٥٥)، ومنهم أئمة المساجد والقوامين على الطقوس الدينية في كنائس أهل الكتاب (٥٦).

لكن لسوء الحظ، لم تكن لأئمة المساجد الشيعية أسماء في دوائر الحكومة، ولا في غيرها. إذ لم تكن إمامتهم بتوظيف من الحكومة بخلاف أهل المذاهب الإسلامية الأربعة الأخرى، وكذلك القوامون على كنائس أهل الكتاب من أحبار اليهود وأساقفة النصارى، الذين كانوا موظفين من رؤساء كهنتهم برواتب مسجلة لهم يتقاضونها من أوقافهم..

فأعفت السلطات العسكرية هؤلاء بموجب وثائق وزعتها عليهم، سوى أئمة مساجد الشيعة، التي لم تعترف سلطات السُّوق بإمامتهم، فبذل الإمام إزاء ذلك سعيه مع آخرين من العلماء العاملين مراسلة إلى السدة السلطانية، أو عرائض إلى القائد جمال باشا فمن دونه ممن لهم حق النظر بهذا الأمر (٥٧)، وكان لعلماء الشيعة ذلك بفضل توسط والي بيروت أبي بكر حازم بك (٥٨)، وإن كانت متأخرة..

ب - إرهاب وانتقام (٥٩):

أمست تصرفات الجيش التركي تقوم على ردة الفعل على الهزائم التي لحقت به، وبذلك أعلنت الأحكام العرفية، وسيق العديد من الوطنيين إلى السجن، وأُعدم الكثير منهم. وبدأت عمليات السطو من قبل هذا الجيش على أرزاق الناس بعد أن دبّت به الفوضى، فحلّت المجاعة والأمراض التي تفاقمت مع وصول الجراد إلى البلاد..

ج - المجاعة وبلاليا المؤمنين:

إن الجراد وإن أحرّ في محاصيل بعض الجهات من البلاد عام ١٣٣٣هـ / ١٩١٤م، إلا أن السلطات العثمانية تبقى هي المسؤولة، لما رافق ذلك من الاستبداد والعنف، كمصادرة الغلال، وسوّق الرجال، وغير ذلك^(٦٠). حيث يعيد الإمام شرف الدين هذا العنف والاستبداد إلى: «ضعف الشيخوخة الذي منيت به الدولة العثمانية في ذلك العهد»^(٦١)، وكأن الإمام ينعى لنا حلم الوحدة الإسلامية تحت علم الدولة العثمانية..

«.. فطفقت - يقول الإمام شرف الدين - يومئذٍ أستجد الكرام الموسرين... ورفعت صوتي بذلك أستخرج به من أعماق الناس معانيهم الإنسانية.. وبرزت الأخماس تقفوها الزكوات، وتتلوها أثلاث الموتى إلى رصيد معلوم يوزّع على الجوعى بنسب متكافئة. وقد جعلت لكل مُخرج من هذه الحقوق أن يُشرف بنفسه أو بنائب عنه على توزيعه في ذي قرباه مع مندوب اعتمدته في تقدير نسب التوزيع... وأنقذ الله بفضلته من أشدّاق الموت نفراً، وأخذ بأيدي آخرين فأخرجهم من ظلمات السجون»^(٦٢).

٢ - الثورة العربية والمواقف من الاحتلال: لم تكن الثورة العربية - كما بيّنا - وليدة العداء للأتراك، أو الانفكاك عن الدولة العثمانية، ولا للإمارة والملك، بل لأن العرب لامسوا الخطر المحدق بهم، ورأوا خطة الإفناء تنفذ فيهم... ووجدوا سياسة الاتحاديين لا مراد منها سوى إرهابهم، وصب صوت النقمة عليهم، وأن الرجل المريض ميت لا محالة... فثاروا ثورتهم علّهم ينقذون ما تبقى بنيلهم الاستقلال الذي وعدوا به من بريطانيا وفرنسا^(٦٣).

وحّد الظلم والاستبداد والخطر جميع العرب، وكان لإعلان الشريف الثورة على الأتراك في حزيران ١٩١٦، بارقة أمل لدى العرب بالاستقلال، مع تقاطع الأهداف الأوروبية في التخلص من الدولة العثمانية، وإن كانت أهداف الأوروبيين اقتسام تركية الرجل المريض، فإن الوعود كانت بقيام

دولة أو مملكة عربية تشمل العراق والشام بما فيها فلسطين باستثناء لبنان^(٦٤).

أ - جبل عامل والثورة العربية والسيد شرف الدين:

قصر إعلان الثورة العربية مدى الحرب في الميادين التي قامت فيها (سورية وفلسطين والعراق وبعض الجزيرة العربية)، ولما سقطت القدس، ودخل القسم الجنوبي من سورية في حوزة الحلفاء، بدأ الوهن يصيب شراذم الجيش التركي الذي بدأت فلوله بالفرار^(٦٥).

بعث الملك فيصل رسلاً مزودين بكتب وبرقيات إلى زعماء البلاد السورية، يستحثهم فيها على طرد الأتراك منها، وإعلان الاستقلال العربي، وقَدُم بتاريخ ٢٠ ذي الحجة ١٣٣٦هـ إلى جبل عامل إيليا ذيب، رسولاً من الملك فيصل يحمل كتاباً إلى زعيم جبل عامل كامل بك الأسعد، يستحثه فيه على مهاجمة السواحل وطرد الأتراك منها، ورفع الراية العربية في أنحاء جبل عامل، لكن الأسعد تريث في التنفيذ لأسباب عديدة^(٦٦)... إلا أن إعلان الحكومة العربية في دمشق بتاريخ ٣٠ أيلول ١٩١٨م، سرّع في إعلان الحكومات العربية المؤيدة لها في أنحاء سورية^(٦٧).

«وبدأ العمل في هذه البلاد بإنشاء حكومات مؤقتة... وأنشأنا - يقول السيد شرف الدين - في صور يومئذ حكومة على هذا الفرار، تحتفظ بالزمام لتلقيه بعدئذ إلى الأمير فيصل حين تُتَوَجَّ مساعيه بالنجاح، لكن الإنكليز أبطلت هذا التدبير، الذي رجونه لمستقبل عربي مستقل... وبذلك شُطِبَ على الخطوة الأولى، ومهد لفرنسا أن تسيطر وتحتل... ولكن ما كان لنا ولسائر المخلصين للدين والقومية والوطنية أن نستكين للقوة مستخذين»^(٦٨).

ومرة أخرى يعبر السيد شرف الدين عن فشل، ولكن هذه المرة أو

بالأحرى الخطوة الأولى نحو الاستقلال العربي... لكن الهمة لم تُهزم بعد اكتشاف مخططات الاحتلال بالتقسيم.

ب - الاحتلال الفرنسي المباشر ومقاومته:

وبالفعل، فقد أدى اعتراض فرنسا على إعلان الحكومات العربية، واتهامها بـ «بريطانيا بالتآمر مع فيصل عليها، إلى إنزال العلم العربي عن سراية بيروت في ٩ تشرين الأول ١٩١٨م^(٦٩)، وعيّنت حكماً عسكريين من الفرنسيين في كل من بيروت وصيدا وصور، منهم: الكولونيل دي بياباب De Piepape قائد الفرقة الفرنسية في فلسطين وسورية، فقد عُيّن في هذا المركز الخطير في بيروت^(٧٠).

وعلى إثر ذلك قامت المظاهرات في معظم المدن الساحلية والداخلية، بعد انتشار أخبار وإشاعات حول مطامع بريطانيا وفرنسا في لبنان وسورية، ومن خلفهم مطامع الحركة الصهيونية في فلسطين - وعد بلفور - مما حمل حكومتي لندن وباريس لتهدة الرأي العام العربي على إصدار البيان الشهير في ٨ تشرين الثاني ١٩١٨م، والذي تضمن وعوداً وهمية لشعوب المنطقة.

والحقيقة، بعد إعلان الهدنة قُسمت البلاد على أنها (أرض العدو المحتلة) إلى ثلاث مناطق عسكرية تحت سلطة القائد البريطاني اللنبي: جنوبية (فلسطين) بإدارة بريطانيا، وغربية (ساحل لبنان وسورية) فرنسية، وشرقية (سورية الداخلية) بإدارة فيصل الذي احتج على هذه الإجراءات، فكان ردّ الجنرال اللنبي: «... إنه عمل عسكري مؤقت، وأن مستقبل البلاد سيقدر وفقاً لرغبات أبنائها في مؤتمر الصلح...»^(٧١).

إن هذه اللحظة التاريخية، وتصديق العرب وقادتهم للوعود الأجنبية، وتضحياتهم، ذهبت أدراج الرياح، حيث يقول الإمام: «كان نصيبنا من التقسيم يومئذ نصيباً لم تجر فيه الرياح كما كنا نشتهي، وكما كنا

نقدر...». فأحالت كل الأمور إلى مؤتمر الصلح ليقرر ما يقرره المنتصرون.. أما والحالة هذه، ففي جبل عامل كما القرى والمدن الساحلية التي انتفضت غضباً ورفضاً لما يحاك ويدبر للمنطقة. فها هو الإمام شرف الدين يعبر عن هذا الرفض بقوله: «فكان استقبالننا للاحتلال الفرنسي من أجل ذلك استقبالاً صاخباً محتجاً، يواجهها بالرفض والمصارحة، والميل عنها ميلاً لا هوادة فيه ولا لين» (٧٢).

إزاء خطورة المرحلة بدأ الإمام شرف الدين تحركه وتحريكه للجماهير وفق إستراتيجية جديدة باسم (الأمة العاملة) (٧٣)، بعد أن أخذ وكالات ممن يلبسون السياسة ويعملون في حقولها. وجمع العرائض موقعه وممهورة بأختام العلماء والوجهاء والمختارين من مختلف البلاد العاملة. وعليه، بدأ علامتنا بتطير البرقيات والعرائض المعبرة عن آمال البلاد وأمانيتها في: «جلاء فرنسا عنا، واعتزالها الحكم فينا» (٧٤). وهذا ما كانت تقول به مع حليفتها بريطانيا، وبالتالي ما كان قد أعلنه الرئيس الأميركي ولسن في ١٨ كانون الثاني ١٩١٨م، عن مبادئه في تقرير الشوب لمصيرها (٧٥).

ج - سعاية الفرنسيين لشق الصف وانفراط العقد:

هذا وتعبيراً عن صادق مشاعر العاملين وحماستهم لقيام الدولة العربية واستقلالها، وصل وفد عاملي إلى دمشق بُعيد دخول الأمير فيصل إليها بقليل، وضم الوفد كبار العلماء ورجال الدين وبعض الوجهاء، وعلى رأسهم السيد محسن الأمين والسيد عبدالحسين شرف الدين، لكن هذا الوفد وبعد عودته إلى جبل عامل سارع حاكم لبنان الفرنسي الجنرال (غورو) إلى طلب أفردة للمقابلة، وقد قبلوا بعد تردد، وكان أكثرهم قد تفرق. وذهب إلى اللقاء الشيخ يوسف الفقيه والسيد عبدالحسين شرف

الدين وكامل بك الأسعد وآخرون، وعند وصولهم انفرد «غورو» بكامل بك الأسعد الذي خرج ليقول لأعضاء الوفد: «جئتمكم بالبشارة.. الانضمام إلى لبنان!.. فأحدثت هذه الكلمة صدى قوياً لدى أعضاء الوفد ومنهم الشيخ يوسف الفقيه، الذي عارض هذا الرأي وارتأى أن يُستفتى العاملون. وهنا بدأت سياسة الفرنسيين تأخذ طريقها إلى قسمة العاملين، فتصدى لها أنصار الوحدة والعروبة، وكانت له كلمة الفصل...» (٧٦).

ويصف الإمام شرف الدين تلك المرحلة بقوله: «المؤسف أشد الأسف أن داءنا القديم داء الانقسام والحسد والنفاق، بدت أعراضه من تلك الفترة، وظهر في الميدان نفر من هؤلاء المتزعمين الذين أشهدناهم مجالسنا، وأطلعناهم على خطتنا الصريحة، وأشركناهم في عملنا. ظهر هذا النفر في الميدان مذبذباً، ينقلب إلينا علناً، وينقلب عنا سراً».

وبكل صراحة يشير الإمام هنا إلى الزعامة الإقطاعية التي اعترضته في بداية نهضته في صور، وها هي اليوم تجد فرصتها، ولكنها كما يقول السيد كانت مترددة متذبذبة، لا تملك من أمرها إلا أن تفكر كيف تحكم وتتحكم برقاب الناس دون موقف، كما للعلماء، في مصير هذه الأمة (٧٧).

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الفرنسيين قد استأثروا من تذليل مواقف الإمام شرف الدين وأترابه، فسعوا إلى اغتياله على يد أحد أعوانهم، وفشلت المحاولة، وعلى إثرها «يسري النبا في البلد، فتتحرك الحماسة ويجتمع الناس، ثم يتصل النبا في الخارج، فتتوافد الرايات تخفق فوق الألوف الكثيرة من وفود الساحل والجبل، في مظاهرات وطنية تاريخية رائعة.

وجاء حاكم صور الفرنسي.. متصلاً مما حدث... وبعد انصرافه

مدحوراً أشرفتُ على الجماهير وشكرت مسعاهم وحميتهم، وصرفتهم إلى أماكنهم مدخراً تجمّعهم إلى أن يحين الوقت» (٧٨).

يتضح لنا هنا أن الإمام شرف الدين قد تقدّم إلى مرحلة الزعامة المطلقة لجبل عامل كما سيظهر لنا لاحقاً..

د - مؤتمر الصلح / الإخفاق وإعلان الاستقلال:

في هذه الأثناء كان الأمير فيصل قد وصل إلى باريس لحضور مؤتمر الصلح.. لكنه أثر زيارة لندن للتأكيد على المواقف التي تعهدت بها لوالده، وكانت المفاجئة تنتظره بتأكيد الحكومة البريطانية على (وعد بلفور)، حيث أحس فيصل «بأنه ومن معه ليسوا في مستوى الأحداث»...

واشتد الضغط عليه من الحكومة البريطانية يؤازرها (لورانس) الذي قطع رفقته لفيصل في باريس عائداً إلى بريطانيا، عندما رفض النزول عند رغبة الحكومة الفرنسية بنزع ثوبه العربي الأبيض عنه لتستقبله - على حقيقته - بلباسه العسكري البريطاني... ونذكر هنا بأن (لورانس) كان معروفاً بمناصرتة للصهيونية ومطالبها في فلسطين.. لا بل سخرته من والد فيصل الشريف حسين، حيث كان يصفه بـ «البدوي الجاهل الضيق الأفق» (٧٩).

أثرت حملة الضغط المركز على فيصل، فأخذ يميل شيئاً فشيئاً إلى التفاهم مع الصهيونيين بعدما استطاع الإنكليز إقناعه بتخلف العرب وتفوق الصهاينة الآتين إلى أعمال النهضة في المنطقة.

صدق فيصل ظنه، الذي كان استيحاءً من بنات أفكار البريطانيين: أن إرضاء الصهيونيين كسب للقضية العربية... فقدّم إلى مؤتمر الصلح مذكرة كان لـ (لورانس) اليد الطولى بوضعها، طلب فيها إخراج فلسطين من حدود الدولة العربية العتيدة... وليعترف - أي فيصل - فيما بعد بـ (وعد

بلفور) ووصاية بريطانيا على فلسطين، وفق الاتفاق الذي وقعه مع (حاييم وايزمن) في ٣ كانون الثاني ١٩١٩م^(٨٠)؛ ليكون أهم الانتصارات السياسية للحركة الصهيونية على أبواب مؤتمر الصلح... وما إن وصل الخبر إلى المنطقة العربية التي ثارت، وبدأ التحرك وغضب الشريف حسين من تصرف ولده فيصل، فعزم على استدعائه واستبداله بأخيه عبدالله، لكن المندوبية البريطانية كانت له بالمرصاد، بالإقناع تارة والتهديد تارة أخرى^(٨١).

بقي الإمام شرف الدين يتحرك وفق إستراتيجيته الجديدة كما ذكرنا، وبقي على اتصال بذوي الأمر من أعضاء الحكومات العربية، التي بقي الإمام شرف الدين يعمل ويتحرك مع أتراب له وكأنها موجودة رغم إلغائها^(٨٢). وهذا ما كانت تتولى نشره الصحف والإذاعات في بيروت، ثم في دمشق بعد أن كمّها الاستعمار في بيروت. ثم حصلت المواجهات التي تمخّضت عن إعلان الثورة والمقاومة^(٨٣)، حيث يقول السيد: «ثم كان لنا مواجهات مع المسيطرين من الفرنسيين... وقد شهد الكثير من هؤلاء وغيرهم في صور وشحور احتشادات الجماهير الهابطة من الجبل بأعلامها الخافقة الوطنية، وهتافات الصاخبة، فكان لذلك وقعة في نفوسهم، وعلموا أن الشكيمة التي يحاولونها شكيمة شديدة لا تروّض»^(٨٤).

هـ - عودة فيصل والمؤتمر السوري الأول:

عاد فيصل من فرنسا، ونزل في مرفأ بيروت في ٣٠ نيسان ١٩١٩م، ولم يكن قد توصل إلى ما هدف إليه من السفر.. واحتشدت الوفود لاستقباله بحماسة، ولسؤاله عما كانت نتيجة مؤتمر السلام، وكان الوفد العاملي من أول الوفود بحسب قصيدة الشيخ عبدالحسين صادق:

وجرت بمضمار السبا ق وعامل بالسبق أولى

أما خطبة السيد شرف الدين في استقباله فكانت أعمق وأبلغ، حيث

قال له: «باسم مواليك من إخواني العاملين الذين طوّقوا بالبيعة أعناقهم...»، ثم أنشده يقول:

ما بيننا يوم الفخار تفاوت أبداً كلانا في (السيادة) مُعرق
إلا (الإمارة) زينتك فإنني أنا عاطل منها وأنت مطوّق
فهي التي لك بالوغى معقودة وعلى سواك لواؤها لا يخفق^(٨٥)

لكن الأمير دعا جميع الوفود، بما فيهم العاملون، بمواكبته إلى دمشق، حيث وضع الشيخ عبدالحسين صادق نفسه باسم جبل عامل في خدمة الأمير فيصل، وكذا فعل غيره من رؤساء الطوائف الأخرى، ثم شارك الشيخ صادق بعد عدة أسابيع في المؤتمر السوري الأول، الذي انعقد في دمشق بتاريخ ٢ تموز ١٩١٩م، وكان صوت الشيخ مدوياً في اندفاع العاملين في طريق الوحدة، فقال: «إنني باسم جبل عامل أبايعك على الموت»^(٨٦).

و - لجنة (كينغ - كراين) والسيد شرف الدين:

في هذه الأجواء، وبناء على اقتراح أميركا، وصلت إلى المنطقة لجنة (كينغ - كراين)؛ لتستطلع الآراء وتختبر الميول نحو الحكم في البلاد، التي كانت بأغلبيتها تطالب بالوحدة مع سورية تحت راية فيصل.

وفي جبل عامل، تزعم السيد عبدالحسين شرف الدين والشيخ حسين مغنية الوفد العاملي الذي فوض السيد الكلام باسم (الأمة العاملية)، وتولى إدارة الحديث في حوار طويل، أفضى خلاله بتصوير رغبات الأمة وأمانيتها من الوحدة السورية المستقلة بحكومتها السورية للامركزية، وأن يكون الأمير فيصل ملكاً عليها، رافضاً أن يكون لأي دولة أجنبية يداً في حكم أو دخلاً في انتداب، لا سيما الحكم الفرنسي، طالباً مساعدة الرئيس

الأميركي ولسن^(٨٧)، وبذلك ازدادت الهوة والمجابهة مع الفرنسيين الذين استطاعوا تنظيم بعض العرائض والجمعيات التي حاولت أن ترفع صوت الانضمام إلى لبنان الكبير، ولكن بقيت خجولة كونها كانت في أكرثيتها من بين بعض مسيحيي جبل عامل..

لم تقف السلطة الفرنسية عند هذا الحد، بل سعت إلى إثارة النعرات الطائفية في جبل عامل، مستغلة الروح الثورية عند المقاومين للانتداب الفرنسي، فكان للإمام شرف الدين وموقفه لتصحيح المسار الثوري، حيث يقول: «وكنا ممن أعذر وأبلى بلاء حسناً في النصيح للثائرين، بالتزام السكينة وإيثار الهدوء، لنعمل في جو صالح للعمل، غير أن الفتنة قد استجمعت عناصرها، وهبت ريحها تنذر بالخطر»^(٨٨).

ز - اضطراب في الموقف وتراجع مرحلي:

أدت أعمال الفوضى التي أذكتها السلطات الفرنسية إلى اضطراب في مواقف الزعامة العاملية، ممثلة بالإمام شرف الدين الذي غدا المرجعية الأولى في هذا الشأن، وقد تجلّى ذلك من خلال محاولة إبعاد كامل بك الأسعد عن الساحة^(٨٩)، ومن ثم الطلب إليه بالعودة إليها كونه الزعيم التاريخي التقليدي لجبل عامل^(٩٠)، ومن ثم الطلب بمفاوضة السلطات العسكرية الفرنسية، بعد أن ساءت الحال في جبل عامل، وأمسّت القرى فريسة الهجمات من البدو واللصوص والعصابات المسلحة من جهة، وابتزاز الجيش الفرنسي من جهة ثانية، الذي فرض الضرائب وذلّ الناس، إلى حد أن التوتر وفقدان الأمن باتا لا يحتملان في نظر الإمام شرف الدين، فقرر احتواء الموقف بمفاوضة الفرنسيين بعيداً عن قناعاته الوجدانية والوطنية^(٩١).

فذهب إلى بيروت وقابل الجنرال (غورو)... ثم سافر إلى دمشق ليعيد

كامل بك الأسعد، بعدما رأى من أن الضرورة تأليف وفد من علماء وأعيان جبل عامل لمقابلة (غورو)، وذلك لتهدئة الأحوال على أن: رئاسة البلاد لكامل بك الأسعد^(٩٢).

وبهذا يكون السيد قد تراجع خطوة ليضع في الواجهة الزعامة السياسية، ومن ورائها الزعامة الدينية التي بقي لها الكلمة الفصل، وهو موقف معهود في جبل عامل عُرف منذ استشهاد الشهيد الأول^(٩٣).

وبالفعل، فقد تألف الوفد من العلماء والوجهاء برئاسة كامل بك الأسعد، وقابل الجنرال (غورو)، وكتبوا بذلك معروضاً للمؤتمر - الصلح - ومعه معروض آخر للجنرال، ومآل الأول: «أننا اجتمعنا وقررنا أن يرجع لبنان إلى حدوده القديمة، فيشمل جبل عامل على شريطة أن، يكون له امتياز خاص ضمن الكيان اللبناني»^(٩٤).

هذا وإن كان قد عارض بعض العلماء الذهاب بالوفد كالشيخ عبدالحسين صادق، الذي عدل عن رأيه فيما بعد، ولكنه لم يوقع على المعروض، لكن الأهم هو عتب الأمير فيصل على هذه الخطوة وتقلب المواقف بغير سبب كاف^(٩٥)!

كان للإمام شرف الدين في هذه المرحلة رأي يقول: بوحدة الزعامة السياسية خلف كامل بك الأسعد، يخالفه بالرأي علماء آخرون، ولكنهم لم يظاهروا بذلك إجلالاً واحتراماً كونه يتمتع برؤية ناضجة بعد التجربة التي تحدثنا عنها.. ولعل رأي الإمام كان هو خلاص البلاد العاملة من الفوضى، بتقريب كامل بك الأسعد من الفرنسيين الذين احتضنوا الأخير، وحيث أنهم وجدوا فيه تلبية لمصالحهم^(٩٦)، فطلبوا منه تأليف فرقة محلية لمواجهة العصابات - والثوار - وعقدت عدة اجتماعات اعتذر فيها كامل بك الأسعد عن أخذ قرار إلا بعد استشارة علماء وأعيان البلاد. وبالفعل، فقد

اجتمع بهم في داره في الطيبة حيث انجلى الاجتماع عن رفض هذا المطلب^(٩٧)، وبالتالي، كانت رسائل الأمير فيصل تصل إلى العاملين يلومهم فيها على أفعالهم، إلى حد أنه أنذرهم وحذرهم إن لم يساعدوا الثوار^(٩٨).

في هذا الوقت يقول الإمام شرف الدين: «كنا أثناء ذلك بمعزل عن هذا - ويشير إلى الثورة - منصرفين إلى جهادنا بناء على الخطة السلمية التي رأيناها لنجاح قضيتنا، وفي هذه الفترة، وقد غلت مراحل الغيظ، واضطربت الأحوال، جاءت رسل الرؤساء من عشائر الفضل في المنطقة الشرقية يحملون لكامل بك الأسعد رسائل الثورة، ويدعونه إلى خوض المعركة، ويخبرونه بين اثنتين: إما أن ينضم إليهم بجبل عامل، فيكون معهم حرباً على الفرنسيين، وإما أن يعتزل، فيكون غرضاً لحربهم قبل فرنسا.

ولم يجد هذا البلاغ استعداداً من قبل كامل بك؛ لأنه لم يكن متهيئاً، فاستمهل الرسل وحملهم إلى أصحابهم رسالته: أنه ليس المنفرد بالرأي في عاملة دون العلماء من أولي الشأن، ودون الزعماء من أمثاله الذين لهم كلمتهم ولهم أتباعهم، فلا بد له من أجل يضربه لميعاد يجتمع فيه العلماء والزعماء، ويبحثون هذه القضية في ضوء التفكير والتأمل، وهكذا كان»^(٩٩).

ح - مؤتمر وادي الحجير:

إزاء هذا الواقع، فقد زاد الوضع سوءاً بعد انعقاد المؤتمر السوري بتاريخ ٨ آذار ١٩٢٠، والذي أعلن فيه: «إستقلال سورية بحدودها الطبيعية بما فيها فلسطين...، ورفض مزاعم الصهيونيين... واختيار الأمير فيصل ملكاً دستورياً...»^(١٠٠). فبادر الثوار إلى رفع الراية العربية في بعض المدن

والقرى العاملة^(١٠١)، الأمر الذي استدعى تدخلاً فرنسياً سريعاً... والذي عجل في عقد مؤتمر وادي الحجير؛ لاتخاذ الموقف الحاسم من كل هذه التطورات محلياً - في جبل عامل - وإقليمياً - في سورية - ودولياً - مؤتمر الصلح والانتداب الفرنسي...

المؤتمر دعا إليه كامل بك الأسعد وترأسه^(١٠٢)، وحضره جمع غفير من البشر قدر بست مئة شخص وأكثر^(١٠٣)، حيث يصفه الإمام شرف الدين فيقول: «... وكان ضيوفه الأكثرية من صفوة الجبل، وأُسوده، ووجهائه، وأعيانه، وكان يضيق بالرايات، ويضج بالهتافات... وكأن عاملة نشرت فيه ببعث جديد...»، مشيراً إلى مجد جبل عامل وتاريخه الذي يجب التواصل معه^(١٠٤)... ويتابع السيد فيقول: «وأقبلنا والجمع كامل مستتب، فما أشرفنا على الجمع حتى جلجل الوادي وجرجر صداه، وانطلقت الحناجر والأكف والبنادق، تمدّ الصدى بموجات إثر موجات، تتجلجل في عنق الجبل، ثم تنطلق في الفضاء»^(١٠٥).

افتتح المؤتمر الإمام شرف الدين، مستهلاً حديثه عن حادثة وقعت في صور قبل أيام - ١٨ نيسان - كادت تؤدي إلى كارثة^(١٠٦)، .. ويعتقد الكثيرون أنها كانت مدبرة بمعرفة حاكم صور الفرنسي أو بعض رجاله... ثم ألقى خطاباً مطولاً ومرتبلاً منه: (.. إننا اليوم في هذا المفترق الخطير، أشد حاجة من أي وقت إلى الاعتصام بحبلهم والسير على نهجهم - إشارة إلى أهل البيت عليه السلام - فأما عزة لا تُفصم، أو ذلة لا تُرحم... أما الاستقلال دون وصاية، أو استعباد نكون معه (كالأيتام على مأدبة اللئام).

أيها الفرسان المناجيد! إن لهذا المؤتمر ما بعده، وسيطبق نبأ الآفاق السورية، ويتجاوب صداه في الأقطار العربية، ويتجاوزها إلى عتبة الأمم... فانظروا ما أنتم اليوم فاعلون...

يا فتية الحمية المغاوير.. الدين النصيحة!.. ألا أدلكم على أمر إن فعلتموه انتصرتم: فوّتوا على الدخيل الغاصب - برياطة الجأش - فرصته، وأخمدوا - بالصبر الجيمل - فتنته، فإنه - والله - ما استعدى فريقاً على فريق إلا ليثير الفتنة الطائفية، ويشعل الحرب الأهلية.. ألا وإن النصارى إخوانكم في الله وفي الوطن وفي المصير.. ﴿وَلَنَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةَ لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ (١٠٧).

إخواني وأبنائي! إن هذا المؤتمر يرفض الحماية والوصاية، ويأبى إلا الاستقلال التام الناجز، المعتمر تاج (فيصل) العرب، عاهلاً مؤثلاً، وقائداً محجلاً... وهذا زعيم (عامل) وبدره (الكامل) قد أهدف للجهاد معكم عزمه، وحشد لبلوغ الغاية عدته، فاركبوا معه كل صعب وذلول... وما التوفيق إلا بالله» (١٠٨).

بهذا أنهى السيد خطابه، وكان أثره في النفوس واضطرامها حقداً وكرهاً لهذه السياسة المتبعة من السلطة الفرنسية كبيراً عظيماً (١٠٩).
«وأنحزنا - يقول الإمام - بعد تحية الجماهير إلى صف العلماء والزعماء نداولهم الرأي، ونبادلهم المشورة» (١١٠)، أما الشيخ أحمد رضا فقد عرض لرأي كامل بك للأوضاع وللموقف من الثورة، واقتراحه لتشكيل وفد إلى الشام ليفاوض جلالة الملك فيصل... بعد المداولة قرر القوم صوابية الرأي.. وانتخبوا له العلامة كبير العلماء الشرعيين الشيخ حسين مغنية الذي اعتذر، فانتخب المؤتمر العلامتان السيد عبدالحسين شرف الدين والسيد عبدالحسين نور الدين لهذه المهمة، وفي دمشق يجتمعان بعلامة الشيعة الأكبر السيد محسن الأمين (١١١).

انفض المؤتمر عن مقررات على المستويات كافة:

• على الصعيد المحلي - في جبل عامل - تقرر أن يكون هذا الجبل

مستقلاً استقلالاً داخلياً ضمن الوحدة السورية، ونظموا بذلك محضراً وقعه المؤتمرين وسلموه إلى الوفد. وتقرر بالإجماع العناية التامة بحفظ الأمن في جميع أنحاء الجبل، لجميع أبناءه من مسلمين ومسيحيين^(١١٢). واستدعي الشيخ صادق الحمزة - زعيم الثوار - ... وجلس أمام العلماء والقرآن بين أيديهم، فأخذوا عليه وعلى رجاله الأيمان المغلظة، أن لا يتعرض لأحد من المواطنين أبناء جبل عامل مسلمين كانوا أم مسيحيين بسوء وأذية، فأقسم بذلك مستثنياً من كان منهم ألباً للفرنسيين على الوطن واستقلاله.. من أي مذهب كان؛ لأن جهادنا سياسي لا ديني^(١١٣).

• أما على الصعيد الإقليمي - في سورية - تقرر تأييد مقررات المؤتمر السوري.. وإعلان الاستقلال وملكية فيصل، وتقديم التهنئة له باسم المؤتمرين^(١١٤).

طار الوفد إلى الملك فيصل، واجتمع أعضاؤه به بصحبة السيد محسن الأمين، وخطب الإمام شرف الدين خطبة ركز فيها على الوحدة ومبايعة الملك، ومتابعة الجهاد في سبيل الحرية^(١١٥).

ط - تداعيات مؤتمر وادي الحجير.. وخراب جبل عامل:

من الطبيعي أن تستاء فرنسا إزاء هذه المواقف المعبرة عن الوحدة والتماسك، وهي الساعية للسيطرة، فتطورت الأحداث أثناء غياب السيد شرف الدين في دمشق، وساءت الأحوال، فذّر الفرنسيون على الجرح ملحاً، وحركوا النعرة الطائفية وزودوها بالسلاح من جهة، وأظهروا عجزهم إزاء العصيان المدني الشامل الذي تحصن به العاملون من جهة أخرى. وكان غرضهم، أي الفرنسيين، من ذلك - كما يقول السيد - ما كنا نخشاه من سوء المنقلب، وإظهارنا أمام الدول مظهر من لا يستطيع إدارة نفسه إدارة مستقلة.

وقد اغترّ المسلحون بحصانة موقعهم وبقوة أسلحتهم، فابتدروا من مكانهم منصليتين بالعداوة والمجاهرة بالاعتداء^(١١٦) ... قابلها الفتيان العاملون بالاستياء والحفيظة^(١١٧) ... فحدثت بسبب ذلك فتنة (عين إبل)^(١١٨)، إنجلت عن مئة قتيل ونيف من أهل تلك البلدة، إلى ذلك يقول السيد شرف الدين: «كان استيائنا بهذه الكارثة عظيماً، أزعجنا منظرها الفوضوي البربري، وبقسوتها التي لا تبيحها شريعة، وأزعجنا بأنها أساءت إلى خطتنا التي أعلنّاها في الحجير من المحافظة على الأمن، والمبالغة في تأمين النصارى وسائر الأقليات، وهذه هي خطة فيصل. وقد كانت هذه الكارثة من العراقيل التي عاقتنا عن الوصول إلى غايتنا من الاستقلال والتحرر، فالأسف يتأوبنا في خواطرنا»^(١١٩).

ومرة أخرى أيضاً يتحدث السيد عن فشل مساعيه في حل الأزمة التي وقعت فيها البلاد، حيث يشير إلى الفرنسيين وأعاونهم من وراء ذلك فيقول: «وشاء ذيول الفرنسيين من منافقي الأفندية والمتزعمين أن يستغلوا هذا الحدث أسوأ استغلال، فنسبوا إلينا فتوى بجهاد النصارى، وقالوا: إنها كانت في مؤتمر الحجير...»^(١٢٠). وهذه التهمة التي ييطلها ويكذبها كل الذين حضروا المؤتمر ومنهم الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر وغيرهم^(١٢١) ... لكن الدعاية هذه استخدمها الفرنسيون بالفعل ليس إلا في مصلحة بسط نفوذهم وهذا ما حصل.

إذن، نجحت الخطة الفرنسية بأن تكتسب موقفاً مهّداً لها القيام بحملة عسكرية كبيرة على جبل عامل للسيطرة عليه، والقضاء على الحركة الوطنية والتحررية فيه بحجة الانتقام لمسيحيي المنطقة وحمائهم، وفي ١٨ أيار ١٩٢٠ جرّدت الحملة بحوالي أربعة آلاف جندي عدا المتطوعة (من المسيحيين)^(١٢٢).

لم تلقَ هذه الحملة أية مقاومة، وذلك بتوصية من كامل بك الأسعد بعدم المواجهة، سوى جيوب لم تؤثر على زحف الحملة التي استمرت سبعة عشر يوماً، حتى ٣ حزيران، استعملت فيها كافة أنواع الأسلحة بما فيها الطيران، أسفرت عن العديد من الضحايا، وحرقت قرى بأكملها، وتهجير الأهالي، وإحلال الرعب بين كافة مواطني جبل عامل الشيعة^(١٢٣).

ي - المطاردة والنفي والظلم:

اعتبر السيد عبدالحسين شرف الدين أو (السيد الكبير) أو (سيد المتأولة الكبير)، كما كانت تدعوه السلطات الفرنسية^(١٢٤)، من المحرضين وبالتالي من المطلوبين^(١٢٥). وكان السيد قد عاد إلى جبل عامل لتوه على حين غفلة في ٥ حزيران، أي بعد الحملة وسيطرة الفرنسيين، وما أن علموا بوصولهم حتى قامت فرقة كبيرة من الجيش بمحاصرة قريته شحور، إلا أنه وبغاية إلهية تخلص منها وفر إلى مغارة كان قد اختبأ فيها جده «السيد صالح في محنة الجزار»^(١٢٦). ثم تابع مسيره إلى دمشق، حيث استقبل بالحفاوة والاحترام^(١٢٧).

إلى ذلك يتألم السيد فيقول: «وعاملة - ويحي لها - تنوء تحت ضربة بكر، وتلفظ أبناءها هنا وهناك من الخشية والذعر. أعلنت فيها الأحكام العرفية، فحكم عليّ بالنفي المؤبد ومصادرة ما أملك، واحتلوا دارنا في صور بعد أن صيح نهياً في حجراتها، فعضمت المصيبة، وحلّت الرزية بنهب المكتبة الحافلة بكتبها القيمة، وفيها نفائس الكتب المخطوطة ما لا يكاد يوجد في غيرها، وكان لي فيها كتب استفرغت في تأليفها زهرة حياتي، وأشرف أوقاتي، فإننا لله وإننا إليه راجعون»^(١٢٨). وبهذا حكم على العلامة السيد عبدالحسين نور الدين وعلى الأحرار من زعماء البلاد وفي مقدمتهم كبيرهم كامل بك الأسعد. أما فتیان الثورة فقد حكموا

بالإعدام، وأنفذ هذا الحكم الفاشم في كل من ظفرت به - السلطات الفرنسية - منهم» (١٢٩).

ليس هذا فحسب، بل عمل قائد الحملة على جمع وجوه الطائفة الشيعية في الطيبة - بلدة كامل بك الأسعد - ... وطالبهم بمطالب عجوزا عن تلبيتها، فضرب لهم موعداً في ٥ حزيران في دار الأسقفية الكاثوليكية في صيدا بحضور وجوه من مسيحيي صيدا وصور ومرجعيون، ووجوه من المسلمين السنة، إضافة إلى الوفد العاملي الكبير من علماء وزعماء ووجهاء...

ترأس الاجتماع قائد الحملة العسكرية (نيجر) الذي خطب خطاباً شديد اللهجة على الشيعة، وقرع أعضاء الوفد العاملي وأهانهم، وطلب منهم طلبين: الأول دفع مئة ألف ليرة عثمانية ذهبية تجبى من القرى العاملية الشيعية، والثاني التصديق على ما أصدرته السلطة العسكرية من أحكامها المختلفة من إعدام وإبعاد ومصادرات على رؤساء الثوار وبعض العلماء والزعماء والوجهاء... لكن الوفد رفض كل هذا التصرف، وبقي الوفد العاملي في أخذ ورد في التوقيع أو عدمه حتى السادسة والنصف مساءً، وأخيراً تم التوقيع بعد أن هددهم (نيجر) بالإبعاد حيث تنتظرهم الباخرة في عرض البحر.. تم توقيع العريضة تحت التهديد والوعيد إلا الشيخ حسين مغنية كبير علماء جبل عامل حيث وقّع عنه إسماعيل الخليل حسماً للنزاع (١٣٠).

لم تستكن الثورة والمقاومة، بل اشتدت بعد كل ما جرى، وبعدما رأى الثوار أن الفرنسيين عازمون على المضي بإخضاع وإذلال العاملين، وكثرت المناوشات والاضطرابات، وأصبح جبل عامل بين نارين: نار الثورة، ونار العسكر الفرنسي يؤازره عصابات تعمل بوحى منهم (١٣١) ... إضافة إلى

فرق فوضها حاكم صيدا العسكري بجمع الضريبة التي حصلت نصف مليون ليرة ذهبية عثمانية، فوق ما سُلِب من البلاد والخسائر في الأرواح والأموال بما لا يقل عن مليوني ليرة ذهبية في ذلك التاريخ، فرضت على فلاحي جبل عامل المساكين الذين كانوا لا يتجاوزون الثمانين ألفاً^(١٣٢) ١٩...

يقول السيد شرف الدين: «هكذا قدر لهذا الجبل أن يخفق، بل كان إخفاقه سبباً في إخفاق القضية السورية؛ لأنه كان المرحلة التجريبية التي جرأت فرنسا بعدئذٍ على سورية نفسها، ولو أن النفر الخوآن في عاملة استقام للأمر، وظاهر المخلصين من الناهضين، لثبت شيئاً من الثبات، ولكان درساً لأمثاله في سورية الذين كانوا وبالأعلى على قضيتنا المشتركة»^(١٣٣).

هكذا تكلم الإمام شرف الدين مُخفق الآمال^(١٣٤)، لكن الدرس سيدي قد تعلمناه، وها هو الحاضر وكأنه الماضي، ولكننا يا سيدي هذه المرة قد ثبتنا لها، وكان النصر حليفنا، ودحرنا العدو، وغداً جبل عامل منارة للأحرار في العالم، فتم قرير العين.

ك - ميسلون وسقوط دمشق:

وبالفعول وبعد شهر من إعلان الحملة على جبل عامل، كان الزحف العسكري الفرنسي إلى دمشق، باعتبارها عاصمة البلاد، والوحدة التي كان قد لجأ إليها السيد شرف الدين. والتحمت هذه الحملة مع الجيش العربي بقيادة يوسف بك العظمة، الذي سقط شهيداً بعد مواجهة كانت معروفة النتائج؛ لعدم التوازن في حجم القوى ونوع أسلحتها. وسقطت دمشق أيضاً تتخبط بدمائها قتلاً وتكيباً وتـميراً^(١٣٥).

فخرج منها الملك فيصل إلى فلسطين.. وكذلك السيد شرف الدين

غادرها إلى حيفا، ثم إلى مصر، حيث التقى فيها بقائد الجيوش الإنكليزية (النبّي)، الذي حاول أن يساعد السيد في السفر إلى أمريكا لطرح القضية هناك، ولم يتم السفر حيث يقول السيد: «لكن ظروفًا سياسية وأخرى شخصية قعدت بنا عن الإبحار إلى واشنطن...» (١٣٦).

لكن السيد آثر الاقتراب من الوطن، فعاد إلى فلسطين، وتحديداً إلى قرية (علما) على الحدود مع جبل عامل من جهة؛ ولأنها محاطة بقرى فيها المشردين من أبطال الحركة العاملة... فكان كامل الأسعد في (الجاعونة)، والسيد عبدالحسين نور الدين في (الريحان)، وآل بزي في (الريحان ورأس الأحمر)...» (١٣٧).

ل - العودة إلى جبل عامل:

ثم عاد السيد شرف الدين إلى جبل عامل بعد وساطة من خاله السيد محمد حسين الصدر - الفار من حكم الإنكليز بالإعدام في العراق - مع الفرنسيين، الذين أصدروا العفو عنه (١٣٨)، ثم قام السيد بمسعاها لإعادة كامل بك الأسعد، وكان له ذلك (١٣٩).

في هذه المرحلة تغيرت الأمور والأحوال، وأظهرت لابل تبنت السلطات الفرنسية زعامات جديدة قريبة منها، وأبعدت الزعامة التاريخية المتمثلة بكامل بك الأسعد (١٤٠)...

وتقرب السيد من الفرنسيين محاوراً، منطوياً على جرح الحلم في الوحدة التي كانت تراوده (١٤١)، ولكنه عاد هذه المرة إلى الوحدة الإسلامية، تواصل مع مشروعه الذي أطلقه في بداية النهضة، وهذا ما جسده في حضوره إلى المسجد العمري الكبير في بيروت، مشاركاً في الاحتفال بعيد المولد النبوي الشريف عام ١٣٤٠هـ / ١٩٢١م، ويقوم فيه خطيباً متحدثاً عن اجتماع ووحدة الأمة الإسلامية «وتوحيد أهدافها،

بجميع مذاهبها... في بنیان مرصوص... وجسم واحد، إذا شكamنه عضو أنت له سائر الأعضاء، حتى ليكون المسلم في المشرق، هو نفسه في المغرب... فلا تقولوا بعد اليوم: هذا شيعي، وهذا سني، بل قولوا: هذا مسلم. فالشيعة والسنة فرقتهما السياسة، وتجمعهما السياسية أما الإسلام فلم يفرق ولم يمزق...» (١٤٢).

ونلاحظ حجه الشهير في العام ١٣٤٠هـ / ١٩٢٢م، حيث كان أول شيعي يؤم المصلين في الحرم المكي (١٤٣) ... وبعدها انطلق في رحلة زار فيها الأماكن المقدسة في كل من العراق وإيران، وكانت له فيها مداولات وحضور ورأي ينم عن شخصية علمية أخذت موقعها في الساحة الإسلامية (١٤٤).

أما في الاجتماع السياسي فقد أصبح جبل عامل مندرجاً في الكيان السياسي الجديد (لبنان الكبير)، الذي أعلنه الجنرال الفرنسي (غورو) في ٢١ آب ١٩٢٠م، أي بعد عودة السيد بأشهر، وكأن حلم الوحدة قد غيّبت شمسها سياسة التجزئة الاستعمارية... وانسجم السيد مع هذا الواقع دون التسليم به، لكن الثورة بقيت مستمرة، وأعمالها بقيت إلى أن خفت تدريجياً مع إحكام الفرنسيين والإنكليز قبضتهم على المنطقة العربية كلها، وقد توقفت نهائياً مع آخر إنجازاتها يوم الخميس ٢٣ حزيران ١٩٢١م، حين أقدم الشهيد المجاهد أدهم خنجر العامل - أحد قادة الثورة المحكوم عليه بالإعدام غيابياً - على نصب كمين للجنرال (غورو) في منطقة القنيطرة السورية فقتل أحد الضباط المرافقين له وأصيب (غورو)، وفر أدهم والتجأ إلى دار سلطان باشا الأطرش، حيث وشي عنه، فداهم الجيش الفرنسي المكان واعتقل أدهم خنجر، وأعدم في بيروت رمياً بالرصاص، وثارت ثائرة الدروز بقيادة الأطرش عندما طالب بإعادة أدهم

من الفرنسيين ولم يلبوا^(١٤٥).

بقي السيد شرف الدين في جبل عامل بعد هذه الفترة يخوض في ميدان السياسة المحلية، فيخفق حيناً وينجح أحياناً أخرى، والسبب الدخول الغربي إلى المنطقة والذي أحدث تغيرات كبيرة وجذرية فيها، إن كان على مستوى مناهج التعليم، وهي التي تنبّه إليها سماحته منذ البداية..، أو طرائق الإنتاج الاقتصادي، والأهم الثقافى والفكرى، وإن لجهة الفكر القومي أو الاشتراكي أو اللبرالي أو الشيوعي وغيره^(١٤٦).

أما الملاحظة البارزة في هذا الصدد هي أن هذا التغيير الكبير قد دخل حتى إلى البيوتات الدينية (العلمائية) في جبل عامل؛ ليؤثر بالتالي على الطابع الثقافى الذي طبع فيه علماء جبل عامل هذا الجبل بطابعهم العقائدي^(١٤٧)... فكان على الإمام شرف الدين وأترابه أن يتصدى لهذا التغيير بالوسائل المتاحة لديه: تأليفاً وكتابةً، والنصح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكانت له رسائل إلى:

- الحلفاء في الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤١م، طالباً منهم أن يكونوا حلفاء اليوم، غير حلفاء الأمس، مجدداً حلمه القديم في إصراره على المطالبة باستقلال سورية بحدودها الطبيعية، وإعادة ما اقتطع منها وخصوصاً فلسطين التي هي من سورية بمنزلة العينين من الوجه، ومن العرب بمنزلة القلب من الجسد... والرفض حتى الموت لوعده بلفور^(١٤٨).

- إلى ملك بريطانيا في نفس العام وبنفس الموضوع^(١٤٩).

- إلى أحمد الأسعد - مجدد الزعامة التاريخية لجبل عامل - تتضمن مطالب جبل عامل في لبنان الدولة، وكأن الرسالة هي برنامج عمل ينصحه فيه لإنهاض البلاد العاملية من الفقر والحرمان الذي أصيبت فيه^(١٥٠).

- إلى المسلمين والعرب بمناسبة عاشوراء العام ١٩٤٧م، يحذرهم فيه

من قتل فلسطين بقوله: «ألا وإن قَتَلْتُمُ الْحُسَيْنَ ﷺ بَكَرَ فِي الْقَتْلَاتِ، فَلَتَكُنْ قَدُوتًا بِهِ بَكَراً فِي الْقَدُوتِ، وَلَنَكُنْ نَحْنُ مِنْ فَلسْطِينَ مَكَانَ الْحُسَيْنِ ﷺ مِنْ قَضِيَّتِهِ؛ لِيَكُونَ لَنَا وَلِفَلَسْطِينَ مَا كَانَ لَهُ وَلِقَضِيَّتِهِ مِنْ حَيَاةٍ وَمَجْدٍ وَخُلُودٍ» (١٥١).

- وإلى الملك عبدالله في نيسان ١٩٤٨م، أي قبل كارثة فلسطين، يحذره فيها من ضياع فلسطين ويحمله المسؤولية.. وفي برقية له أيضاً بعد النكبة وأثناء انعقاد مؤتمر عمان في ١٥ أيار ١٩٤٨م (١٥٢).

- إلى رئيس الجمهورية اللبنانية بشارة الخوري حول المجزرة التي ارتكبها الصهاينة في قرية حولا الجنوبية عام ١٩٤٩م، وأخرى في نفس العام حول حملة عسكرية لبنانية على عشائر الهرمل (١٥٣).

- إلى شاه إيران عام ١٩٥٤م، ينصحه فيها بالحياة عن الحلف الثلاثي الذي تصنعه السياسة الاستعمارية بزعماء أميركا وحلفائها (١٥٤).

- إلى الملك فيصل الثاني عام ١٩٥٦، على أثر اعتداء السلطات العراقية على المقامات المقدسة وعلى الشعب، وفيها يطلب منه التمثل بجمال عبدالناصر (١٥٥).

- إلى وزير الأوقاف المصري عام ١٩٥٨م، في مسألة (التقريب بين المذاهب الإسلامية) (١٥٦).

حياة حافلة بالمواقف عاشها سماحة الإمام السيد عبدالحسين شرف الدين، إلا أنه واجه صعوبات وتحديات كبيرة ضاق بها صدره إلى حد أنه فكر في العام ١٩٤٤م في الهجرة إلى العراق والإقامة في النجف الأشرف.. فاجتمع علماء جبل عامل ليشووه عن ذلك، وكانت مداولات ونقاشات أدت إلى العزوف عن الهجرة هذه، وآثر البقاء في عاملة التي أحب طيلة عمره الشريف إلى أن وافته المنية (١٥٧) فجر يوم الإثنين ٨ جمادى الآخرة سنة

١٣٧٧ من الهجرة الشريفة، الموافق ٣٠ كانون الأول من عام ١٩٥٧
الميلادي (١٥٨).

نعم، بقي الإمام شرف الدين في جبل عامل، وبقي حاملاً إيماناً لا
يُزعزع لقضية الحرية والوحدة الإسلامية، التي شغلت باله وعقله وحركته
طيلة حياته، كونها كانت تشكل طموح مشروعه النهضوي، ولأنه كان
مؤمناً تمام الإيمان أنه بدون الوحدة الاجتماعية والسياسية لا قيادة للأمة
ولا حرية لها، فهو كان يمتلك مشروعاً نهضوياً في سبيلها منذ أن زرع بذوره
الأولى في صور، ثم أنبت الزرع غرساً كان عرضة لأشد العواصف، لكنه
لا زال يؤتي أكله إلى اليوم وفي كل حين.

إن تجربة الإمام شرف الدين وإن كانت قاسية؛ لأنها جرت في أصعب
مراحل التآمر على الأمة، فتصدى لها باكراً لوعيه وسعة بصيرته، والتي لا
زالت تداعياتها إلى اليوم، فهي بذلك تشكل نبراساً للأجيال للاقتداء بها،
وأن تراث الإمام شرف الدين العلمي والعملية هو اليوم من أهم ذخائر الأمة
نحو المستقبل الواعد بالوحدة والحرية.

* * *

الهوامش:

- (١) عن نهاية الدولة العثمانية ومؤامرات الغرب عليها راجع: إسماعيل سرهنك، تاريخ الدولة العثمانية، دار الفكر الحديث - بيروت ١٩٨٨.
- (٢) الإمام عبدالحسين شرف الدين، بغية الراغبين ٢: ١٥٠.
- (٣) عن تلك المرحلة راجع: أطروحتنا للدكتوراه، الدين والسياسة في جبل عامل: ٣٦٧ وما بعدها.
- (٤) عن المؤامرات التي حيكّت راجع:
- عادل إسماعيل، السياسة الدولية في الشرق العربي (١٩٦٠ - ١٩٩٠)، الجزأين الأول والثاني، دار النشر للسياسة والتاريخ - بيروت.
- ياسين سويد، مؤامرة الغرب على العرب، المركز العربي للأبحاث والتوثيق - بيروت ١٩٩٢.
- نجيب عازوري، بقضة الأمة العربية، ط. الثانية، المؤسسة العربية للدراسات - بيروت ١٩٩٨.
- (٥) لاحظ المؤتمرات التي شارك فيها العاملون حول هذا الموضوع في أطروحتنا: ٣٦٨، وهامش ص ٣٦٩ وص ٣٧٢.
- (٦) راجع:
- Jean Pierre: Luizard: la formation de l' Irak contemporains, la role politique des Ulemas Chiites a la fin de la domination Ottomane et au moment de la creation de l'etat Irakien, CNRS, paris ١٩٩١.
- وأيضاً: عبدالله النفيسي، دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث: ٨٤ - ٩١، دار النهار - بيروت ١٩٨٦.
- (٧) الشيخ سليمان ظاهر، جبل عامل في الحرب الكونية الأولى: ٥٤، دار المطبوعات الشرقية - بيروت ١٩٨٦؛ ولاحظ: أطروحتنا للدكتوراه، هامش ص ٣٧٠.
- (٨) جرى الانقلاب على يد جمعية الاتحاد والترقي (تركيا الفتاة) عام ١٩٠٩، وكان صدى هذا الانقلاب بمثابة تسهم للحرية الحقيقية، وقد عمّ الابتهاج جميع بلاد الدولة العثمانية؛ لأنّ الناس كانوا قبل ذلك بمدة بسيطة قد ابتهجوا للدستور العثماني... فكان رجوع الصدى في جبل عامل أن أسسوا فرعاً لهذه الجمعية في النبطية. راجع:
- محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل: ١٨٢، ط. الثانية، دار النهار - بيروت ١٩٨١.
- الافتتاحية للعدد الأول من مجلة العرفان لعام ١٩٠٩.

(٩) عن مدرسة الشهيد الأول ومشروعه، راجع: يوسف طباجة، الشهيد الأول ومشروع القيادة الدينية والسياسية، مجلة العرفان، المجلد ٨٠، بيروت ١٩٩٦. حيث يتضح أن القيادة الدينية هي بمثابة السلطة التشريعية، وإن تراجعت للزعامة السياسية في جبل عامل إلا أن كلمة الفصل بقيت لها.

(١٠) زين نور الدين زين، نشوء القومية العربية: ١١٠ ط. الرابعة، دار النهار. بيروت ١٩٨٦.

(١١) مسعود ظاهر، جبل عامل في إطار التجزئة الاستعمارية للمشرق العربي، ضمن صفحات من تاريخ جبل عامل: ١٠٧، المجلس الثقافي للبنان الجنوبي. بيروت ١٩٧٩.

(١٢) لاحظ متابعة العاملين لمؤتمر باريس عام ١٩١٣.

(١٣) عن موقف علماء النجف لاحظ:

- عبد الله النفيسي، دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث، مصدر سابق.

- محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل: ١٩٦.

(١٤) وجيه كوثراني، وثائق المؤتمر العربي الأول (١٩١٣): ١٦٢ - ١٦٣، دار الحداثة - بيروت ١٩٨٠.

(١٥) إتهامات جمال باشا للعرب بعد هزيمته في قنّة السويس، راجع حول إعدام عبدالكريم الخليل الذي قاد التحرك العربي في جبل عامل، أطروحتنا للدكتوراه: ٣٧٠.

(١٦) عادل إسماعيل، السياسة الدولية في الشرق العربي، مصدر سابق ٤: ١٨٠ - ١٨٤.

(١٧) بدأت السيطرة العثمانية منذ العام ١٥١٦م حتى سنة ١٩١٨م.

(١٨) زين نور الدين، نشوء القومية العربية، مصدر سابق: ١٤٣.

(١٩) الإمام شرف الدين، بغية الراغبين ٢: ٩٠ و ١٠٤؛ ومقدمة النص والاجتهاد للسيد محمد صادق الصدر: ١١.

(٢٠) بغية الراغبين ٢: ١٠٦.

(٢١) تعتبر الأمور الحسبية في الإسلام كأمور الحكومة اليوم، عن الحسبة راجع:

الشيخ محسن كديور، نظريات الدولة في الفقه الشيعي: ٤٤ ترجمة: الشيخ محمد شقير، دار الهادي - بيروت ٢٠٠٤.

- توفيق السيف، نظريات السلطة في الفقه الشيعي: ١٧٢، المركز الثقافي العربي - بيروت ٢٠٠٢.

- في التراث الاقتصادي الإسلامي، ثلاثة كتب عن الحسبة: القرشي، وابن بسام، وابن تيمية، دار الحداثة - بيروت ١٩٩٠.

- (٢٢) بغية الراغبين ٢: ١١٢.
- (٢٣) المصدر السابق: ١١٣.
- (٢٤) عن الزعامة السياسية في عهد الدولة العثمانية، راجع دراستنا للدبلوم؛ وراجع أيضاً:
- يوسف طباجة: الزعامة السياسية والموروث الإقطاعي، مجلة الفكر العربي: ٢٢٠، العدد ٩٥، بيروت ١٩٩٩.
- (٢٥) بغية الراغبين ٢: ١١٤.
- (٢٦) وهذه دلالة على مدى القمع الذي كان لاحقاً بأهل صور وجبل عامل إبان الحكم العثماني، وسياسة التفرقة المذهبية، وهو الشأن الذي أخذ حيزاً مهماً في عمل ونشاط إمامنا العلامة شرف الدين، كما سنلاحظ في هذه الدراسة، إلى ذلك يوضح العلامة السيد عبد الله شرف الدين نجل الإمام شرف الدين، وهو محقق بغية الراغبين، أنه: لم يكن في صور سوى مسجد واحد للشيعة بناء الزعماء الوائليين، وله أوقاف، لكن الحكومة العثمانية ضمته إلى إدارة الأوقاف وأقصت عنه الشيعة، لاحظ هامش صفحة (١١٤ - ١١٥) من المصدر السابق.
- (٢٧) المصدر السابق: ١١٥.
- (٢٨) المصدر السابق نفسه.
- (٢٩) المصدر السابق نفسه.
- (٣٠) المصدر السابق: ١١٦.
- (٣١) المصدر السابق نفسه، أنظر التفاصيل ومنها: أنه شُرع بعبادة الله تعالى فيها يوم الغدير سنة ١٢٢٦هـ، أي بعد عام فقط من نزوله إلى صور، ورغم الصعاب والممانعات.
- (٣٢) بالطبع؛ لأن المسجد وبناء المسجد هو الركيزة كما ذكرنا، وهو سنة الرسول ﷺ، عندما أتى المدينة، وهو بالتالي أساس المشروع النهضوي عند علامتنا الإمام شرف الدين.
- (٣٣) إستعارة من خطبة الإمام عليّ عليه السلام الشهيرة والمعروفة بـ (الشقشقية).
- (٣٤) إن لهذه المراسلة دلالة على الانفتاح العام على العمل السياسي في سبيل المشروع، وهنا أود التذكير بسفر الشهيد الثاني إلى الآستانة واتصاله بالسلطان سليمان القانوني راجع أطروحتنا للدكتوراه.
- (٣٥) سنتحدث عن دور السيد في الحرب في فصل خاص من هذه الدراسة.
- (٣٦) يود السيد هنا أن يخبرنا أن المتربصين به ويمشروعه هم أنفسهم، ولو تبادرت السلطة: (فهم مع كل ناعق) لأجل الدنيا، وهنا ميزة مشروع الإمام شرف الدين النهضوي الهادف..

- (٣٧) بغية الراغبين ٢: ١١٨.
- (٣٨) نشير هنا إلى أن الإمام شرف الدين قد أقام صلاة الجمعة في هذا المسجد الذي كان يقصده: «في كل جمعة.. من أهل القرى العاملة». ثم يسأل السيد: «كم للمنبر من أثر ذي خطر: عظم وقعه، وعمّ نفعه!» بغية الراغبين ٢: ١١٩.
- (٣٩) سورة الأنبياء: ٩٦.
- (٤٠) عن تلك المرحلة راجع رسالتنا للدبلوم: ١٢٩، الجامعة اللبنانية، عام ١٩٨٧.
- (٤١) بغية الراغبين ٢: ١٢٢. وحول الموضوع راجع: مصطفى بزي، تطور التعليم والثقافة في جبل عامل. لبنان ١٩٩٥.
- (٤٢) بغية الراغبين ٢: ١٢٢ ولاحظ تعاون (أهل الإخلاص والحفيظة) من أهل صور، وأهل القرى المجاورة لصور، هامش (٢) ص ١٢٣ من بغية الراغبين.
- (٤٣) إشارة إلى ما فعله الاحتلال الفرنسي بالعلامة شرف الدين وأهل جبل عامل. راجع: أطروحتنا للدكتوراه: ٤٠٨.
- (٤٤) بغية الراغبين ٢: ١٢٣.
- (٤٥) المصدر السابق نفسه.
- (٤٦) سورة التوبة: ٧٤.
- (٤٧) بغية الراغبين ٢: ١٢٤. والملاحظة الجديرة بالذكر أن الأحكام جاءت بوقف العقار على الطائفة الشيعية في محكمة صور الشرعية.. التي لم تكن موجودة أيام الحكم العثماني. لاحظ كيف تأسست فيما بعد، وحذر العلامة شرف الدين ومن معه من العلماء. أنظر مجلة العرفان: المجلد ٩، ج ٥: ٣٦٣، وكذلك المجلد ١١، ج ٦: ٦٦٩.
- (٤٨) مصطلح (العرمان)، هو الذي استخدمه ابن خلدون في مقدمته، وهو المصطلح الذي استخدمه الإمام شرف الدين كمرادف لمصطلح (علم الاجتماع) ترجمة للمصطلح الغربي "Sociologie". ونقول: لو أن العرب والمسلمين يتخدمون هذا المصطلح لهو أفضل وأرقى وأدلّ مما في مصطلح علم الاجتماع.
- (٤٩) الإمام شرف الدين، الفصول المهمة: مقدمة المؤلف، مطبعة العرفان، صيدا ١٣٣٠هـ. الجدير ذكره هنا أن الإمام قد أنهى كتابه هذا في العام ١٣٢٧هـ، ومعنى ذلك أنه شرع في تأليفه في نفس المرحلة التي نزل بها إلى صور وبدأ العمل فيها.

- (٥٠) بغية الراغبين ٢: ١٩٩.
- (٥١) عن العلماء الذين استجازهم الإمام شرف الدين راجع المصدر السابق: ٢٠١.
- (٥٢) المصدر السابق نفسه، وقد عاد السيد من مصر في جمادى الأولى ١٣٣٠هـ، وبذلك يكون قد مكث فيها أكثر من خمسة أشهر، ولعل هذه الزيارة هي التي مهدت إلى إصدار الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر وثيقة اعترافه بالمذهب الشيعي.. راجع: مجلة الشراع: ٢٨، العدد ١١٩.
- (٥٣) عن فواجع الحرب وتعسف قائد الجيش التركي في سورية جمال باشا، راجع: الشيخ سليمان ظاهر، جبل عامل في الحرب الكونية الأولى، مصدر سابق: ٣٨ - ٤٨.
- (٥٤) بغية الراغبين ٢: ١٤١.
- (٥٥) جبل عامل في الحرب الكونية الأولى، مصدر سابق: ٣٨.
- (٥٦) بغية الراغبين ٢: ١٤١.
- (٥٧) المصدر السابق: ١٤٣.
- (٥٨) جبل عامل في الحرب الكونية الأولى: ٣٨.
- (٥٩) المصدر السابق نفسه: والإمام شرف الدين، بغية الراغبين ٢: ١٤٠؛ وآل صفا، تاريخ جبل عامل، مصدر سابق ١٩٦: وأطروحتنا للدكتوراه: ٣٦٢ وما بعدها.
- (٦٠) جبل عامل في الحرب الكونية الأولى: ٤٣، وفيه تلاحظ شتى أنواع العذاب والبلايا، وهو ما قد شاهدها بعينه.
- (٦١) بغية الراغبين ٢: ١٤٣.
- (٦٢) المصدر السابق: ١٤٣ - ١٤٥. ولاحظ أسماء من وفق الله الإمام شرف الدين لتخليصهم ممن نُصب لهم المشانق، ومنهم مثلاً الشيخ عبد مروة من حاريص.
- (٦٣) عادل إسماعيل، السياسة الدولية في الشرق العربي، مصدر سابق: ١٩١ الفصل الثالث.
- (٦٤) المصدر السابق: ١٩٢. ولاحظ في نفس الصفحة إزدواجية السياسة البريطانية تجاه كل من حليفها فرنسا من جهة، والشريف حسين من جهة ثانية. وكذلك مفاوضاتها للحركة الصهيونية التي كان مركز قرارها في بريطانيا آنذاك. حول الموضوع راجع: يوسف طباجة، حدود لبنان الجنوبية: ٧١ مجلس النواب اللبناني - بيروت ٢٠٠٠.
- (٦٥) راجع حول مساهمة الشباب العرب المتطوعين في حربهم ضد الأتراك في معركة (غزة) التي سقط فيها للبريطانيين ستة آلاف قتيل، فطلبت بريطانيا من الشريف حسين العون، وكان لهم

- حين استجاب وطلب من الزعماء وفي كافة أنحاء سورية مطاردة الأتراك: عادل إسماعيل، السياسة الدولية في الشرق العربي، مصدر سابق: ٢١٦.
- (٦٦) جبل عامل في الحرب الكونية الأولى: ٥٦؛ تاريخ جبل عامل، مصدر سابق: ٢٢٢.
- (٦٧) في ١٨ تشرين الأول ١٩١٨ زار وفد عاملي على رأسه كبار العلماء ورجال الدين دمشق لتهنئة الملك فيصل، أنظر: منذر جابر، مؤتمر وادي الحجير: ١٢.
- (٦٨) بغية الراغبين ٢: ١٤٧.
- (٦٩) إسماعيل سرهنك، تاريخ الدولة العثمانية، مصدر سابق: ٢٤٩. وعن إعلان الحكومة العربية في النبطية وحلها من قبل الفرنسيين، راجع: آل صفا، تاريخ جبل عامل، مصدر سابق: ٢٣٤.
- (٧٠) زين نور الدين، الصراع الدولي: ٨٥.
- (٧١) يوسف طباجة، حدود لبنان الجنوبية: ٧١.
- (٧٢) بغية الراغبين ٢: ١٤٧.
- (٧٣) إن استخدام هذا المصطلح (الأمة العاملة)، هو دلالة على تراجع أفق المطالبة بـ (الأمة العربية)، ومن قبلها (الأمة الإسلامية).. لكن سنلاحظ أن السيد بقي يعمل في إطار أفق الأمة الإسلامية، كما سيتبين لنا من خلال اتصاله بعلماء الأزهر مثلاً.
- (٧٤) بغية الراغبين ٢: ١٤٧.
- (٧٥) الصراع الدولي، مصدر سابق: ٨٩.
- (٧٦) منذر جابر، مؤتمر وادي الحجير: ١٣.
- (٧٧) بغية الراغبين ٢: ١٤٩.
- (٧٨) المصدر السابق: ١٥٠، إلى ذلك لاحظ رسالة السيد عبدالحسين شرف الدين إلى الأمير فيصل جواباً على رسالة هنأه فيها بنجاحاته من محاولة الاغتيال التي دبرها له الفرنسيون؛ بغية الراغبين ٢: ٤٦٨.
- (٧٩) يوسف طباجة، حدود لبنان الجنوبية: ٧١ - ٧٢.
- (٨٠) نص الاتفاق في: عادل إسماعيل، السياسة الدولية في الشرق العربي، مصدر سابق ٥: ٢٥٩ مستند رقم (١)، نقلاً عن:

J. Harasin. La Palestine et les Etas Unis Arabs, Paris ١٩٣٩.

وكذلك راجع: زين نور الدين، الصراع الدولي: ٩٩ (حول اجتماعات فيصل في العقبة ومعان).

(٨١) حدود لبنان الجنوبية: ٧٣.

(٨٢) بقى أعضاء الحكومات العربية يعملون في موازاة النظام الذي وضعه الفرنسيون، ومنهم السيد عبدالحسين شرف الدين في صور، والشيخ سليمان ظاهر في النبطية، حول الموضوع راجع:

- صابرنا ميرفان، حركة الإصلاح الشيعي: ٤١٢، دار النهار - بيروت ٢٠٠٣. إستناداً لوثاق الخارجية الفرنسية.

(٨٣) في إطار ذلك يقول محمد جابر آل صفا، مصدر سابق: ٢٢٥: «استاء الناس واشتد سخطهم لانفراد الحكام الفرنسيين بإدارة البلاد... وأصبح الناس ذات يوم في النبطية، وإذا بعشرات الإعلانات والمناشير الثورية ألصقت على جدران الأسواق، والمعابد، وسرايا الحكومة، ومقر الجند، وعلى باب غرفة الحاكم، ومآلها حض الناس على مقاومة الفرنسيين المحتلين، وطردهم من ربوع جبل عامل، ورفع الراية العربية... فتألفت عصابات ثورية في داخل جبل عامل لمقاومة موظفي الحكومة الفرنسية، ومنع الأهالي من دفع الضرائب، فسادت الفوضى واختل الأمن، وتعطلت المصالح...»

(٨٤) بغية الراغبين ٢: ٤٣٧.

(٨٥) المصدر السابق: ١٤٨.

(٨٦) يوسف طباجة، الزعامة السياسية والموروث الإقطاعي (رسالة دبلوم): ١١٢. وكان الإمام شرف الدين بتاريخ ٢٠ حزيران ١٩١٩ قد أرسل رسالة إلى الأمير فيصل يبايعه فيها على الجهاد في سبيل الاستقلال. راجع: بغية الراغبين ٢: ٤٦٧.

(٨٧) بغية الراغبين ٢: ١٤٩. يُذكر هنا أن لجنة الاستفتاء أوصت بالمحافظة على وحدة العراق، ووحدة سورية بما فيها فلسطين، ومنح لبنان حكماً ذاتياً في إطار الوحدة. وتوضع تحت الانتداب مدة محددة، وأن يكون نظام الحكم فيها ملكياً دستورياً، مرشحة الأمير لعرشها... وبضرورة كبح جماع (الصهيونية المتطرفة القاضي بإطلاق الهجرة اليهودية إلى فلسطين... وتجريد سكانها الحاليين من غير اليهود من أملاكهم بمختلف أساليب الشراء)، لكن فرنسا وبريطانيا استنكرتا التقرير. وأن (ولسن) تراجع عن مبادئ، وبالتالي عن تقرير لجنته لمصلحة

- الدولتين المنتدبتين والحركة الصهيونية. حول الموضوع راجع: عادل إسماعيل، السياسة الدولية في الشرق العربي، مصدر سابق ٥: ٣٥.
- (٨٨) بغية الراغبين ٢: ١٥١. وعن الفوضى ودور الفرنسيين في إثارتها وتغذيتها، راجع: - مذكرات الشيخ أحمد رضا، مجلة العرفان، المجلد ٣٣.
- منذر جابر، مؤتمر وادي الحجير: ١٦ - ٥٠.
- أطروحتنا للدكتوراه: ٣٦٨ وما بعدها. وعن تسلسل الأحداث الدولية والمحلية، راجع: زين نور الدين، الصراع الدولي: ١٤٣ وما بعدها، الفصل العاشر بعنوان (فيصل ملكاً على المملكة السورية المتحدة).
- (٨٩) أحمد وملحم، الشيخ سليمان ظاهر ضمن كتاب (وجوه ثقافية من الجنوب): ٥٧، المجلس الثقافي للبنان الجنوبي.
- (٩٠) لاحظ نص الكتاب الموجّه من الإمام شرف الدين إلى كامل بك الأسعد، الذي يبدو أنه انتحى جانباً في دمشق بعد لومه على مواقفه غير الثابتة من الوحدة العربية... بغية الراغبين ٢: ٤٦٧.
- (٩١) مرة جديدة أيضاً يغير السيد موقفه تمايلاً مع العاصفة، أو سباحة مع التيار إذا جاز التعبير، إحساساً منه بالمسؤولية وليس التراجع.
- (٩٢) الشيخ أحمد رضا، مذكرات، مجلة العرفان: ٢٥٣، المجلد ٣٣. وعن محاولة استمالة كامل الأسعد باكراً من قبل الفرنسيين، لاحظ تقرير قتل فرنسا في بيروت بتاريخ ١٤/١٠/١٩١٢ في:
- A. Ismail: Documents Diplomatiques et consulaires, T١٩, P.٨٣
- وأطروحتنا للدكتوراه: ٣٧٠.
- (٩٣) يوسف طباجة: الشهيد الأول، مجلة العرفان، المجلد ٨٠.
- (٩٤) الشيخ أحمد رضا، مذكرات، مجلة العرفان: ٢٥٧، المجلد ٣٣.
- (٩٥) المصدر السابق: ٤٧٠.
- (٩٦) صابرينا ميرفان، حركة الإصلاح الشيعي، مصدر سابق: ٤١٧ - ٤١٨. اعتماداً على وثائق الخارجية الفرنسية، حيث تقول بأن السلطات الفرنسية خصصت لكامل بك معاشاً.
- (٩٧) أحمد رضا، مذكرات، مصدر سابق: ٧٣٥ و ٨٥٨. وعن تكثيف لقاءات الفرنسيين مع العاملين، راجع: ٤٧٢ و ٨٥٣ من المذكرات؛ وكذلك الشيخ سليمان ظاهر، جيل عامل في الحرب

- الكونية الأولى: ٤٤.
- (٩٨) مذكرات أحمد رضا، مصدر سابق: ٨٥٦ و ٨٥٧.
- (٩٩) بغية الراغبين ٢: ١٥١.
- (١٠٠) زين نور الدين، نشوء القومية العربية، مصدر سابق: ١٤٩؛ وجبل عامل في الحرب الكونية الأولى: ٧٧.
- (١٠١) لاحظ تحرك العاملين عند: الشيخ أحمد رضا، مذكرات، مصدر سابق: ٧٢٣ وما بعدها.
- (١٠٢) المصدر السابق: ٩٨٨ (حضر المؤتمر).
- (١٠٣) الشيخ سليمان ظاهر، جبل عامل في الحرب الكونية الأولى: ٧٢ (حضر المؤتمر).
- (١٠٤) بغية الراغبين ٢: ١٥٣. لعله هنا يشير إلى الموقف من الوحدة تناسياً لما حصل من اتصال بالفرنسيين، الذي يبدو أنه فشل فشلاً ذريعاً، وأنه بالتالي كان مرحلياً...
- (١٠٥) المصدر السابق: ١٥٤.
- (١٠٦) أحمد رضا، مذكرات: ٩٨٨، وعن هذه الحادثة، راجع: جريدة البشير، ٢٩ نيسان ١٩٢٠، بيروت.
- (١٠٧) سورة المائدة: ٨٢.
- (١٠٨) بغية الراغبين ٢: ٤٣٩.
- (١٠٩) أحمد رضا، مذكرات: ٩٨٩.
- (١١٠) بغية الراغبين ٢: ١٥٤. ولاحظ وصف الحوماني الرائع لوصول الإمام شرف الدين وخطبته.
- (١١١) أحمد رضا، مذكرات: ٩٨٩.
- (١١٢) المصدر السابق: ٩٩٠.
- (١١٣) المصدر السابق نفسه: بغية الراغبين ٢: ١٥٥ و ٤٤١.
- (١١٤) بغية الراغبين ٢: ٤٤١، وقارن بذلك الشيخ سليمان ظاهر، جبل عامل في الحرب الكونية الأولى: ٧٢.
- (١١٥) خطبة الإمام شرف الدين التي ألقاها أمام الملك فيصل في دمشق، في حشد من رجالات الثورة وزعمائها باسم الوفد المفوض من وادي الحجير في ٨ أيار ١٩٢٠، أي بعد ١٦ يوماً من انعقاد المؤتمر. بغية الراغبين ٢: ٤٤٢، وقارن مواقف بعض العلماء لا سيما السيد محسن

- الأمين المتحفظ على (قتال الفرنسيين): لأن «أهل جبل عامل قوم ضعفاء لا قبل لهم بالثورة، قليلترموا السكون»، كما نصح الملك فيصل. راجع: منذر جابر، مؤتمر وادي الحجير: ٧٦.
- (١١٦) لاحظ الحملة الإعلامية في الصحف الموالية للفرنسيين، وخاصة جريدة البشير أعداد تلك المرحلة... كذلك تصرفات بعض القرى المسيحية بإيعاز من السلطات الفرنسية، كل ذلك أدى إلى توتر الوضع وبالتالي إجهاض الوحدة التي تمخض عنها مؤتمر الحجير، والتوصيات التي صدرت عن المؤتمرين:
- البشير: ٦ أيار ١٩٢٠ وما بعده.
- مجلة الشرق: مجلد ١٨، عدد ١٠، تشرين الأول ١٩٢٠.
- ولاحظ أيضاً:
- أمين الريحاني، ملوك العرب ٢: ٣١٥، دار صادر - بيروت.
- سلام الراسي، لثلاً تضييع: ٩٥٩، ط. الثالثة، مؤسسة نوفل - بيروت ١٩٨١.
- (١١٧) لاحظ في دراستنا للبلوم، مقاومة الاحتلال الفرنسي إلى جانب عصابات السرقة والنهب والعصابات التي مولها وأنشأها الفرنسيون.
- (١١٨) أطروحتنا للدكتوراه: ٣٨٩، حيث نروي لأعمال المقاومة العاملة وحادثة (عين إبل) بأسبابها ومسبباتها وأصابع الفرنسيين في ذلك.
- (١١٩) بغية الراغبين ٢: ١٦١.
- (١٢٠) المصدر السابق نفسه.
- (١٢١) جبل عامل في الحرب الكونية الأولى، مصدر سابق: ٧٣ - ٧٤؛ أحمد رضا، مذكرات ٩٩٢.
- ١١١٥؛ وآل صفا، تاريخ جبل عامل: ٢٢٦.
- (١٢٢) أطروحتنا للدكتوراه: ٤٠٩. أنظر هامش رقم ٦.
- (١٢٣) عن الحملة وفضائنها راجع: الشيخ أحمد رضا: مذكرات: ص ١٩٩ وما بعدها، المجلد ٣٤... وفي الصفحات ٦٩٢ - ٦٩٣ نلاحظ أسماء الحكوميين بالنفي والإعدام، ومنهم: السيد عبدالحسين شرف الدين، والسيد عبدالحسين نور الدين (أعضاء الوفد إلى فيصل)، وكامل بك الأسعد، وعبداللطيف الأسعد، وقادة الثورة أدهم خنجر، وصادق حمزة.
- (١٢٤) ميرفان، حركة الإصلاح الشيعي، مصدر سابق؛ وراجع: نزار الزين: جبل عامل في ربيع قرن: ٣٧، مطبعة العرفان، صيدا ١٩٣٨، إذ يقول: «رجل كالعالم الجليل السيد عبدالحسين شرف الدين... باستطاعته أن يقوم مقام خمسة زعماء بدلاً من زعيم واحد».

- (١٢٥) مذكرات أحمد رضا، مصدر سابق: ٦٩٢.
- (١٢٦) سيرته في بغية الراغبين ١: ٤٢٣.
- (١٢٧) عن الحادثة راجع: بغية الراغبين ٢: ١٦٢ وما بعدها.
- (١٢٨) لاحظ نهب بيت كامل بك الأسعد وغيره في: الشيخ أحمد رضا، مذكرات: ٢٠١، ونذكر هنا إلى أن كامل بك قد فرّ إلى فلسطين..
- (١٢٩) بغية الراغبين ٢: ١٦٣.
- (١٣٠) لاحظ وقائع الاجتماع في المصادر التالية: أحمد رضا، مذكرات: ٢٠٣؛ سليمان ظاهر، جبل عامل في الحرب الكونية الأولى: ٨١؛ محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل: ٢٢٨ والثلاثة كانوا من الحاضرين في الاجتماع.
- (١٣١) المصادر الثلاثة السابقة.
- (١٣٢) جبل عامل في الحرب الكونية الأولى: ٨٤.
- (١٣٣) بغية الراغبين ٢: ١٦٣.
- (١٣٤) المصدر السابق: ١٥٨. لاحظ حنينه وحسرتة.
- (١٣٥) أطروحتنا للدكتوراه فيها تفاصيل، أنظر: ٤١٢ منها.
- (١٣٦) بغية الراغبين ٢: ١٦٦.
- (١٣٧) المصدر السابق نفسه.
- (١٣٨) مقدمة النص والاجتهاد للسيد محمد صادق الصدر: ١٨.
- (١٣٩) مذكرات أحمد رضا، مصدر سابق: ٦٩١، المجلد ٣٣، وراجع أيضاً: ١٣٣ و١٣٤ و٦٩١، المجلد ٣٦: بغية الراغبين ٢: ١٦٧.
- (١٤٠) يوسف طباجة، الزعامة السياسية والموروث الإقطاعي، (رسالة دبلوم): ١٣٢.
- (١٤١) مصطفى بزي، نشأة الأحزاب السياسية في جبل عامل: ١٧٠، مجلة المنطلق، العدد ١٠٠.
- (١٤٢) بغية الراغبين ٢: ٤٤٧ - ٤٤٨.
- (١٤٣) المصدر السابق: ٢٠٧.
- (١٤٤) مقدمة النص والاجتهاد، مصدر سابق: ٢٥.
- (١٤٥) أطروحتنا للدكتوراه: ٤٢٣.
- (١٤٦) مصطفى بزي، نشأة الأحزاب السياسية في جبل عامل: ١٧٠.
- (١٤٧) المصدر السابق نفسه. قال:

أدخل الحزب الشيوعي إلى بلدة (شقراء) عام ١٩٤٥ ابن السيد محسن الأمين هاشم.

(١٤٨) بغية الراغبين ٢: ٤٥٥.

(١٤٩) المصدر السابق: ٤٥٨.

(١٥٠) المصدر السابق: ٤٧٣.

(١٥١) المصدر السابق: ٤٦٠.

(١٥٢) المصدر السابق: ٤٦٠ - ٤٦١.

(١٥٣) المصدر السابق: ٤٧١ - ٤٧٢.

(١٥٤) المصدر السابق: ٤٦١.

(١٥٥) المصدر السابق: ٤٦٢.

(١٥٦) مجلة العرفان، المجلد ٤٥.

(١٥٧) بغية الراغبين ٢: ٤٨٥.

(١٥٨) المصدر السابق: ٢٥٥.

العلامة شرف الدين رائد الوحدة الدينية والوطنية والقومية والجهاد

الأستاذ محمد أمين كوراني (*)

إذا ما أردنا أن نمحو الشكوك التي ساورت الأمة في منطقة بلاد الشام - على الأقل - في مرحلة ما بعد زوال الإمبراطورية العثمانية سنة ١٩١٨م، والتي ما زالت تساورنا حتى أيامنا هذه، خصوصاً الطبقة المثقفة. علينا، وفي فهمنا للمسألة السياسية، أن لا ندرس المراحل التاريخية بمقياس مرحلتنا، ولا نحاول أن ننقل ظروفنا إلى ظروفهم، بل نحاول أن نستوحي ظروفهم في مرحلتهم.

كانت القضية المطروحة آنذاك، هي سقوط الحكم العثماني، الذي كان عنواناً للخلافة الإسلامية، وكانت المشكلة الجديدة هي مشكلة ما بعد (سايكس - بيكو) من تقسيم للمنطقة ما بين الاستعمار الإنكليزي والفرنسي. وكانت القضية لدى علمائنا آنذاك، هي أنه عندما تعايش هدفاً مرحلياً، فإن عليك أن تعطي المرحلة خصائصها، حتى تستطيع أن تريح هدفك المرحلي، إذا كان لديك هدف إستراتيجي.

أمّا، لماذا؟ وكيف أطلقت القضية العربية من خلال الشريف حسين؟ وما هي خلفياتها؟ وهل هي خدعة استعمارية؟ والخ...

هذا لسنا بصدد، ولكنه تاريخ فرض نفسه على المرحلة، وعلى الذهنية السياسية آنذاك، لا سيّما وأن مشكلة الخلافة العثمانية التي كانت تحمل عنوان الإسلام، وتحولت من إسلامية إلى طورانية، تركية،

(*) كاتب وباحث، من لبنان.

تعصبية. لذلك، فإن الناس عاشوا واقع المعاناة، تماماً كما يعيشوا المعاناة من أي محتل. وكان الناس مخلصين لإسلاميتهم، لكن المشكلة أنهم كانوا يفتقدون الإسلامية في حركية هذا الحكم. من أجل ذلك، كان همُّ الناس في تلك المرحلة، التحرر من كل هذا القهر؛ لأن القهر ليس قومياً أو وطنياً أو إسلامياً، والقهر قهرٌ مهما أعطيناه من هويّات.

لذلك، نرى أنَّ الذين كانوا يتحركون في تلك المرحلة، كانوا يتحركون من خلال ضعف المرحلة، لا من خلال التفاصيل الإستراتيجية، ولذلك جاءت مسألة الوحدة السورية رداً على تقسيم سورية الطبيعية، وقد وجد العاملون بسياسة تلك المرحلة في الأمير فيصل الواجهة لذلك كله، ليس لأنه من عشيرة بني هاشم كعشيرة، بل لأنه من سيد بني هاشم، وسيد العالم رسول الله ﷺ.

فعندما نتحدث عن السيد عبدالحسين شرف الدين، كيف واجه المستعمر الفرنسي آنذاك؟ وما هي منطلقاته؟ ولماذا لم يتوفّق بمشروعه الحدودي والاستقلالي؟ نلاحظ هنا وببساطة أن مستوى الوعي السياسي الذي كان لدى نخبة من العلماء، كان متقدماً على مستوى وعي الفقهاء في تلك الحقبة، وربما على المرحلة التي نعاصرها. لقد تصدى السيد شرف الدين لواقع تلك المرحلة من مفهوم أن الدين لا ينفصل عن السياسة، فجاء متقدماً على كل الذين يفكرون ويعملون بالسياسة؛ لأنه كان يفكر أن السياسة دين، ولأن الله اختصر كل الرسائل، وكل الرسل، وكل الكتب، وكل الميزان، وكل البيّنات، ليقوم الناس بالقسط، فالدين عنده حركة عدل وإنصاف، وهكذا كان الإنسان الذي لم يبتعد عن فقهه، عندما تحركت السياسة، ولم يكن وحده.

وعندما تقرأ مذكراته تجد اسم السيد محسن الأمين كعنصر

يتحرك في السّاحة السياسية، في كل ما كان يحيط بواقع الناس في جبل عامل وفي سورية، ونقرأ اسم السيد عبدالحسين نور الدين، واسم الشيخ حسين مغنية، يتشاورون، يجتمعون، يتقابلون مع الأجانب والعرب، يمثلون شعبهم وأمتهم. فعلى سبيل المثال: السيد عبدالحسين شرف الدين، والشيخ حسين مغنية يمثلان جبل عامل ويجتمعان إلى لجنة تقصي الحقائق (كينغ - كراين)، فيفوض الشيخ حسين مغنية السيد شرف الدين أن يتحدث، فحملَ اللجنة مذكرة جاء فيها: «إننا نرفض الاستعمار الفرنسي، ونرفض التدخل في أمورنا، ونرفض المساعدات»^(١).

هذا النص وأمثاله من مذكرات السيد شرف الدين يُوقفنا - في محاولة فهمنا - على البعد السياسي الذي كان علامتنا الكبير يتحرك من خلاله. وها هو يتحدث عن رفض الاستعمار الجديد، وعن الوحدة السورية، وعن الحكومة العربية، وعن الجهاد السلمي، وعن الأمير فيصل كمطلب شعبي؛ ليكون ملكاً على سورية، وهذا النص خير شاهد على المرحلة التي عاشها، يقول: «فكان استقبالنا الاحتلال الإفرنسي من أجل ذلك استقبالاً صاخباً محتجاً، يواجهها بالرفض والمصارحة، والميل عنها ميلاً لا هوادة فيه ولا لين.

وأوكل إلينا أن نمثل الأمة العاملة - كلمة الأمة في القرآن: الجماعة - في جماعة ممن يلبسون السياسة، ويعملون في حقولها. واجتمعت إلينا أختام العلماء والوجوه والمختارين في مختلف البلاد العاملة، ثقة منهم بكل ما نقوله باسمهم، واعترافاً بصحة ما نعمله في سبيل مصلحتهم. وطيرنا يومئذٍ برقيات، وأرسلنا عرائض عبّرت عن آمال البلاد وأمانيتها في جلاء فرنسا عنا، واعتزالها الحكم فينا، وكان الأمير فيصل يومئذٍ في جنيف وباريس يسعى سعيه الجميل، ويتصل بذوي الأمر في شأن الحكومة العربية

المستقلة التي كنا نظاهرها على إنشائها.

ولم تقتصر في السعي على العرائض والبرقيات في جهادنا السلمي يومئذٍ، بل كانت لنا أصوات عريضة أذاعتها عنا صحف بيروت أولاً، ثم تولت إذاعتها صحف دمشق بعد أن كمّمها الاستعمار الفرنسي في بيروت. ثم كانت لنا مواجهات مع المسيطرين من الفرنسيين: كبيكيو، وغورو، وشرينتييه، ودلبستر، وقد حضر بعض هؤلاء إلى صور، وفاوضونا - دون خجل - في أن تكون لنا الإدارة المطلقة في التعيينات، وأسس الحكم المحلي، وما إلى ذلك، ولكننا رفضنا هذه المساومة ورددناها.

وقد شهد الكثير من هؤلاء (الفرنسيين) وغيرهم في صور وشحور احتشادات الجماهير الهابطة من الجبل بأعلامها الخافقة الوطنية، وهتافات الصاخبة، فكان لذلك وقعه في نفوسهم، وعلموا أن الشكيمة التي يحاولونها شكيمة شديدة لا تروّض^(٢).

وكما نلاحظ إلى جانب ذلك الوعي السياسي لدى السيد، إنه كان يرفض منذ البداية النظام الطائفي في لبنان؛ لأن المستعمر الفرنسي راح يسعى للاستعانة بهذا السلاح لتركيز وجوده في البلاد، وإطالة عمر الاستعمار والانتداب.

وقد تنبه السيد إلى ذلك، فكان مؤتمر وادي الحجير الذي التقى فيه علماء جبل عامل وزعماءه وشعبه، وكان قطب الرّحى في هذا المؤتمر علامتنا الكبير السيد عبدالحسين شرف الدين، وقد حثّ على اتحاد اللبنانيين وتعاونهم بدون تمييز طائفي على القيام برسالة التمدن الروحي، والإصلاح القويم، والدفاع عن الحق، والتحرر من الاستعمار.

وفي ذلك الموج البشري المتلاطم وقف السيد وقفة الرجل المسؤول خطيباً، يحث المؤتمرين على تفويت الفرصة على الغاصب الدخيل قائلاً:

«إخواني أعلام الأمة: إننا اليوم في هذا المفترق الخطير أشد حاجة من أي وقت إلى الاعتصام...

فأما عزّة لا تُفصم، أو ذلة لا تُرحم.

أما حياة حرة، أو هوان تُهدر في حماته إنسانية الإنسان.

أما استقلال دون وصاية، أو استعباد نكون معه كالأيتام على مأدبة

الللثام...

يافتيان الحماية المغاوير!

الدين النصيحة، ألا أدلكم على أمر إن فعلتموه انتصرتم:

فوتوا على الغاصب برياطة الجأش فرصته، وأخمدوا بالصبر الجميل
فتنته. فإنه والله ما استعدى فريقاً على فريق إلا ليشير الفتنة الطائفية،
ويشعل الحرب الأهلية، حتى إذا صدق زعمه وتحقق حلمه، استقر في البلاد
تعلّة حماية الأقليات.

ألا وإن النصارى إخوانكم في الله وفي الوطن وفي المصير، فأحبوا لهم
ما تحبونه لأنفسكم، وحافظوا على أرواحهم وأموالهم كما تحافظون على
أرواحكم وأموالكم، وبذلك تحبطون المؤامرة، وتخدمون الفتنة، وتطبقون
تعاليم دينكم وسنة نبيكم ﴿وَلَنَجِدَنَ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا
نُصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصٌ وَرَهْبَانٌ وَاللَّهُمَّ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

بهذا السلوك يا أبنائي الأعزاء، دون غيره، تردون كيد الفرنسيين
إلى نحورهم، وتعيدون جحافلهم إلى جحورهم، وتنعمون بالحرية لا يتناول
بعدها إليكم متناول.

إخواني وأبنائي!

إن هذا المؤتمر يرفض الحماية والوصاية، ويأبى إلا الاستقلال التام

الناجز» (٣).

ثم انفضّ المؤتمر بعد أن كلف السيد شرف الدين والسيد عبدالحسين نور الدين للمثول إلى دمشق، ومقابلة فيصل مع السيد محسن الأمين الذي كان نزيراً في دمشق آنذاك. وقد ثارت ثائرة الفرنسيين لنجاح المؤتمر، وراحوا ينفخون في بوق الفتنة، وقد أشاعوا في طول البلاد وعرضها أنّ السيد عبدالحسين شرف الدين أفتى بمحاربة النصارى في مؤتمر وادي الحجير، فكان لهذا الافتراء المخطط هدف خبيث، وهو القضاء على السيد، لكنهم لم يفلحوا، وتطورت الأحداث بسرعة وأحرق الفرنسيون داري السيد في صور وفي شحور، وأصدروا حكماً بإعدامه والقبض عليه حياً أو ميتاً، للحيلولة دون وصوله إلى دمشق. وقد استنكر الشاعر المسيحي آنذاك المرحوم بولس سلامة، صاحب ملحمة الغدير، هذا الافتراء ضد السيد، فراح يمدحه بقصيدة عصماء منها:

أَيُّهَا السَيِّدُ هَلَّا ذَكَرْتُ أَمْسَكَ المِثْنَفُ أَقْزَامَ تَبَاهَى
يَوْمَ لَمْ تُرْكِعْ عَلَى الضَّيْمِ وَقَدْ رَاحَ سَوُطُ الدُّلِّ يَسْتَأْقُ الشَّيَآهَا
عُرِضَتْ "لِلْأَسَدِ" الْبَادِي الطُّوَى طَيِّبَاتٌ مُغْرِيَاتٌ فَآبَاهَا
أَحْرَقُوا دَارَكَ وَالنَّارُ مَحَتْ مِنْ مَعِينِ الْعِلْمِ أَسْفَاراً رَوَاهَا
شَرْفَاً "عَبْدَ الْحُسَيْنِ" الْمَرْتَقِي مِنْ صُرُوحِ الْعِلْمِ وَالْدِّينِ ذُرَاهَا
تَمَلُّاً الْمُنْبَرَّ عِزّاً وَسَنَى وَكَذَلِكَ الشَّمْسُ تَهْدِي مَنْ يَرَاهَا
كَادَتْ الْأَعْوَادُ مِنْ نَشْوَتِهَا تَلْبَسُ الْخُضْرَةَ ذِكْراً لَصِبَاهَا
أَوْ نُعِيدَ الْغَضَّ مِنْ أَوْرَاقِهَا كُلَّمَا "الْعَلَامَةُ" السَّبَطُ أَتَاهَا (٤)

لقد تجلّت مواقف السيد شرف الدين بشكل بارز في مناهضته للمستعمرين، وعمل دائماً على تحرير وطنه واستقلاله، وتوحيد الناس للعمل على تحقيق هذا الاستقلال، وتدريبهم ليصبحوا قادرين على مقاومة

المستعمر، ولم يستسلم للمغريات التي عرضها الفرنسيون عليه في أن تكون له السلطة المطلقة في منطقة صور ومحيطها. فتآمروا عليه وأرادوا اغتياله أو اعتقاله، وفي كل مرة كان ينجو بأعجوبة. وظلت مواقفه المبدئية ثابتة لا يتزعزع عنها قيد أنملة، حيث كان قوله دائماً:

"إن لم أقف حيث جيش الموت يزدحمُ فلا مشى بي في طُرُقِ العلى قدمُ"^(٥)

وحتى في زمن الانتداب والاستقلال لم يغير السيد من مواقفه المبدئية الثابتة. فمرة يذكر رؤساء البلاد في ظل الانتداب بوجود النهوض بمسؤولياتهم الوطنية، وخدمة شعبهم. ومرة يوجّه البرقيات والرسائل إلى زعماء الدول الكبرى مطالباً باستقلال البلاد وحرّيتها.

وها هو السيد يوجه كتاباً إلى حبيب باشا السعد زمن رئاسته للوزراء في ظل الانتداب، طالباً منه أن يمدّ يد العون لتحقيق آمال اللبنانيين عامة، وجبل عامل المحروم آنذاك خاصة، جاء في خاتمته: «ولبنان تربة خصبة، يزدهر فيها الزرع، ويدّر في ربوعها الضرع، فتعهد هذه الأرض الطيبة، تؤث أكلها بإذن ربها.

أما الجنوب، و(عاملة) فقسمه الأوفى، فإن مرابعه يباب، وماء محض سراب، لم تمتد إليه يد ببناء، ولم تلح له قط بارقة رجاء، ولعل يدك الكريمة تسرع إليه بما أبطى عنه، وتعود عليه بما حُرّم منه»^(٦).

وها هو السيد يستصرخ الزعيم العاملي المرحوم أحمد الأسعد في الأربعينيات، طالباً منه النهوض بمنطقة العاملية سالخاً عنها سوط الاستعمار ويد المستأثرين، وإذا كان لا بد من تسمية المطالب، فهي هذه:

- ١ - الحقوق المشروعة في الوظائف... والظلمة أوضح من الشمس..
- ٢ - إرواء جبل عامل أرضاً وبشراً من الليطاني الذي تهدر مياهه في البحر..

٣ - تعميم المدارس الرسمية فإن سائر القرى العاملة محرومة منها..

٤ - تعبيد الطرقات..

٥ - اعتماد أطباء يسدّون الفراغ الصحي الفتاك..

٦ - إصلاح المحاكم الشرعية..

ولا يغفل السيد عن القضايا القومية التي كانت الوحدة حلمه الأسمى فيها وبها، وها هو يخاطب ملك بريطانيا يوم إعلانه استقلال لبنان في ١٩٤١/١١/٢٦ برسالة سلّمها إلى سفارته في القدس طالباً ما يلي:

١ - يود العرب ويتناسون الذكريات الأليمة، ويدفنون الجراح الثخينة، وقد مناهم بهذه وتلك خضر بريطانيا العظمى وحلفائها عهدهم، ونقضهم ودّهم. أمل أن يكون الحاضر غير الماضي، والغائب غير الآتي.

٢ - الاستقلال الذي أعلن في لبنان في ١٩٤١/١١/٢٦ مهزلة من المهازل التي كانت تمثلها حكومة فرنسا الغابرة في ليل طويل مقداره عشرون سنة..

وربط الاستقلال بدستور مرتبط بدولة أجنبية، هو تسلط صارخ يجتاح الاستقلال نصاً وجوهرأ.

٣ - أمنيتنا الكبرى توحيد العراق وسورية بحدودها الطبيعية..

٤ - سورية بحدودها الطبيعية، وحدة لا تتجزأ وأن أشلاءها التي اقتطعت منها، وكانت تعرف بـبير الشام، تُجمع مع العرب على أن أعادتها مطلب مصيري غير قابل للمساومة.

٥ - إن فلسطين ليست جزء سورية الجنوبي، بقدر ما هي قلبها النابض المتصل بقلوب العرب جميعاً، والعرب يستميتون دون وعد بلفور.

٦ - إن الدولة السورية العربية المرتجاة، بحكم عوامل الزمان والمكان واللغة ووحدة الهدف والمصير، ترى نفسها صاحبة الحق في الدعوة

إلى اتحاد عربي مع الشقيقات المتجاورات، يقوم على إلغاء الحواجز الجمركية، وتوحيد برامج التعليم، والسياسة الخارجية، والدفاع^(٧).

ومن المواقف الوطنية المشهودة له، ما قدّمه من انتقاد للمسؤولين اللبنانيين على إثر اعتداء الصهاينة على الأراضي والقرى اللبنانية عام ١٩٤٨م، واحتلال جزء منه. فثارت ثائرة موجهاً كتاباً إلى رئيس الجمهورية آنذاك الشيخ بشارة الخوري، فيه صورٌ حية عن الجنوب البائس، حيث يقول: «وحسبنا الآن نكبة جبل عامل في حدوده المتاحة، ودمائه المباحة، وقراه وقد صيح فيها نهباً، وأطفاله وقد تأوّدت رعباً، وشبابه وقد استحرّ بهم الفتك، إلى ما هنالك من هلاك الحرث والزرع.

هذا الجبل العريق، تضرب عليه الذلة والمسكنة، ممن ضربت عليهم الذلة المسكنة في سحق التاريخ..

أجل، جاسوا خلال دياركم يتصرفون بها تصرف الفاتح، فإذا لم يكن من قدرة على الحماية، أفليس من طاقة على الرعاية؟»^(٨).

وعندما نذكر القضايا القومية، لا ننسى أن نتذكر مواقف السيد عبدالحسين شرف الدين في هذه المسألة الكبرى، حيث كانت تحتل منه الحيّز الأكبر، فاهتمامه في هذا المجال كان يدور حول قضيتين مهمتين هما:

قضية فلسطين، وقضية الوحدة العربية. ولا يمكننا أن نتجاهل مواقفه الثابتة إزاء القضايا القومية التي خلّدت أفكاره وسطّرت مع الأيام جهاده.

وفيما العرب يحاولون جاهدين الدفاع عن كرامتهم في فلسطين، راح يثير النخوة والحماس في صدور أبناء الأمة قاطبة عبر نداء وجهه إلى العرب والمسلمين، يحثهم على التضحية في سبيل تلك القضية المقدسة صارخاً:

«أيها المسلمون! أيها العرب!

هذا شهر محرم الدامي، الذي انتصرت فيه عقيدة، وُبعث فيه مبدأ.
ألا وإن قُتلة الحسين عليه السلام بكر في القتلات، فلتكن قدوتنا به بكَراً
في القدوات، ولنكن نحن من فلسطين مكان (الحسين) سيد الشهداء عليه السلام
من قضيته؛ ليكون لنا ولفلسطين ما كان له ولقضيته من حياة ومجد
وخلود.

أيها العرب! أيها المسلمون!

لقد حُمّ الأجل، وموعدنا فلسطين، على أرضها نحيا، وفيها نموت.
والسلام عليكم يوم تموتون شهداء، ويوم تبعثون أحياء»^(٩).
لقد أرقت قضية فلسطين أجفان السيد شرف الدين، فلم يترك منفذاً
ولا مجالاً إلا دخله، وخاض فيه.. من الخطب الحماسية إلى المقالات
الصحفية، والبرقيات إلى المؤتمرات العربية وغير العربية، وها هو يطير
برقية إلى الملك عبدالله على إثر انعقاد مؤتمر عربي في عمان، يستهض
همم المؤتمرين العرب بتحرير فلسطين، ومما قاله:
"كرامة العرب الجريح تنظر إلى مؤتمرهم من مأساة لا موضع فيها
للصبر.

تَمُرُّ الصهاينة يتحدى رسالة القرآن.

إنبعثوا على بركة الله بذات محمد.

الشعب العربي يجيش بثورة ضارية، فكونوا من وراء تضحيته،
يكفكم الله عدوان شذاذ الآفاق»^(١٠).

وكان السيد شرف الدين قد نبّه الملك عبدالله والزعماء العرب قبل
النكبة بقليل، وتحديدًا في شهر نيسان ١٩٤٨ مقررًا إياهم، أن ضياع
فلسطين سيؤدي إلى ضياع العرب وإنسحاق كرامتهم. فوجّه إليهم النداء
التالي:

«... الآن، وقد أسفر الصبح لكل ذي عين، وأعلن الطائرون إلى الظل والماء، ترددهم في خوض المحنة ودفع الكارثة، أروا الأمة ما عودتموها عليه من هبوبيكم للأخذ بكظمها كلما ارجحت الخطوب، وابتسموا لها في ثنايا ليلها الفاجع على مفترق الدروب.

وليس ذهاب فلسطين فاجعاً، لولا أنه ذهاب لريح العرب وعزّ الإسلام، وكرامة الإنسان المسترق في غد هذا الشرق القريب..»^(١١).

ومما يلفت النظر في مواقف السيد الوطنية، إعجابه وتقديره للرئيس الراحل جمال عبدالناصر، الذي كان ينظر إليه على أنه رمز للنقاء الثوري، والنضال الصحيح، وأنه يستطيع أن يجمع حوله كافة العرب، وقد ظهر ذلك في الرسالة التي بعث فيها إلى وزير الأوقاف المصري السابق أحمد حسن الباقوري، حيث جاء في خاتمتها: «السلام عليكم طليعة الأمة العربية، وحملة مشعلها، وعلى جمالها وقائد ثورتها، وعلى المجاهدين بين يديه، وعلى من تهفو قلوبهم إليه، ورحمة الله وبركاته».

تلك المواقف والمشاعر القومية هي التي دفعته عام ١٩٥٦م، على إثر العدوان الثلاثي على مصر، إلى توجيه نداء لعلماء الدين من إذاعة الشرق الأوسط، وكان قد بلغ الكبر منه عتياً، يحثهم على إطلاق الفتاوى والنداءات للدفاع عن مصر، حيث يقول: «في هذه الفترة الحاسمة التي يمتحن فيها الاستعمار مناعة الإنسان في الحرية وتقرير المصير... يغزو الاستعمار مصر المجاهدة...»

أناشد إخواني في الله تعالى علماء الدين في كل مكان أن يقولوا كلمتهم، فتدوي صارخة توقظ النائمين، وتدفع الواقفين إلى الدفاع عن معقل هو أعزّ معاقلنا تحت راية الحق، وأهيب بجميع أبنائنا في الله في المشرق والمغرب إلى الاشتراك في معركة المصير هذه، وإعلان الحرب على الاستعمار...

ألا وإن الاستعمار الغربي يغزونا في عقردارنا، معتدياً غاشماً.
ألا ومن مات دون حفنة من تراب وطنه مات شهيداً»^(١٢).

لقد كان السيد شرف الدين واحداً من الذين جاهدوا وكافحوا عقوداً من الزمن، في زمن الهجمة الاستعمارية على المنطقة العربية، فكان واقعياً في طروحاته؛ لأنه دعا إلى تحقيق الوحدة العربية على مراحل، فقد نادى بالوحدة السورية أولاً، ثم دعا إلى وحدة سورية الطبيعية والدول العربية المجاورة لا سيما العراق، وعمل على تحقيق الوحدة الوطنية كمقدمة للوحدة العربية الكبرى.

وقد ترك التاريخ لنا مساوئ كثيرة عن أولئك المعرقلين، الذين كانت مصالحهم لا تتوافق مع حركة إصلاح الأمة وتقدمها ووحدةها، وهذا ما دفع بعض الحاقدين والحاسدين على السيد شرف الدين، ممن فتّوا بالمستعمر الفرنسي، أن يشوّشوا على السيد ليضعوه في دائرة الاتهام، وكان ذلك عام ١٩٤٣ وقبل الاستقلال الوطني بفترة وجيزة، حيث أغروا بعض من كان في داره ليولم لبعض الفرنسيين، وإذا بالسيد يتفاجأ بتلك الوليمة التي لا يعلم عنها شيئاً. وقد حضرها أحد كبار ضباط الجيش الفرنسي في لبنان آنذاك (المسيو دافيد)، فخرج السيد من فراشه وكان مريضاً كما ذكر ولده المرحوم السيد جعفر شرف الدين، فوقف في باب غرفة الاستقبال موجهاً كلامه لـ (دافيد) هذا، وقد صفعه بالآية القرآنية: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾^(١٣)، ليشعره أنه يخاطب يهودياً ممقوتاً كريهاً، ويأنه غير مرغوب فيه ولا بدولته، ثم قال له: «إن القلب الذي حاربكم عام ١٩٢٠ ما زال بين جنباتي».

انطلت أخبار الوليمة على الكثير ممن لم يعرف تفاصيلها، مما دفع الشاعر العاملي المرحوم عبدالحسين عبدالله أن يستذكر تلك الوليمة

المرعومة بقصيدة رائية مطلعها:

لمن الوليمة في مدينة صورٍ محفوفة بالطبل والزُمُورِ
لا تعجبين فكل شيء قابلٌ في الكون للتبديل والتغيير

لقد كان قصد الفرنسيين ومن لف لفهم الانتقام من السيد شرف الدين على مواقفه المعادية منذ دخول الفرنسيين وحتى تلك الفترة، وهذا ما أكّده المرحوم السيد جعفر عندما قال: «لقد استعمل الفرنسيون مع والدي القاعدة الخبيثة القائلة: "أطلق على خصمك إشاعة تقتل معناه، أفضل من أن تطلق عليه رصاصة تقتل مبناه"».

لقد تكشّفت الحقيقة في ما بعد لكثير من الخاصة والعامة، وكان في طليعة من أدرك تلك الحقيقة الشاعر عبدالحسين العبدالله، إذ زار السيد في صور معلناً توبته معترداً عن الإثم الذي ارتكبه، بتلك القصيدة قائلاً:

أتيتك يوماً عندما تبتُ نادماً	فحييتني طلقاً محيّاك باسمًا
تعفّ عن الجاني يظل طريقه	وترحم مغروراً وتعذر آثماً
سجاي الكرام الغرّ من آل هاشم	فلا يصحبون الناس إلا أكارماً
حنوتُ على تلك اليمين لثمتها	وألقيتُ عني ما حملتُ مآثماً
بني هاشم فخر العروبة أنتمُ	ذراها صنعتُم مجدها والملاحما
ففي كل ميدانٍ تركتم ضحيةً	تظلّ لها الدنيا تعجّ مآثماً
حملتُ لك الإخلاص من قلب عامل	يرفّ أزاهيراً ويهفو نسائماً
بلادٌ لهذا البيت تاقت نفوسها	وشدّت على حبّ الحسين العمائم ^(١٤)

وأخيراً إذا ما أردنا أن نحكم على مواقف السيد شرف الدين السياسية، وقلنا أنه نجح في مواقفه العملية في مجال الإصلاح السياسي، وخصوصاً في دفاعه عن الوحدة الوطنية، وسعيه لطرد المستعمر وتحقيق

الاستقلال، فضلاً عن تمسكه بالمشاعر القومية، التي دفعته للمطالبة بالوحدة العربية الكبرى. هذا هو السيد عبدالحسين شرف الدين قائد مسيرة الجهاد في جبل عامل ولبنان وسورية وبلاد العرب، وكل المعالم الجهادية، يرسمها العلماء المجاهدون منذ صدر الإسلام وحتى أيامنا الحاضرة.

فمع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن الحادي والعشرين تتابع على قيادة الجهاد أعلام المراجع القيمين على جامعات النجف وكربلاء والكاظمية وأصفهان وقم وخراسان والأزهر والقرويين والزيتونة وجبل عامل. بل، إن كل ثورة قامت في عالم الإسلام، إنما قادها العلماء الذين عناهم رسول الله ﷺ بالحديث الشريف: «العلماء ورثة الأنبياء».

* * *

الهوامش:

- (١) راجع نصّ المذكرة في بغية الراغبين ٢: ٤٥٣.
- (٢) السيد عبدالحسين شرف الدين، بغية الراغبين ٢: ١٤٧ - ١٤٨ ط. الأولى ١٤١١هـ / ١٩٩١م، الدار الإسلامية - بيروت.
- (٣) المصدر السابق: ٤٣٩ - ٤٤١.
- (٤) راجع تمام القصيدة وتأريخها في بغية الراغبين ٢: ٤٩٨ - ٥٠٠.
- (٥) البيت هو مطلع قصيدة للسيد حيدر الحلّي يرثي بها الإمام الحسين عليه السلام، تمثل به في بعض خطبه ورسائله. راجع ديوان السيد حيدر الحلّي، الجزء الأول ص ١٠٣، تحقيق: علي الخاقاني، ط. الرابعة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت. وراجع أيضاً بغية الراغبين ٢: ٥٧٦.
- (٦) بغية الراغبين ٢: ٤٧٠.
- (٧) المصدر السابق: ٤٥٨ - ٤٥٩.
- (٨) المصدر السابق: ٤٧١ - ٤٧٢.
- (٩) المصدر السابق: ٤٦٠ - ٤٦١.
- (١٠) المصدر السابق: ٤٦١.
- (١١) المصدر السابق: ٤٦٠.
- (١٢) المصدر السابق: ٤٦٢.
- (١٣) المائدة: ٨٢.
- (١٤) بغية الراغبين ٢: ٤٩٨.

جبل عامل

واثراء ثقافة أهل البيت عليه السلام ونشر علومهم

الشيخ حسن بغدادي (*)

تمهيد

قال رسول الله ﷺ: «أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد».

ومما لا لبس فيه، أنَّ العالم الرباني السيد عبدالحسين شرف الدين هو أحد مصاديق هذا الحديث الشريف، وهذا يلزمنا أخلاقياً بإحياء ذكره وذكرى الأفاضل من علمائنا الأعظم، الذين هم امتداد لتلك المدرسة المباركة التي أسسها الإمامان الباقر والصادق عليه السلام، التي واجهت أبشع الانحراف الفكري والعقائدي، حيث عمدت السلطات الجائرة إلى شراء الضمائر والأقلام لتحريف الكلم عن مواضعه، وتبديل الحقائق، وإبراز شخصيات لم تكن من أصحاب الفكر والمعرفة، بل لمجرد النيل من هذه المدرسة الشريفة التي لو تحلّقنا حولها لأنصفنا جميع الملل والنحل، ولأعدنا ما جاء به الأنبياء صلوات الله عليهم من مبادئ وقيم إلى المجتمعات البشرية، ولتخلّصنا من الخرافات والتزييف بعيداً عن التعصّب. لهذا أنوّه بالسادة القيّمين على تنظيم هذا المؤتمر حيث عقدوه متزامناً مع الولادة العطرة لصاحب هذه المدرسة المباركة الإمام محمد الباقر عليه السلام، تأكيداً على مشروع (الخصوصية والتواصل) بين الأئمة الأطهار عليه السلام وبين علمائهم، الذين هم امتداد لتلك الأصول الطيبة من الشجرة المباركة، التي

(*) باحث من الحوزة العلمية، من لبنان.

أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. وإذا كان عنوان بحثي لهذا المؤتمر «جبل عامل وإثراء ثقافة أهل البيت عليه السلام»، فلا بد أن أذكر من باب المقدمة، المكونات الأساسية التي شكّلت مجموعها مفهوم (جبل عامل)، الذي خرج عن كونه بقعة يقطنها مسلمون من الشيعة، الذين تعرضوا لأبشع أنواع القهر والتهجير لفترات طويلة ومختلفة، إلى حقيقة تجلّت في أبهى صورها لخدمة المشروع الإسلامي العام، وإلى ركيزة أساسية لإثراء ثقافة أهل البيت عليه السلام.

وبهذا تجاوز جبل عامل حدوده الجغرافية، وبات ينسبُ نفسه إليه كلُّ من تخرّج من مدرسته، وشرب من نعيم فقهه، كالمحقق الشيخ علي الكركي العاملي، فهو من بلدة «كرك نوع» البقاعية، ولا تمتّ إلى جبل عامل بصلة، ونسبة المحقق إليه من باب الانتساب إلى الحوزة الأم، وإلى المركز الذي خرّج المئات من الفطاحل والفضلاء، الذين دوّنوا آلاف المصنفات في الفقه والأصول، والتفسير، وعلم الكلام، ومختلف الفنون، ولهذا يلفت النظر الشيخ الحر العاملي في كتابه «أمل الآمل» إلى القيمة العلمية التي حققها علماء جبل عامل في العالم الإسلامي فقال: «إن عدد علماء جبل عامل يقارب خمس عدد علماء المتأخرين، وكذا مؤلفاتهم بالنسبة إلى مؤلفات الباقيين، مع أن بلادهم بالنسبة إلى باقي البلدان أقل من عشر العشر، أعني جزء من مئة جزء»^(١).

من المعروف أن جبل عامل لم يكن ركيزة علمية تشدّ إليه الرحال قبل عهد الشهيد الأول الشيخ محمد بن مكي الجزيني رحمه الله، والسبب هو فقدان الأمن والاستقرار، وعدم توفر رجال استثنائيين قادرين على النهوض بهذه الثورة المعرفية.

فجبل عامل كان يبرز تحت نير الاحتلال الصليبي الذي دام زهاء

قرنين من الزمن، حيث عمد إلى تدمير الكيان الشيعي خصوصاً في المدن، وأبقى على سكان القرى، كي ينتفع من اليد العاملة بعدما كان يأخذ الجزية منهم، كما ينقل الرحالة ابن جبير في رحلاته أيام الحروب الصليبية إذ يقول: «ورحلنا عن تبين.. وطريقنا كله ضيع متصلة وعمائر منتظمة، سكانها كلهم مسلمون...، ويؤدون للإفرنج نصف الغلة، وجزية عن كل رأس دينار وخمسة قرايط، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة»^(٢).

هذا الواقع المرير الذي استمر حتى سنة ٦٩٠هـ^(٣) لم يمنع من وجود علماء دين مبلّغين ومرشدين، كما ينقل المؤرخون^(٤)، فالشيخ جمال الدين إبراهيم بن الحسام أبي الغيث العاملي، كان حياً سنة ٦٦٩هـ، والشيخ نجم الدين طومان بن أحمد المناري، توفي سنة ٧٢٨هـ، وكان أستاذاً لوالد الشهيد الأول الشيخ مكي الجزيني، وهؤلاء الثلاثة من علماء الدين لم تسمح لهم الظروف لينهضوا بجبل عامل، كما نهض الشهيد الأول، الذي أتاحت له فرصة جعل هذا الجبل مستقل علمياً عن الحوزات المركزية.

ويمكن تلخيص هذه الفرصة بأسباب ثلاثة:

١ - المرحلة الانتقالية ما بين جلاء الاحتلال الصليبي وقيام دولة

المماليك

فصحيح أن المماليك أكملوا ما بدأه الصليبيون، وارتكبوا أبشع المجازر حتى ما هو محرّم في حالة الحرب، وعمدوا إلى قتل الشهيد الأول بعدما سجنوه مدة سنة في دمشق، لكن في بداية الأمر استطاع الشهيد الأول أن ينفذ بمشروعه الذي خطط له، وهو في طريق العودة من الحلة إلى عواصم البلدان الإسلامية، والذي ساعد على ذلك أن المماليك كانوا أميين، وكلّ همهم السلطة، ولم يحملوا مشروعاً عقائدياً ليوأجوهوا المشروع الآخر^(٥).

٢ - بلدة جزين التي خرج منها الشهيد الأول

كانت خارج الاحتلال الصليبي مما جعلها ملجأً لكثير من الثوار، وأعطاهما حالة ممانعة، وجعلها بلدة متوّرة، لم تتأثر بالعقلية الإرهابية المنظمة التي مارسها الاحتلال الصليبي للمنطقة.

٣ - تواجد عدد من علماء الدين في جزين حتى زمن الاحتلال

كما ذكرنا آنفاً، فالشهاد نفسه تخرّج من بيت علماء، فوالده الشيخ مكّي، وجده الشيخ محمد بن حامد الجزيني^(٦)، وغيرهما من العلماء. مجموع هذه الأسباب شكّلت فرصة ذهبية لذلك الرجل الاستثنائي للبدء بتنفيذ مشروعه الذي خطط له.

فبعدما استنفذ الطاقات العلمية في جبل عامل حيث كانت محدودة، غادر إلى الحوزة الأم ليكمل مسيرته العملية، فكانت (الحلة) في العراق حيث كان زعيمها العلامة الحلي، الذي تزامن وفاته مع وصول الشهيد الأول إليها، فدرس على ولده (فخر المحققين)، فبقي ما يزيد على عقد من الزمن منكباً على التحصيل والمباحثة، حتى عبّر عن مكانته العلمية التي وصل إليها أستاذه فخر المحققين بقوله: «لقد استفدت منه أكثر مما استفاد مني»^(٧).

والذي يدلنا على عظمة هذا الرجل، وأنه كان يخطط لمشروع بقيت آثاره إلى يومنا هذا، أنه لم يعد مباشرة إلى بلدته (جزين)، بل بدأ رحلة ثانية في عواصم البلدان الإسلامية، فاتجه إلى بغداد وقرأ فيها على الفقيه الشافعي شمس الأئمة الكرمانلي، كما ينقل الجزري في كتابه^(٨)، ومنها إلى دمشق والقاهرة ومكة المكرمة والمدينة المنورة، ومقام إبراهيم الخليل، فدرس على شيوخها، وتبادل الأفكار معهم، وقال رحمته في إجازته لابن الخازن الحائري في دمشق: «إني رويت مصنفات العامة عن نحو أربعين شيخاً من علمائهم».

وبالفعل برز الشهيد الأول زعيماً لتلك المرحلة، ومؤسسها وبطل نهضتها، حتى وصفه كل من رآه أو تباحث معه بأنه «أفقه جميع الآفاق»^(٩).

وأصبح جبل عامل يضجّ بالعلماء، كما ينقل الحر العاملي: «أنه صلّى على إحدى الجنائز في إحدى قرى جبل عامل سبعون مجتهداً»^(١٠). بعد ذكر هذه المقدمة التي أردت من خلالها أن أسلط الضوء على مفهوم جبل عامل، لأعود إلى جوهر البحث لأقول: إن ثقافة أهل البيت عليهم السلام، ونشر علومهم عند علماء جبل عامل، يمكن تلخيصها بعناصر ثلاثة:

الأول، البحث والتأليف والمحاضرات

فقد أغنى علماء جبل عامل ومنهم الإمام شرف الدين المكتبة العلمية بمختلف الفنون، ومنذ مئات السنين لا زالت الحوزات العلمية تعتمد في تدريس بعض برامجها الفقهية والأصولية على ما كتبه بعض علماء هذا الجبل، ولا شك أن الإمام شرف الدين أحد الفقهاء الكبار في هذه السلسلة الذهبية، مؤلفاً، وباحثاً، ومحاضراً في سبيل نشر رسالة سيد المرسلين، والدفاع عن النهج الحق قاصداً القرية إلى الله تعالى، ومراعياً وحدة الأمة. ومع كونه من كبار فقهاء الإمامية لم يقتصر في أبحاثه الفقهية على مباني الفقه الجعفري، بل تعداه للبحث في جميع مباني ما يذهب إليه علماء المذاهب الإسلامية، وهذا يدل على القدرة الفقهية التي امتاز بها عن كثير من الفقهاء، فامتلك قدرة التمييز والاختيار على أساس مصادر التشريع، والتفضيل حسب الأدلة المقنعة، وهذا ما أطلق عليه (الفقه المقارن)، أو فقه الخلاف كما سماه الشيخ الطوسي رحمته الله في كتابه (الخلاف).

وتستطيع أن تستشف هذا الحضور الفقهي عند الإمام شرف الدين من خلال الرسالة الفقهية (مسائل فقهية) على المذاهب الخمسة، فهي وإن كانت صغيرة الحجم، إلا أنها تصلح لتكون شاهداً على الذهنية الفقهية التي يتمتع بها سيدنا المعظم، وتتمّ عن إمامه بالمباني الفقهية الموجودة عند بقية المذاهب، وبالتالي قدرته على مقارنة هذه المباني مع بعضها البعض، وأرجحية أحدها على الآخر ضمن الأدلة المقنعة التي تثبت هذه الأرجحية.

ناهيك عما كتبه في الأصول والعقائد والسيرة، ومع الأسف فقد أقدم الفرنسيون على حرق مكتبته في صور على إثر انعقاد مؤتمر (وادي الحجر)، ومع ذلك ما بقي من المؤلفات يعتبر من المصادر النفيسة، التي ما زالت منارة في عالمنا الإسلامي، وكاشفة عن قيمة هذا الرجل العلمية والجهادية، الذي أفجع موته العالم الإسلامي، وكان أحد مصاديق الحديث الشريف «إذا مات العالم تلم في الإسلام ثلثة لا يسدها شيء»^(١١).

مضافاً لآلاف المحاضرات التي لو قدّر جمعها، لشكلت مجموعة من الوزن الثقيل لا ينوء بها إلا من أطلق الله لسانه، وشرح صدره، وخصوصاً أنه عُرِف عنه رحمته حرصه على تدوين النصوص والمصادر التي يطالعها أو يصادفها في حياته، ناهيك عن سلسلة البيان وسبك العبارة، وما أجمل تلك الصورة التي عبّرت فيها الأدبية «مي زيادة» عن السيد شرف الدين، وهو على المنبر يداعب خاتمه، وهو يغوص في أعماق الفكر والألفاظ: «لا أدري هل الخاتم أطوع إلى بنانه، أم البيان أطوع إلى لسانه».

وسأقتصر على ذكر نموذجين نستكشف من خلالهما قوة بيانه، وقدرته على اختراق السمع، والدخول إلى أعماق القلب، ففي سنة ١٣٧٥هـ أرسل ولده السيد جعفر إلى إفريقيا ليجمع تبرعات لاستكمال (الكلية الجعفرية)، فخاطبه برسالة جاء في بعض فقراتها ما يلي: «أعزّ عليّ يا بني

ركوبك الهواء، وأعز عليّ من ذلك تكليفك بالسؤال، والسؤال ذلّ ولو من أين الطريق، إلّا أن يكون في سبيل الله ورسوله والأئمة والأمة، ولمشروعك هذا الذي أبحرت وأصحرت، ثم ركبت الريح في سبيله، فإنه عزّ وأي عزّ»^(١٢).

والمرود الثاني: ما جاء في كلمة ألقاها ﷺ في جمع من علماء الدين اجتمعوا ليحولوا دون ذهاب السيد إلى العراق احتجاجاً منه على جهل الجاهلين وعمل الفاسقين: «السلام على حضنه الإسلام، وسدنة شرائع الله عزّ وجلّ، وحفظة الآثار النبوية، وحملة آل محمد ﷺ وسفرائهم. جاء في صحيح الأثر عن سيد البشر ﷺ إن العلما ورثة الأنبياء، فبخ بخ للعلماء ما استتوا بسنن الأنبياء، وجروا على سننهم يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويجتهدون بالمشورة لأنفسهم ولأمتهم، ويخلصون لله عزّ وجلّ في العبادة، وللعباد في الإرشاد والإفادة، وهذا هو النصح لله تعالى ولنبيه ولأئمة المسلمين ولعامتهم، وعليه كانت سيرة السلف من علماء الإمامية في جميع الأقطاب»^(١٣).

هذه الألفاظ، وسبك العبائر، وعمق الفكرة، تذكرك بعبائر أولي الأمر وأهل الحكم والمعرفة، ولو تمكّناً أن نقف على تلك الحقبة الزمنية التي قضاها ﷺ بالوعظ والإرشاد لأغنت مكتبتنا الثقافية، ولكانت شروحاً وافية للنصوص الشريفة، وتفسير الآيات المجيدة، ولكن مع الأسف لم يكن من يلتفت إلى تلك النعمة، والحق مع من قال: «لا تُعرف النعمة إلّا بفقدها».

العنصر الثاني: الحوار والمناظرة

والحوار هو التكوين الطبيعي في ذهنية علماء جبل عامل، والذي لم

يكن مبنياً على المجاملة أو تسجيل النقاط ضد الآخر، ومن دون أن يقحمهم هذا الحوار في مهاترات إعلامية، أو تشتت في وحدة الأمة، لقد واجهوا أعقد المسائل التاريخية بكل صدق وإخلاص، والتي ما لو خرجت عن مسارها لفرضت على الأمة خيارات لن تكون في صالحها على الإطلاق، ففي سنة ١٩٥٦م ألف سيدنا المكرّم كتابه (النص والاجتهاد)، وعالج فيه كما يذكر في كتابه (مئة مورد) خالف فيها ما اجتهد به بعض الصحابة في قبالة (النص)، وعالجها بروح علمية وموضوعية، وكان كل همه أن لا يخرج هذا الكتاب عن سياقه الطبيعي، وأن يبقى ضمن إطار خدمة الحق، كي لا يمسّ خيار وحدة الأمة، ولذلك أوصى ولده السيد صدر الدين: «ستكون مقدمة هذا الكتاب بقلمك يا بني، إنني أحب أن تضعه في إطاره من سلامة القصد وخدمة الفكر، فإن محركات البحث الحقيقي في هذا المضمار قد تخفى على كثير من القراء، وقد يحولها كثير من ذوي الأغراض فيرسلونها في المدار الخطر على وحدة الأمة وألفة قلوبها»^(١٤).

ولو كان المجال يتسع في استعراض أقوال العلماء ومنهجيتهم في مشروع الوحدة الإسلامية، لتأكّدنا أن الوحدة بين المسلمين في ذهنية علمائنا الأبرار ليست مشروع علاقات عامة، ورفع عتب، وإنما اتفاق وتفاهم حقيقي يقطع الطريق على المصطادين بالماء العكر، لكن على سبيل المثال: المحقق الكركي اعترض بشدة على الشاه الصفوي عندما قتل الجند جماعة من أهل السنة، وعلى رأسهم شيخ الإسلام أحمد بن يحيى، بعد فتح هراة سنة ٩١٦هـ، ورفض استعمال السيف موضع الحوار، وعمل على منع تكرار هذه الأعمال، التي كانت من أهم الأهداف التي جعلته يسكن في إيران.

والشهيد الثاني زين الدين الجبعي، أقام علاقات عميقة مع أهل السنة حتى وصل به الأمر إلى زيارة عاصمة الدولة العثمانية (القسطنطينية) ولقاء سلطانها^(١٥).

وسيدنا المعظم قاد مشروعاً حوارياً قلَّ نظيره في تاريخنا المعاصر، وخصوصاً أنها جاءت بعد قطيعة طويلة بدأت منذ سنة ٩٦٦هـ، عندما قتل العثمانيون الشهيد الثاني في اسطنبول، حيث صنع جواً من الاستياء العام، فرض على القيادة السياسية أن تتكرر ذلك، وقد فتح الإمام شرف الدين من خلال هذا الحوار الباب على مصراعيه لاستئناف العلاقة من جديد، والعمل على تناسي الآلام الماضية والوقوف في وجه المشاريع الحاقدة التي أراد أربابها الإطاحة بالمشروع الإسلامي العام الذي يحتضن السنة والشيعنة معاً.

ولعلَّ مصر والأزهر الشريف بالتحديد كان الثقل الحقيقي للمذاهب الإسلامية، وهنا يذكر سيدنا الجليل في (بغية الراغبين) كيف بدأ رحلته باتجاه مصر، وبالتالي كيف قاد المشروع الحوارى مع شيخ الأزهر، فقال: «كانت مصر وما تزال منارة من منارات العلم في الشرق العربى والدنيا الإسلامية. يؤمها رؤاد المعرفة... وقد كانت تكافئ النجف الأشرف بأزهرها الشريف... وقد كنت أحب فيما أحب أن أزور مصر وأقف على أعلامها لأخذ العلم منهم... وظلَّت هذه الأمنية كامنة في نفسي حتى حضرها خالى المرحوم السيد محمد حسين في أواخر سنة ١٣٢٩هـ، حين زارنا في عاملة...، وقد بدأت هذه الجولة بالحضور في درس الشيخ سليم البشري المالكي شيخ الأزهر يومئذٍ، وكان يشرف على طلابه من منبره وهو منطلق في درسه، انطلاقاً يُلاحظ فيه ضلّاعته فيما هو فيه... وكان لا يفوته التعرض لأقوال الأئمة في المسائل الخلافية، ولا تفوته مدارك الخلاف، فإذا كان الحديث معارضاً جمع بينهما فيما يمكن فيه ذلك، أو رجَّح أحدهما

صادعاً بوجه الترجيح.. يتابع السيد: فبدأت مناقشته، فنشأت مودة بيننا رغم أننا كنا نجلس سوياً ونتناقش بعد الدرس، وطالت الاجتماعات بيننا، وتشعب البحث بما سجلناه في كتابنا (المراجعات)، ولو لم يكن من آثار هذه الزيارة إلا هذا الكتاب لكانت جديرة بأن تكون خالدة»^(١٦).
وأصبح كتاب المراجعات من أهم الكتب الحوارية التي لا تستفز الآخر، بل تدعو إلى حوار هادئ وعقلاني، الدافع فيه الإخلاص ونصرة الحق.

العنصر الثالث: الجهاد دفاعاً عن الحق بكل أشكاله

وفي كل مرة كان الميزان عندهم (رضوان الله عليهم) القاعدة التي أطلقها الإمام علي عليه السلام «والله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين، إلا أن يكون الجور عليّ خاصة».

وعندما نستعرض تأريخ علماء هذا الجبل، من الشهيد الأول إلى المحقق الكركي والشهيد الثاني، إلى الشيخ حسن عبدالصمد وولده الشيخ البهائي، إلى العلماء الصابرين أمام محنة الجزار، إلى الإمام شرف الدين، لوجدتهم نسخة طبق الأصل عما أسسه علي عليه السلام.

هذه العناصر الثلاثة تجسدت حقيقة بشخصيته المقدسة، فبعدما أُلّف، وحاضر، وحاور، لم يتوان عن الجهاد في سبيل دحر المحتل، وإقامة العدل، فناهض الاحتلال الفرنسي بكل أشكاله رغم المراتب التي تجرّعها جراء هذا الاحتلال، فتعرض للتكيد والقهر والتهجير، ومع ذلك لم يتساهل في نصرة الحق والوقوف في وجه الباطل.

لقد عمل رحمه الله بكل قوة حتى يعود جبل عامل مركزاً أساسياً في الدفاع عن الحق ونشر تعاليم السماء، وتوَجَّ جهاده المبرر مع المحتل

الفرنسي، إلى دعوة العلماء والقادة والناس لعقد مؤتمر ينتج عنه قرارات تضغط على الاحتلال، وتلزمه بالانسحاب، وتقطع الطريق على المصطادين بالماء العكر أو المنتفعين بوجود الاحتلال، وهذا ما أطلق عليه (مؤتمر وادي الحجير)، ولست وارد الحديث عن تفاصيل هذا المؤتمر، حيث يحتاج إلى بحث مستقل، إنما أردت أن أشير إلى دور علماء الدين وقيادتهم الحكيمة في كل الميادين، وأنهم - فعلاً - حصون الأمة.

ويصور السيد شرف الدين المشهد عندما احتشد الناس في ذلك الوادي ليعبروا عن تضامنهم، وليزرعوا الرعب في قلوب المحتلين وعملائهم، فقال: «أقبلنا والجمع كامل ومستتب، فما أشرفنا على الجمع حتى جلجل الوادي وجرجر صدهاء، وانطلقت الحناجر والأكف والبنادق تمدّ الصدى...». وبعد نصّ الوثيقة التي انبثقت عن عقد هذا المؤتمر، تمّ تفويض السادة السيد عبدالحسين شرف الدين، والسيد محسن الأمين، والسيد عبدالحسين نور الدين بالتوجه إلى الشام ولقاء الملك فيصل؛ للتأكيد على (سورية الكبرى)، والتي تضم تحت جناحيها برّ الشام وهو جبل عامل وفلسطين.

وتوجّ المؤتمر بخطاب ألقاه السيد شرف الدين في الحشود الغفيرة، وأقسم عليهم أن يتضامنوا، ويحفظوا الأمن، ويقروا الهدوء، وأن يحرصوا على سلامة النصارى، كي لا يصطاد أحد بالماء العكر.

* * *

الهوامش:

- (١) أمل الآمل ١: ١٥.
- (٢) الرحالة ابن جبير.
- (٣) دائرة المعارف ٦: ١٣٥.
- (٤) المصدر السابق نفسه.
- (٥) راجع تاريخ لبنان الحديث.
- (٦) أمل الآمل ١: ١٨٥، وحيث وصفه الحرّ العاملي: بأنه من فضلاء المشايخ في زمانه.
- (٧) أمل الآمل ١: ١٠٥ وصفه الحرّ العاملي أيضاً: أنه عالم ثقة.
- (٨) طبقات القراء ٢: ٢٦٥.
- (٩) روضات الجنات ٧: ٥.
- (١٠) أمل الآمل ١: ١٥.
- (١١) أصول الكافي - باب فقد العلماء.
- (١٢) بغية الراغبين ٢: ٤٨٣.
- (١٣) المصدر السابق: ٤٨٦.
- (١٤) النص والاجتهاد: ٥.
- (١٥) الدر المنثور ٢: ١٧٤.
- (١٦) بغية الراغبين ٢: ١٩٩.

النزعة الأدبية في فكر الإمام شرف الدين

د. حسن جعفر نور الدين (*)

ها أنا قادم إلى صور، سائح أجمع الزنابق والياسمين، وأنسج من محارات اليم وأبجدية الشطوط وشاحاً لصدري، فقد أثقله إزميل الحفارين، وأقدّ من صخور الحجير وهدير الحناجر سيف تمردي، مطلاً على الجعفرية زائراً سيدها الإمام الذي ما زال فيها يقبّ التّاريخ، وينظر بعينين قانيتين كشآبيب المطرة الأولى. ما أجمل وأعظم هذا السيد الوسيم المشرق من بين ثغور السنين، الجالس بيننا الآن، ناشراً قناديله في غرف الزهر.

كثير من رذاذ طلّه ينعش وجوهنا، ومن زيت قلبه يطرز الحنّاء، ويمسك جموح الريح، ويملاً الجرار بفاكهة الماء. أما ظلّه فهو ظل سنديانة تعشقها القمم، وضوؤه لم يشك يوماً من سأم، وأي مكرومة لم يكنّها هذا العملاق العلوي، المتأبط درع أبي الحسن، الشاهر سيف السبب الشهيد، المكتحل ببلاغة المعصومين إماماً إثر إمام.

حلفه الحق والحرية، لم يبعدهما عن ذاكرته ومفكرته، ولم تغف يوماً عيناه إلّا وقد أمن على غده من يومه، وعلى نفسه من نفسه، وخلع نفسه من دنياه التماساً لآخرته.

يدخل إلى قلبك، منذ أن تقرأ بعض كلمات له، إنه ابن المنازل المشرعة على الدين، الضاربة في كل جود، أليف الأدب المحنّى بدم الزهر،

(*) باحث، من لبنان.

خَدْنُ القمم الشَّمَاءَ، زميلُ النسور في ملاعب الأثير، يتقن التغريد على الراسيات، يطربها ويتحفها بإيقاعات اليمام، تولد الخطبة أو المقالة عنده في حرم اللغة، حيث جندها الماهرون، العقل، والخيال، والعاطفة. وهو والأدب أليفان وصديقان حميمان، يتبادلان الأقانيم، ويهرقان زيت الكلمة بعد أن يخبزانهما في شمس الأرجوان.

شرف الدين والملة، حَبْر الأمة، كان إماماً في اللغة والبلاغة والفقه والأدب والدين، وإماماً في الأخلاق والنضال والإصلاح. ومن هنا كانت عظمته، فهو أمة في رجل، ورجل في أمة، عين له مع الله، وأخرى مع الناس، وقلب مع كليهما.

وأنى اقتحمت حدائقه المشتهاة، فأنت مألئ نفسك بصور الجمال، وتكاد من غلو شهدها أن تصرخ بملء جوارحك: شهد حبٌ وحبٌ شهد، وطلّ عافية في جرار صافية.

تجدّرت في كيانه وأعماقه وطنية النقاء والصدق والتضحية، لا وطنية التزلف والتبعية والابتزاز، لذلك حمل سيف الحق، وشهر مديّة الحرية ضد الظالمين والمحترّكين، بلغة حية مهذبة، حريصة متهيبة، تزخرها مطالعٌ جمالية رائعة، وبسط مزركشة وادعة، أحيت المعاني، وقصّرت المفردات على الموجبات.

ولم تكن قوميته وتدينه أقلّ تجدراً من وطنيته، بل لعلهما أعمق وأعم، مقرونتان ببطولة هاشمية، وجهاد علوي لم يعرفا الكلال والخنوع، لذلك أرسى دعائم الحق في الشام ولبنان، وأسقط الجاهلية والقبلية والمناطقية والطائفية من على منابر صور وبيروت ودمشق والقاهرة، وردّ لعلّي ﷺ سك غدير خم في المراجعات، وأزهق عمرو بن ودّ العامري في خندق الحجر، وأعاد أحمال الحرير والأفاوية من لصوص أبي سفيان في شعاب مكة ووديانها.

ولأجل ذلك كله قاتل جندياً مخلصاً في جيش عليّ في صفين والجمل والنهروان، وحمل الماء إلى أطفال ونساء الحسين في كربلاء، ومنع السم عن الحسن بن علي، وقطع كفي جعدة، وأرجع الكبد لحمزة بن عبدالمطلب، وقتل وحشياً الحبشي في شعاب أحد، ودوّخ الخوارج في وادي الجن، وكلّف الأشر بولاية مصر، وسقى سُمّ سيف الخارجي ابن ملجم قطام ويزيد بن معاوية، وجعله مهراً لهما، وتتلّمذ على يدي أبي الحسن في جامعة البلاغة والبيان وعقر فرس أبي عبدالله محمد بن علي يوم فراره الأخير من الأندلس، وقطع بالسيف عنق ابن ملجم، وسدّ مضيق جبل طارق أمام جحافل إسبانيا الزاحفين إلى قرطبة وأشبيلية، وأحرق أعلام هولاء المغولي في ساحة الرشيد في بغداد، واستعاد من مياه نهر دجلة محابر الوراقين والمؤلفين والشعراء، وشنق جمال باشا السفاحي في ساحة الشهداء، ومزّق وعد بلفور، واغتال حلف بغداد، وحرر الأسطول السادس في مياه بيروت، وأنقذ عبدالناصر من السمّ، والحسين بن علي من صنّاع الأساطير.

كل ذلك جاء في رسائله الجامعة والمفردة، وخطبه المدوية، ومقالاته المغزية المتحفة، ووصاياہ ونداءاته، ورحلاته، وأحكامه وفتاواه، وجهاده ونضاله، وفكره النير، وأدبه الرائع، وزياراته وسيرته العامة، وسهره على شؤون مواطنيه وأُمّته ودينه، وآثاره الخالدة، وجلساته المثمرة المشوقة، واندفاعه وحميته وإخلاصه، ومنهجه الإصلاحية التوجيهية التربوي، ومبادئه ومواقفه السياسية والدينية، حتى عدّ موسوعياً جامعاً، مطالاً على الأحداث مدرّكاً لأبعادها، وكانت داره ملتقى العلماء والأدباء والشعراء، ومنتجع المفكرين والفضلاء والناس قاطبة، فذاع صيته وملأ الدنيا وشغل الناس.

وهو علاوة على ما ذكرناه، إنساني الطابع، إسلامي التوجه والتطلع، علوي القلب والعقل والمنطق، مثقف قوي الحجة، سمح في الجدل، لا يعرف في الحق لومة لائم، صلب في مواجهة الزعماء والحكام، لم يلو عنفوان سنديانه أمام إغراءاتهم، فطبق القول المأثور: إذا رأيت الملك على أبواب العلماء... فتعم الملك ونعم العلماء...

كان عمره المديد واحة خير لأمته ووطنه، فضرح أعوامه التسعين على مذبح العطاء والأريحية.

أما آثاره الخالدة، فيواقيت زمرد، وحليّ ياقوت، وعقود ماس، حسبنا منها: الفصول المهمة، والمراجعات، والنص والاجتهاد، وأجوبة موسى جار الله، وبغية الراغبين، والمجالس الفاخرة، والمسائل الفقهية، عدا من المؤلفات التي أحرقها المستعمرون وعملاؤهم عندما دمروا منزله ومكتبته القيمة في صور، تُتَوَجَّها المؤسسات التي أقامها باسم الدين والعلم والأدب، خدمة للدين والمجتمع.

أسفار خلاقة رائعة في مسيرة الإسلام العظيم، ما زالت وستبقى نجعة المريد، ومتعة المستفيد، وتحفة القريب والبعيد، ومنجى الضال والشريد. ولشغفي بالأدب شعره ونثره، آثرت أن أنس وأشم عبير صباحاته الأدبية، أعبُّ منها ما لذ وطاب من نثير لغة، ونقاء حروف، وصحوة بيان، ونضارة تعبير، وصلابة معنى، وسمو عاطفة، وإنك لقاطف مثلي إن فتحت قوارير عطره، ومسالك فرحه وجمالياته...

كان يزداد تقديري وإجلالي لهذا الشهم العملاق كلما أوغلت أكثر في كرومه الممتعة، ولاحت لي بلاغته تفرش لي بسطها السندسية، وفصاحته تزيدني عشقاً بهذه اللغة الحية، وكل ذلك من خمائر نشأته ونضجه وطفولته، كما أنها أسُّ في ذاته، وحلية في أعماقه، وإرث من

تاريخه الديني والعلمي والأدبي، صاغته طيوب النهج ولآلى الهدى الرسولي، وفصاحة آل البيت المكرمين، فهو سليلهم وحفيدهم وحامل أماناتهم، تحكي عنه خطبه الهدّارة المقطوفة من كروم صفين والجمل والنهروان، ومكة والخندق، والمشتربة من صباحات وأماسيّ الجمع والأعياد في مساجد مكة والمدينة والكوفة وكربلاء.

اللون هو نفسه، والمذاق هو هو... والصبغة حلية هذا المنجم المعتقد بحلاوة السبك، ومثانة التعبير، وأريحية الهدف، ولعل هذا كله دفع بالأديبة اللبنانية (مي زيادة) إلى الإفصاح عن تقديرها وإعجابها بالسيد الإمام وبلاغته، بعد أن سمعته يرتجل خطبته من على أحد منابر القاهرة، وهو يدغدغ خاتمه في أنملته: «لا أدري هل الخاتم أطوع إلى بنانه، أم البيان أطوع إلى لسان»^(١).

وشغفه بالأدب والبلاغة، كما قلت، رافقه منذ صباه، ومطالع شبابه، وقد تجلّى ذلك خلال دراسته في النجف الأشرف والتي استمرت اثنتي عشرة سنة.

وقد احتفى وشغف آنذاك بكتاب (المطول للتفتازاني)، وهذا ما أشار إليه السيد هادي الصدر، حيث قال: «أما في العلوم العربية فكان مما لا يُجارى فيها، ولا سيما في علمي المعاني والبيان، إذ بان شأنه فيهما، كنت اتصبح بضوئه فيما لم أهدأ إليه من معضلات المطول، فيهديني إليها بنور بيانه، وسطوع حجته، فإذا هي كالشمس في ريعان الضحى...»^(٢).

وتلك لعمرى ملكة الأديب وعدته الحية، ولم تقتصر هذه البلاغة على خطبه ورسائله، وتوجيهاته التربوية والأسرية، والأخلاقية التي كان يملئها إملاءً أو يرتجلها، فتأتي متناسقة مبوبة، بعيدة عن الإيغال والحشو والاستطراد، إنما انسحبت على نتاجه الفقهي والعلمي أيضاً؛ لأن البلاغة

أضحت تسري في قلبه وعقله كما يسري الدم النقي في الشرايين... وكان شديد العناية بعباراته، حريصاً على تقديمها موزونة خضراء، ذات جرس موسيقي عذب، مصبوغة بعاطفة شامخة ذات أهداف وأبعاد وليست فوضوية فتدمر، ولا جافة فتتفر، إنما هي متوازنة تتلاءم مع المصلحة العليا، وليس مع الميل الأعمى، والتعصب المقيت، وهذا عائد إلى حسّه الفني المرهف، وتربيته الموجّهة، وميله الجارف، وموهبته الخلاقة. كان كما وصفه سماحة السيد محمد الصدر: «يعرض الجملة على حسّه المرهف، قبل أن يفرغها، ثم يملئها على كاتبه بعد أن يرتضيها، ولها رنين وجرس كأحسن ما يمكن أن يكون للشعر القوي من حسن وروي...»^(٣).

كيف أنجز هذا السيد الهمام ما أنجز؟ وكيف توافرت له تلك الخصال الأدبية العالية في هذا النتاج الخلاب لو لم تكن له قامة النسر، وقلب الليث، وعزيمة السنديان؟! ملأ رثتيه من نسيم الغري، وتغذى من مائدة الإسلام العظيم، وشرب من نهر التوحيد. ذاك ما نجده في نتاجه الأدبي عبر رسائله المحنّة بدم وجدانه، وخطبه المدوّية الرقراقة في آن معاً، وأحاديثه المشبعة بروح الجرأة والمثالية، وآرائه السديدة المسددة.

أما رسائله وعمدتها النثر، وهو فيها مجلّ سباق، ذو نكهة ومذاق، لا يغربا عن بال، كما أشار سماحة السيد محمد الصدر في مقدمة له عن السفر القيم (النص والاجتهاد): «ولنثره طابع خاص يميزه عن غيره، حتى ليكاد الخبير أن يعرف نثره قبل أن يطّلع على اسمه الكريم»^(٤).

وتكاد رسائله المختلفة أن تلتقي جميعاً عند أسلوب واحد، عمدته الرشاقة والموضوعية والجمالية في آن معاً، وتتضح فيها مهارة السيد في

تقديمها وإخراجها، بحيث تفضي إلى غايتها المنشودة وهدفها الأسمى، على متانة في السبك، ومراعاة لمقتضى الحال، وتواصل مع السجع والطباق. مقاطع أدبية في وجهيها الظاهري والباطني، تتجلى فيها آداب الأبوة الصارخة، وذلك عبر هذا البوح الأبوي العذب، يرسله السيد الإمام إلى أولاده واعظاً هادياً:

«تعلموا العلم، فإن تعلمه خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد». ثم يقول لهم: «كونوا إخوة بررةً متناصحين، رحماء بينكم، وعليكم بصدق اللسان، ومعاشرة الناس بالمعروف. صلوا من قطعكم، فإنه لا يحق لامرئ أن يهجر أمراً ثلاثة أيام، وما اختلف اثنان فسبق أحدهما الآخر إلى الصلح، إلا كان أولاهما بالفضل، فإن عاد فعودوا إلى ما يرضيه، وأعطوه العتبي حتى يرضى. ولا تتاجشوا ولا تحاسدوا»^(٥).

ما أروعها من أبوة مثلى، وتربية فضلى، هي أريحية من جده عليّ، في رسائله ووصاياهم إلى أهله وجنده وولاته، تفيض بالدعوة إلى التسامح والمحبة والإخلاص، في لغة متينة جميلة، ومعان هي من صلب الشريعة الإسلامية وقيمها السماوية.

هذا ما يتكرس في ما قرأناه، أدب الأبوة والبنوة، وأدب الأخوة والتعامل الأسري، حتى إن السيد الإمام يعرض لجوانب من الأدب التربوي، وأدب الأخلاق والتعامل، وهل أروع منها رسائل أدبية موجهة محكمة، تبني الإنسان خلقاً وخلُقاً، تدخل إلى قلبه وعقله، وتخاطبه بلغتين، المنطق والعاطفة، وترش عليهما من ألوان الجمال ما لذ وطاب.

ولا ينسيه الحرص على جمالية الأدب وبلاغة التعبير، الاهتمام بدقائق الأمور وجزئيات القضايا؛ لأنها جميعاً أساس في حياة الإنسان.

وهذا الأسلوب الإنشائي، وهو من أوجه جمالية النص، يطلع علينا في كل رسالة، وهذا يتوافق مع طبيعة دوره الريادي والقيادي والديني. فاسمعه في هذا النداء الوجداني الموجه، يخاطب ابنه صدر الدين عندما بلغ الحلم، أمر قلماً يلتفت إليه امرؤ أبدأ: «بلغني بلوغك الحلم، فبورك لنا ولك في ذلك، وهي نعمة يجب أن تقدرها حق قدرها، وتقوم بأعباء شكرها، إذ أسعدك الله بالتكليف، وشرّفك بخطابه المنيف.. الله الله في نفسك، تداركها قبل أن تتدنّس، فإن كانت قد سوّلت لك أمراً، أو همّت بك على شين، فهذا شهر رمضان، فلا تضيع فيه التوبة من قريب».

ويتابع ﷺ في موقف مسؤول أمام الله، موقف قلماً نجد له مثيلاً في أدبنا المعاصر، يقف فيه بثبات أمام عاطفة أبوية، ومسؤولية آنية ومستقبلية، ويوازن بينهما في أسلوب رقيق عذب، تميز فيه الألفاظ في ثوب من البيان الشفاف:

«أي بني، أنت الآن في نجوة من المعاصي ومنتزح عن الذنوب، فاربأ بنفسك عنها.. صحيفتك اليوم نقية يا بني، فلا تدنسها بالمنديات، ولا تشوهها بالموبقات...» (٦).

ولعمري، نعم الموجه والمربي والعالم النفساني الاجتماعي التربوي هو، وما أرقى هذه العاطفة الأبوية الحريصة المدركة، تتغلغل في ثنايا السطور، مشبعة بالمحبة والأمل المشرق، ودائماً يتحفنا سماعة السيد بعبارات بلاغية من النوع الثقيل.

فاستمع إليه يقول في رسالة لولده البكر محمد علي: «لقد رهقني من فراقكم أمر صعب، وقاسيت منه نصباً، وشرّيت كأسه دهاقاً، ومع ذلك أجد به برد كبدي، وقرّة عيني، تقديماً لمصالحكم، وإيثاراً لمستقبلكم...»

أي بني، أوغلوا في البحث والتنقيب، واستفرغوا الوسع في التحقيق والتدقيق، واستتبطوا دخائل العلم، تستجلوا مخبّأته، وتهتدوا إلى أسرارها، ولا تقبضكم الهيبة عن المناظرة والسؤال والاستقصاء.

واصبر نفسك لمن هو فوقك في العلم، ولمن هو دونك، فإنما يلحق بالعلماء من هو دونهم»^(٧).

هذا الأدب الراقى هو هو... ديدنه وسمته، ونكهته التي تزدريها هنيئاً من مطالع السطور وعاطفته الأبوية الحانية التي لا تضعف أمام الواقع والمراد، والمرتجى والمستفاد، وحكمته وموعظته التي تؤسس لمستقبل مشرق لا يعرف الهوان.

وفي كل ما قدم امتزج عقله بقلبه، دون أن يطغى أحدهما على الآخر. يتدفقان معاً، فيحيلان القراطيس مساكب زمرد.

ويا لفرحة العارم يصبه أقواس رضى وإطمئنان وحب وإعجاب، عندما يرى ولده السيد جعفر يحتضن الجعفرية بعينه، ويقدم للوطن راية من عرق وعنفوان:

«لله عزائمك الهاشمية ونهضتك بالجعفرية، بعد أن أنشأت ما أنشأت، وبنيت ما بنيت، على أنك صفر اليمين، لا تملك سوى القرض والدين.

وقد أكبرت همتك وفتوتك، إذ رايتك أمة حية مؤتلة بأسباب الظفر عدة وعديداً، حزماً وحكمة.

ولله ذاك البيان المبين، فقد قرأتك في سطورهِ متقد الذهن، رابط الجأش مندفعاً كالسيل الآتي، حتى بلوغ الغاية»^(٨).

وقد بلغ الغاية، وبلغت مكانم الجمال في أدب جم القيم، وعندما رأى الجعفرية صرحاً يعانق السماء، انطلقت أهاريج الفرح والرضا في نفسه

الطاهرة، في مقالة أدبية عن هذا الصرح العلمي الشامخ:

«كانت واحةً فيها من كل حسن معنى، ومن كل عطر شذى، ومن كل قوة مظهر، لم تكتف بسلامتها من محيطها الوبيء، حتى خلعت عليه مطارف الحياة والصحة، فجرت في المناقع سلسالاً دافقاً، وفي الأجادب نماءً وارقاً، وفي السباخ خصباً خصباً»^(٩).

كما يقول الشيخ عبد الله العلايلي في الموضوع نفسه:

«وهذا صرح في حنية منه عقل، أو استشراف لعقل، وفي حنية منه تقوى، أو نزوع لتقوى، وفي غير هيكليهما لم تكن ولادة إنسان جاء على يد الله»^(١٠).

بهذه السطور المكثفة الغنية العذبة، يقدم السيد الإمام الجعفرية مؤملاً للأدب والثقافة والدين، وها هي مولاي كما عهدتها على العهد والوعد، منارة للعقول والقلوب.

وهكذا فمعظم رسائل السيد مختصرة مكثفة، يحرص فيها على مصالح المجتمع والناس وخيرهم ودينهم، ويحضُّ على تعاونهم، ويسدي النصيح والموعظة للحكام، ناثياً بنفسه عن الانحناء لزعيم مهما كان شأنه، وقصته مع شاه إيران معروفة، إذ استنفذ العاهل الإيراني خلال زيارته لبنان كل محاولاته الرامية إلى زيارة الإمام والسلام عليه دون جدوى، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أريحية السيد وعصاميته، وعنفوانه الذي يجب أن يحتذيه كل عالم مسؤول.

وإذا كانت الرسائل الأبوية العائلية التربوية تتضح بعاطفة الحرص والحب والرعاية، فإن رسائله السياسية تكشف عن عظيم اهتمامه بأمور الناس عامة، ومتابعته لقضاياهم بروح المسؤولية والشجاعة والجرأة الأدبية الحقّة.

فرسالته إلى الشيخ بشارة الخوري سنة ١٩٤٩م - وكان آنذاك رئيساً للجمهورية اللبنانية - رائعة، تفيض بروح الحكمة والمحبة والتضحية والحرص في آن معاً، وهي صرخة عتاب ولوم وتقويم، أتت بعد أن جرد الرئيس حملة عسكرية على عشائر الهرمل في شهر أيلول سنة ١٩٤٩م، ومما جاء فيها: «لن تُسرح الخيل العرب، وتشرع الأسنة والحرب؟ فعشائر الهرمل لم يخرجوا على طاعة، ولا فارقوا الجماعة،... ألهؤلاء... وهم أباء ضيم، لا يبيتون على خسف، ولا يقيمون على هوان.. في عصر تفتحت على نوره الأبصار، واغترف منه لبنان، حتى غدا قبلة الأنظار، دون أن يصيبهم صيب من ديمته، أو فاضل من نعمته..».

ثم يلفت السيد نظر الدولة إلى هذه المنطقة المحرومة المنسية، في الوقت الذي ينعم فيه لبنان بالحبوحة: «فجّل ما عندهم الجهل والفقر والمرض، حتى أصبحوا بين نارين، نار الحكومة الموقدة، ونار أوضاعهم الموصدة»^(١١).

ويظهر جلياً شغف السيد ﷺ بألوان السجع والجناس ومطابقتها للمعنى، وهذا دليل ساطع على حسّه الأدبي الجميل، وأروع ما في هذه الرسالة قوله الدامغ:

«ألا أعدتم النظر يا فخامة الرئيس، في أسلوب تأديب الجامحين.

ألا ترون أن تغزوهم بجيش من التسامح، تريشون به جناح الوطن المهيب، وتشفون جنبه المريض؟

ألا ترون أن إعمار المدارس والمستشفيات يغني عن إعمار السجون والقبور؟ وشق الشوارع والطرق يغني عن شق الجيوب والصدور؟»^(١٢).

جميلة هي اللفات الاستعارية العذبة، وهذا البوح الاجتماعي الإنساني، ناهيك عن هذه العاطفة الجياشة المحبة والحريصة والعادلة،

يحملها لأهله وأبناء مجتمعه، عاطفة الأب والمرشد والموجه، يدلُّ المسؤولين على هفواتهم وواجباتهم بأسلوب قوي وهادئ.

وجبل عامل كان في قلب السيد، يحمله ألى ذهب، دفتر ذكريات وتواصل، أليس هو روح لبنان ووحيه؟ كما ورد في رسالته ﷺ إلى الشيخ بشارة الخوري، إثر اعتداء الصهاينة على الجبل العاملي:

«هذا الجبل المرباط، يدفع جزية الدم لشذاذ الآفاق، من كل من لفظته الأرجاء، ونبذته الأرض والسماء، هذا الجبل.. يدفع الغرم، ومن الغنم يحرم».

ثم يخاطبه بلهجة لا تخلو من قسوة ولوم: «فإن لم يكن من قدرة على الحماية، أفليس من طاقة على الرعاية؟ وإذا لم تؤدِّ الحقوق، فلماذا يستمر العقوق؟» (١٣).

ثم ينهي بالضربة القاضية وبلهجة لا تحتمل التأويل: «وإذا قرأتم السلام على جبل عامل، فقل السلام عليك وعلى لبنان» (١٤).

مولاي، بوركك هذه الأنامل التي خطت ما يعزُّ به الجبين، في لغة عالية راقية، وبلاغة ناصعة، وأدب جم، أولست سليل المرتضى سيد البلغاء؟

هي حتمية ما أحوجنا نحن إليها، أن يكون رجل الدين رجل الشعب، رجل الحق، وسيف الحق على المتمردين والظالمين، ليكتمل دوره في خدمة الناس وحماية الدين.

ولست أدري، إن كانت هناك عاطفة وطنية وإنسانية أرقى من هذه العاطفة، تعتمر قلب السيد، يؤازرها بيان فذ، وفكر رجل عرك اللغة، فطوعها بين يديه كما تطوع العجينة في يد عجان.

كنت أو اصل قراءة السيد وأنا أعاتب نفسي، لأنني لم أقرأه من قبل عن قرب وبعمق، أشعر وأنا أتابع أنه كان الأب والصديق والمصلح والقائد، والمسؤول الصادق والمؤمن آنذاك، وبأنه رجل المرحلة، ونادرة هي العمائم التي تقف بعنفوان وإباء، تحمي موقعها أمام السلطة والسلطين.

وهو إلى جانب ذلك أديب فذ، يذوب دماثة وثقة في ثانيا كلماته، وفي كل ميادين كتاباته، ففي محاربيه أدب عذب تحسّ به عميقاً، وتشعر أنه يأخذك بالأعناق، أدب لم ينجح إلى الحوشي والعويص والصعب، إنما سلك أسهل الطرق وأجملها في آن معاً، سلك السهولة والعمق، القوة والليونة المحببة، ووضع الأدب في إطار مهمته التي لا تقتصر على خدمة الذات، إنما على خدمة الجماعة والحرية، والوطن والدين.

ولعل أهمّ رسائل السيد، تلك التي تبادلها مع إمام الأزهر الشريف آنذاك الشيخ سليم البشري، وهي ذات طابع علمي، إنما جاءت في قالب أدبي جميل، وقد أشار إليها سماحة السيد محمد الصدر قائلاً: «وهي آية من الآيات، ومعجزة من المعجزات، ببيانها وقوة برهانها وشرف هدفها».

ويقول السيد شرف الدين في شأن المراجعات: «وعلى هذا جرت مراجعاتنا ومناظراتنا، وكانت خطية تبادلنا فيها المراسلة إبراماً ونقداً، فجئته (شيخ الأزهر) بالحجج الساطعة، لا تترك خليجة ولا تدع وليجة، فقابلها بالذود عن حياضها لا يألوني ذلك جهداً ولا يدّخر وسعاً»^(١٥).

ولو أخذنا فصلاً صغيراً من كتاب المراجعات، لوقفنا على حقيقة لغته وأسلوبه وطبيعة منهجه، يقول في المراجعة الثانية عشرة، وهو يخاطب مناظره البشري بلهجة العالم المهيب الواثق المتواضع، المبرز في الميدان، المسيطر على شروط الرهان: «إنكم - بحمد الله - ممن وسعوا الكتاب علماً، وأحاطوا بجليه وخفيه خبراً، فهل نزل في آياته الباهرة في أحد ما نزل

في العترة الطاهرة؟ هل حكمت محكماته بذهاب الرجس عن غيرهم؟ وهل لأحد من العالمين كآية تطهيرهم؟ هل حكم بافتراض المودة لغيرهم محكم التنزيل؟ وهل هبط بآية المباهلة بسواهم جبرئيل؟

هل أتى (هل أتى) بمدح سواهم لا ومولوا بذكرهم حلاها
أليسوا حبل الله الذي قال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (١٦).

بمثل هذه السيول الهدارة يمضي في منافحاً بأدلة لا تقبل الدحض، وبيراهين مستقاة من كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه، وبأسلوب جمّ البراعة والقوة، ودرر منضدة عقداً، وبين منشور شهداً، وبعاطفة فياضة تصدر عن وعي وإدراك. ثم يقول في نهاية المراجعة بثقة الباحث المطمئن:

«خذها في سراح ورواح ينفجر منها عمود الصباح، خذها رهواً سهواً، وعفواً صفواً، خذها من خبيرٍ عليه سقطت، ولا ينبؤك مثل خبيرٍ والسلام» (١٧).

ولعمري... أي بيان هذا الذي يضيء الصفحات، وأية مسحة جمالية، ومقالع سجعية، وقبسات استعارية وتشبيهية، وتوريات وتضمينات تُبدع النص، وتشكل جميعها نسيجاً رائعاً بلاغياً خلافاً أبدعته يد فنان ملهم. بل، أي موقف شجاع، ولسانٍ ذرب، ومنطقٍ سديد، وحجة دامغة تترقق في ثوبها السندسي.

وإني لأحدس السيد الإمام على مآتيه وفتوحاته الحوارية الرائعة، وكيف لا أحسده وهو يدبج في العترة الطاهرة آيات هذا البيان؟
نعماً لك أدبك الحوارية الديني المشرق، عقود ماسٍ ستوشح صدرك في سدرة الخلود، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

ذلك دأبه في كل مراسلاته وكتبه، رضع البيان طفلاً، وزقّ البلاغة زقاً، أليس جده عليّ أمير البيان؟

ويذوب سماحته حباً، وعاطفته رقة وعذوبة عندما يرسل مواسياً مطمئناً، كما حصل عندما راسل الشاعر الكبير بولس سلامة صاحب ملحمة الغدير، حيث قال: «لله أنت حبيب قلبي وقرة عيني، يا فتى المسيح وداعة، وبطل محمد شجاعة، والثائر للشهيد عليّ والحسين.

مضتني والله جراحاتك، فإذا بقلبي الجريح وطرف في القريح، وإذا روحي معذبة بقولك:

قطعته الآلام عضواً فعضواً وتلظى اليأس المرير بدائه
فمهلاً مهلاً.. لتكون أسوء كما كان من بكيته وندبته بقولك:
يا سليل المطيبين جدوداً يفضح الشمس عزّة وانتماء^(١٨)

إنها العاطفة الصادقة بلا ريب، تكشف عن وجدان نقي، وأدب غني، وشعور سخّي، وقلب طاهر أبيّ، وإنها على كل حال من أدب الأخوة والصدقة، والجيرة الطيبة، والتعايش الأخوي الخلاق.

هذا الأدب الراقي هو هو... ديدنه وسمته، ونكهته التي تزدريها هنيئاً من مطالع السطور، وعاطفته الأبوية الحانية، التي لا تضعف أمام الواقع والمراد، والمرتجى والمستفاد...

ذلك في فن المراسلة، وقد أثبت أنه فيها علم يخفق في سماوات الإبداع والبيان، أما في فن الخطابة، فهو فارس لا يشق له غبار، فاسمعه في هذه الخطبة العاصفة منبهاً محذراً، داعياً أبناء الأمة إلى التآلف والوحدة، في موقف شجاع يندر أن نجد نظيراً له، هذا ما رددت أصداؤه آفاق وادي الحجير إبان المؤتمر الحدث في ٢٤ نيسان سنة ١٩٢٠م:

«إخواني أعلام الأمة، إننا اليوم في هذا المفترق الخطير، أشدّ حاجة

من إي وقت إلى الاعتصام بحبلهم، والسير على نهجهم - يعني أئمة أهل البيت عليهم السلام - فأما عزة لا تقصم، أو ذلة لا ترحم، أما حياة حرة، أو هوان تهدر في حماته إنسانية الإنسان، أما استقلال دون وصاية، أو استعباد نكون معه كالأيتام على مأدبة اللئام»^(١٩).

ما أشبه الأمس باليوم! وما أحوجنا لمثل هذه المواقف الخالدة! وأية لغة راقية هذه اللغة، تتأزر عباراتها كالبنيان المرصوص، في سمو موقف ونبل هدف، ورقي غاية وعلو همة، أملاً بغد كريم ليس فيه ضعف وهوان. إنها العاطفة القومية الهدارة، غيرة على الوطن والأمة، وحرصاً على وجودهما، وأملاً بتحررهما وانعتاقهما من ربة الاستعمار...

ويستمر عليه السلام في هذه المقالع الزبرجدية الخلافة من أدب الأهل والقوم، تكتمل فصولاً في مواقف مستقاة من مواقف جده علي عليه السلام. فاسمعه في هذه الصرخة العملاقة الفارعة:

«يا فتیان الحمیة المغاوير، الدين النصحية، ألا أدلكم على أمر إن فعلتموه انتصرتن، فوّتوا على الدخیل الغاصب برباطة جأش فرصته، واخمدوا بالصبر الجمیل فتنته، فإنه واللّٰه ما استعدى فريقاً على فريق إلاّ لیثیر الفتنة الطائفية، ویشعل الحرب الأهلية، حتی إذا صدق زعمه، وتحقق حلمه، استقرّ في البلاد تعة حماية الأقليات».

ثم يدعو إلى التسامح الديني ونبذ الطائفية البغيضة، رداً على ما كان المستعمر يحوكه تحت جنح الظلام..

«ألا وإن النصارى إخوانكم في الله، وفي الوطن، وفي المصير، فأحبوا لهم ما تحبونه لأنفسكم، وحافظوا على أرواحهم وأموالهم، كما تحافظون على أرواحكم وأموالكم، وبذلك تحبطون المؤامرة، وتخدمون الفتنة»^(٢٠).
صيحات من صميم القلب في أداء متمرّس فنان، يرسم الخطبة

بالألوان، ويجري أصولها بمهارة ولباقة، أليس هو الأدب الأخلاقي والعاطفة الدينية الراقية؟

وما أروع ما قال، سطور ذهب تشك عقوداً في القلب، وسمط بلاغة خزانة العقل والذاكرة، وكأنه يحتطب من نهج البلاغة ويفترع من شجرة القرآن.

«أيها الفرسان المناجيد.. ألا وإن جبل عامل بعد هذا المؤتمر بين أمرين:

عزّ لا تتفصم عروته، ولا تقرع مرّته، أو ذل تهاوت معه كواكب السعد، وتقوّضت فيه سرادق المجد.. فإذا غلبكم الهوى، فلتكونن مذقة الشارب ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، أمام قوة العدو» (٢١).

وها نحن اليوم نتوق لمثل هذه الصيحات، يطلقها ذوو فطنة وروية، يختزنون العبقرية الأدبية والفكرية، ويتلمسون طريق الجهاد والخلاص لأمة تحاك للإيقاع بها المؤامرات، يستضيئون بأنوار السيد الشامخة، وحسّه البلاغي المتجدد، ودعوته الإصلاحية والدينية.

إنه النضال بعينه، والأدب الملتزم الإصلاحي، والحكمة المثلى، والبلاغة المرشدة.

كان قلبه يتحدث، وجوارحه تنطق، وعواطفه الحية المتوازنة الموجهة تبسط أجنحتها بحنان وثقة..

مولاي.. قلبك كان على فلسطين، وأعلم تمام العلم أنك اليوم تعيش غصة هذا الحاضر، وتحزن لأن الأمة لم تسمعك عن قرب عندما قلت سنة ١٣٦٧هـ:

«ولنكن نحن من فلسطين مكان الحسين من قضيته، ليكون لنا وفلسطين ما كان له ولقضيته من حياة مجد وخلود.

ثم يقول في أحد نداءاته: «أيها العرب، أيها المسلمون، لقد حُمَّ الأجل، وموعدنا فلسطين، على أرضها نحيا، وفيها نموت.

والسلام عليكم يوم تموتون شهداء، ويوم تبعثون أحياء» (٢٢).

وما زلنا نردد اليوم معك وأنت في عالم الخلود هذا النداء العميق: «موعدنا فلسطين»، اليوم أو غداً أو بعد غد، نكون معها كما كان الحسين مع قضيته وإن تباطأ المتباطئون، وتخاذل المتخاذلون.

وفي قمة تجليهِ ورغبته في إرساء قيم الألفة والتسامح، ونبذ الطائفية، يطلق السيد خطبته الأدبية التوحيدية العصماء في الجامع العمري الكبير ببغروت سنة ١٩٤١م، وهي أحد وجوه نضاله الحيوي:

«الحذر الحذر، أيها المسلمون من هذا الخطر، وأي خطر أدهى من أن تبقى الفرقة فرقاً، والوحدة مزقاً، والألفة أشتاتاً، والنفوس أمواتاً..

فلا تقولوا بعد اليوم: هذا سني وهذا شيعي، بل قولوا: هذا مسلم، فالشيعة والسنة فرقتهما السياسة، وتجمعهما السياسة، أما الإسلام فلم يفرق ولم يمزق» (٢٣).

ثم يقول في الفصول المهمة: «لا تتسق أمور العمران.. ولا تبزغ شمس الدعة. ولا نرفع عن أعناقنا نير العبودية بيد الحرية إلا باتفاق الكلمة..

أما إذا كانت الأمة أوزاعاً.. لتكونن حيث منابت الشيع، ومها في الريح، أذل الأمم داراً، وأجذبها قراراً، ألا من له أذنان فليسمع» (٢٤).

ذلك كان أملك، وحلمك الأكبر، وهي أحلامنا أيضاً وقدرنا، أن نرى المسلمين والعرب عامة موحيدي الأهداف والآمال، متعالين عن الأنانية والطائفية.

كان قلبك يتحدث، ومشاعرك الحية تنطق، وأدبك المتحفز يصوغ عبارات الحب والتسامح، بأسلوب العقل والمنطق والشعور الإنساني العميق:

لأنك كنت تعلم ونعلم جميعاً، أننا لن نتصر على قوى الشر والاستعمار والصهيونية، إلا بتوحيد النفوس والطاقات.

ويلح السيد الإمام على الفكرة نفسها في مكان من «الفصول المهمة»: «والغرض بعث المسلمين على الاجتماع والتنديد بهم على هذا النزاع. فليثق الله أهل الشقاق، ولينهض رجال الإصلاح بأسباب الوثام والوفاق، فقد نصب الغرب لنا حبائله، ووجه نحونا قتنبه، فلئن لم يعتصم المسلمون بحبل الاجتماع، ولم يبرؤوا إلى الله من هذا النزاع، ليكونن أذلاء صاغرين، وأرقاء خاسرين» (٢٥).

إنه المهاجر الذي رافق حياته، فالوحدة الإسلامية أملة الذهبي. وقد لاقت مواقف السيد الإصلاحية صدىً رائعاً في نفوس أعيان الأمة، فأشاد إمام الأزهر الشيخ سليم البشري بها وبمطلقها قائلاً:

«أشهد أنكم في الفروع وفي الأصول على ما كان عليه الأئمة من آل الرسول، وقد أوضحت هذا الأمر فجعلته جلياً، وأظهرت من مكنونه ما كان خفياً.. وكنت على لبس فيكم لما كنت أسمعه من إرجاف المرجفين، وإجحاف المجحفين، فلما يسر الله اجتماعنا، أويت منك إلى علم هدى، ومصباح دجى، وانصرفت عنك مفلحاً منجحاً، فما أعظم نعمة الله بك عليّ، وما أحسن عائدتك لديّ» (٢٦).

ونلمس هذا التأكيد من المفكر الإسلامي الشيخ محمد رشيد رضا الذي أشاد بالروح الإسلامية العالية التي يتمتع بها شرف الدين (٢٧).

ويطلق عبدالعزيز سيد الأهل، وهو من أدباء مصر الكبار، صرخة تأييد وإشادة بمواقف السيد التوحيدية، مكبراً مجلاً روحه الأدبية الخلاقة: «الإمام يدافع عن روح الإسلام وتعاليمه، وعن عامة المسلمين وأئمتهم» (٢٨).

وتينع الثمار، ويأتي الجنى أكله المبارك، عندما أقرّ الأزهر الشريف برئاسة إمامه الشيخ محمود شلتوت تدريس المذهب الإمامي أسوة بسائر المذاهب في كليات جامعة الأزهر.

إنه زرعك أيها السيد، وغرس يديك المباركتين، شتول دعوة التوحيد..

وهي مروج خضراء ملوَّحة بالعافية، وسطور خطيب صُكَّت بالدهشة، تسير مترققة عذبة متماسكة، ترتسم جميعها في عباراته الجزلة، وأسلوبه الرقراق الجميل، ومهارته اللغوية، وبيانه الراقي، وبلاغته المرتسمة في ثنايا الصور.

نعم، كان المنبري الأملعي المفوّه، والمحدث اللبق، والمتقف اللطيف، شهم التعامل، وإذا التأم مجلسه فهو مدرسة فكر ودين، ومنتدى أدب وفكاهة، ومعدل حب وتسامح.

وما زالت منابر بيروت وصور ودمشق وفلسطين والقاهرة والحجاز والعراق تذكر ذلك السيد المقدام، وما زالت أصداء خطبه ومواعظه تعطر الآفاق، وترن في سمع الدهر، أوّما يذكر معي أبو الهول عندما نزل نيله الساحر عربي صميم، لم يعرفه آنذاك؛ لأنه قصده متنكراً بالكوفية والعقال، وما لبث أن ارتقى المنبر في احتفال حاشد في القاهرة، صادقاً بعزيمة وقادة:

والبيت من قصيدة للسيد حيدر الحلّي:

إن لم أقف حيث جيش الموت يزدهمُ فلا مشيت بي في طرق العلى قدم
وقبل أن يتابع، تعالى التصفيق مدوياً في سماء القاعة محيياً رجل
البطولة والجهاد^(٢٩)، فكان في خطبته آنذاك فارس منبر لا يجارى، عذب
الألفاظ، جزل العبارات، مشرق الديباجة والبيان، يتحدث وهو يدغدغ

خاتمة بأنملته، مما أدهش الأدبية العربية مي زيادة، فأفضت بما سلف وأشرنا إليه، ودلت على البيان بالبيان^(٣٠).

ولا عجب في ذلك، فلمنابره البليغة، وأساليب إشاراته البارعة أكبر الأثر في تحقيق إصلاحه المشنود، فللسيد مقام خطابي يغبطه عليه خطباء العرب، ويعتز به الدين والعلم والأدب.

ومن فواضل أدبه الجم، أدب الرحلات، والذي يفىء تحت عباءته أدب الوصف، لقد كان من حسن حظ الطبيعة التي زارها، أن تحظى بعيني إمامنا وخياله، وأدبه العذب الجميل، لتتمايل أمامنا بحلها السندسية التي ألبسها إياها.

كان له عين مؤرخ ترصد، وخيال شاعر يموسق الجمال، وعقل عالم، وقد استعمل هذه الأسلحة كافة في اصطياد اللآلئ من صور الحياة. خذ هذه اللوحات الوصفية الخلاصة، إلتقطتها (كاميرا) السيد البصرية من نافذة السيارة التي كانت تقله في رحلته إلى إيران، وقد مر في قرיתי (قرلباط) و (كرند) على الحدود العراقية: «قرلباط: تسنح لنا في عرض الطريق سفوح الجبال المجهولة في الصحراوات المسحورة. فهذه واحة ترتفع هاماتها بالأشجار الفارعة، والنخيل السامق، تخبئ أفنانها قرية من القرى العراقية المتواضعة، ولكنها ما تلبث أن تغيب وراءنا في خضم الصحراء، تتحدر إلى منخفض»^(٣١).

ثم يضم (كرند) بمقلتيه وإحساسه الأدبي المعبر: «فاندفعنا نمر نحو (كرند) بين هضاب بعضها فوق بعض، نهبط مرة ونعلو أخرى، في طريق جبلية أعادت إلينا ذكريات من عاملة.

وللجبال خصائص من الجمال، لا يحسها غير الناشئ بين القمم، والسفوح والأودية، فإذا (كرند) تخبئ تحت جناح هضبة خضراء، تحنو

عليها بظلالها وأندائها، وتحبوها بأعطارها وأشدائها، وتحضنها احتضان الأم الرؤوم لطفل يحس دفء الأمومة» (٣٢).

وتترقق أمامنا هنا جمالية النص، وانسيابه الرائع، ففيه من فتون اللغة وأبهة التعبير نصيب كبير، وتلك لعمري تدل على شفافية هذا السيد الهمام.

وعندما تعطر وجهه بالنسيم النبوي في عرين الرسول مكة المكرمة، أم القرى وحاضنة الوحي، إنسابت من قلبه وشفثته عبارات الإيمان والاطمئنان، في أداء أدبي وصفي رائع، حيث قال:

«أقبلنا في مهبط الوحي، فأقبلت علينا منه معالم التاريخ تتواكب في ذلك الأفق الكريم، وتبعث منه أرواح السماء التي كانت تنزل على سيد البشر في تلك الشعاب الرفيعة من مهد الرسالة الغراء، ومهد النبوة الناهد بها محمد ﷺ إلى الدنيا في زحف كزحف النور على تجاليد الظلام وقطعه الدوامس» (٣٣).

وأنت كذلك، أقبلت علينا وعلى الأجيال بهذه الشبابات الرقراقة، كأنها ذوب من حبير اليواقيت.

أما وصفه لجده السيد هادي الصدر، ففيه من القيم المعنوية الأدبية نصيب كبير: «وكان أعلى الله مكانه بعيد غور الحلم، طويل جبل الأناة، لا يزدهف عن وقاره، ولا يحفز عن رزاقته، وله أخلاق ألين من أعطاف النسيم، وأعذب من كوثر جنان النعيم، وتبارك الله الذي فطره على رقة تتمازج بها الأرواح، وعذوبة تشربها النفوس» (٣٤).

إنه أدب الوصف، وهو أكثر الأنواع الأدبية التصاقاً بالوجدان وبالخيال في آن معاً. أما أدب السيد الكريلائي، فهو نتاج عمر بأكمله، وعصارة قلب حنون، كانت منابر الجنوب تتوق لسماعه وهو ينافح عن

عاشوراء كالأسد الهصور، والنسر الجصور، ويؤكد على أنها رمز الأدب المناضل في التاريخ، والحسين أعظم ثائر على وجه الأرض.

«ألا وإن قتلة الحسين بكر في القتلات، فلتكن قدوتنا به بكرة في القدوات، ولنكن نحن من فلسطين مكان الحسين من قضيته» (٣٥).

وأي أدب لم يكنه هذا المنسوج من قماش مفرد.. حسبنا ما قاله فيه السيد محمد صادق الصدر:

«لا نعرف في عصرنا الحاضر من علمائنا الأعلام من يدانيه فصاحة في اللفظ، ودقة في المعنى، ووضوحاً في القصد، وفصاحته في نثره تظهر بوضوح على كل ما ألف وصنّف، وكان قوي العارضة في الأدب، مشرق الديباجة متين السبك» (٣٦).

وتنطق البنية الخلاقة بلسان الأديب العبقرى صدر الدين نجل السيد الإمام، حيث يقول في أبيه: «كانت الكلمة عند أبي حاسة سادسة، لا يرضيه منها إلا أن تجمع إلى شروط الصحة، مقاييس الجمال وفضيلة الوضوح» (٣٧).

أليس هو كما قال سماحة الشيخ مرتضى آل ياسين:

«إنه إمام في اللغة وعلوم العربية وآدابها، والمنطق والتاريخ، وهو أفضل مرجع لنا، حسبك وأنت تطالع أنه تعرف به بطلاً من أبطال العلم، وفارساً من فرسان البيان» (٣٨) ١٩٨٩.

وعلى هذا النسق كان تأبين العلامة آقا بزرك الطهراني له: «خسر المؤمنون به عظيماً من عظماء الطائفة، وعميداً من أكبر رجال الأمة، وبطلاً من أشهر الأبطال، ورجلاً من أندر الرجال» (٣٩).

وقد أجمع مراجع الشيعة - آنذاك - على أنه: «مجتهد مطلق، حكمه الفصل، وقضاؤه العدل، وليهتد المؤمنون بهديه، ويكونوا عند أمره ونهيه» (٤٠).

ونحن متذوقو الأدب ومحبوه، نقرأ أدبه بشغف وعشق؛ لأنه أدب الأجيال التي لا تضل به، بل تحقق به آمالها.

تسعون محارة رست على شواطئ صور ذات يوم، هي أحد أمجاد هذه المدينة الخالدة، بل من أعظم أمجادها عمة هذا السيد الرسولي، فأينع النبت الحلال، وزخر البحر بقوارب الأبجديات، وهبّ النسيم العلوي، وارتفعت الكليات والمدارس والمساجد والمؤسسات والمراكز ودور العبادة منارات يصدق فيها اسم السيد عبدالحسين شرف الدين ليل نهار..

مولاي.. أعود من صور وكلي غبطة وثقة أن العظماء لا يرحلون، إنما يزدادون وهجاً، ويتحولون رموزاً وأحلاماً يعيشون في الضمائر والأحاسيس، فأني رمز وحلم وثروة أنت، وقد ملأت الدنيا وأتحفت الناس.

وها أنت الآن تقيم في صور والنجف في آن معاً، أترى أسراً لك علي أن تسكن جواره. جسد تضمخ بعبير الثرى العلوي، وامتزج بأنفاس أبي الحسن، فطاف أدبك من قباب الغري إلى حرم الجعفرية، ليطيب لك الخلود هنا وهناك، وفي جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

مولاي.. رعى الله أيامك الحالمات. ما زلنا وفي كل مكان نستعيد دعواتك إلى النضال، والتراحم، والألفة والمحبة، بعض القيم التي قدّمت عمرك في خدمتها، أليس هذا المؤتمر العام الدولي والشامل - والذي نشكر المشرفين عليه جميعاً من الأعماق على هذه الدعوة الكريمة للمشاركة فيه - إلا شاهداً على استمرارك وخلودك بآثارك وتعاليمك وحكمتك وأدبك.

ونختتم بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٤١).

* * *

الهوامش:

- (١) محمد صادق الصدر، مقدمة النص والاجتهاد: ١٦ - ٢٢.
- (٢) بغية الراغبين ٢: ٥٠٨، ط. الأولى ١٩٩١م، الدار الإسلامية - بيروت.
- (٣) المصدر السابق ١: ٢٩٣.
- (٤) مقدمة النص والاجتهاد: ٢٢.
- (٥) بغية الراغبين ٢: ٤٧٩ - ٤٨٠.
- (٦) المصدر السابق: ٤٨١.
- (٧) المصدر السابق: ٤٧٨ - ٤٧٩.
- (٨) المصدر السابق: ٤٨٣.
- (٩) المصدر السابق: ١٢٦.
- (١٠) المصدر السابق: ٥٠١ - ٥٠٢.
- (١١) المصدر السابق: ٤٧٢.
- (١٢) المصدر السابق: ٤٧٣.
- (١٣) المصدر السابق: ٤٧٢.
- (١٤) المصدر السابق نفسه.
- (١٥) المراجعات: ٣٦ - ٣٧، ط. الثامنة عشرة ١٩٧٨م، دار التعارف بيروت؛ وانظر: بغية الراغبين ٢: ٥١٠.
- (١٦) المراجعات: ٦٥.
- (١٧) المصدر السابق: ٧٣.
- (١٨) بولس سلامة، عيد الفدير: ٢٨٧، ط. الثالثة، دار الكتاب اللبناني؛ وانظر: الشيخ عبدالحسين صادق، الأسلوب العلمي والأدبي في مؤلفات الإمام شرف الدين: ١٣٥، منشورات المستشارية الإيرانية - دمشق.
- (١٩) بغية الراغبين ٢: ٤٣٩.
- (٢٠) المصدر السابق: ٤٤٠.
- (٢١) المصدر السابق نفسه.
- (٢٢) المصدر السابق: ٤٦١.

- (٢٣) المصدر السابق: ٤٤٨.
- (٢٤) الفصول المهمة في تأليف الأمة، تحقيق: الدكتور عبد الجبار شرارة: ٩ - ١٠، مقدمة المؤلف. نشر رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية . طهران ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.
- (٢٥) المصدر السابق: ٤٥.
- (٢٦) المراجعات، تقديم الشيخ مرتضى آل ياسين: ٣٧٤ - ٣٧٥، المراجعة (١١١).
- (٢٧) النص والاجتهاد: ٤.
- (٢٨) مجلة العرفان: ٨٤٨ و ٨٥١، المجلد ٣٧.
- (٢٩) بغية الراغبين ٢: ٤٤٣ و ٥٧٦.
- (٣٠) المصدر السابق: ٥٧٦.
- (٣١) المصدر السابق : ٢٤١ - ٢٤٢.
- (٣٢) المصدر السابق: ٢٤٢.
- (٣٣) المصدر السابق: ٢٠٣.
- (٣٤) المصدر السابق ١: ٢٩٣.
- (٣٥) المصدر السابق ٢: ٤٦١.
- (٣٦) النص والاجتهاد: ٢٢ (المقدمة).
- (٣٧) المصدر السابق: ٦٦ (المقدمة).
- (٣٨) بغية الراغبين ٢: ٢٧٢.
- (٣٩) نقيب البشير ٣: ١٠٨٠.
- (٤٠) مقطع من إجازة كبير الفقهاء آية الله الشيخ محمد طه نجف. راجع: بغية الراغبين ٢: ٥٩٩.
- (٤١) سورة النساء: ٩٥.

المقدس السيد عبدالحسين شرف الدين والمذهب الجعفري في صور

د. محمد عبدالله شرف الدين (*)

كتب ناصر خسرو القبادياني، الرحالة المشهور في كتابه عن رحلته واصفاً صور سنة ٤٣٨هـ: «هي معروفة بالمال والقوة بين البلاد الساحلية، وأكثر أهاليها شيعة، وقاضيا رجل سني».

قاومت صور الحملات الصليبية أكثر من ست عشرة سنة، من سنة ٥٠١هـ حتى سنة ٥١٦هـ حسب ابن الأثير، وحتى سنة ٥١٨هـ حسب ياقوت الحموي، إلى أن نفذت أزواد أهلها فنزل عليها الإفرنج.

بقيت صور في يد الصليبيين حتى سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م، حيث استردها السلطان المملوكي الملك الأشرف صلاح الدين خليل فخر بها وخرّب صيدا كي لا تقع مجدداً بأيدي الصليبيين.

ومرّ بها ابن بطوطة في رحلته سنة ٧٢٥هـ، وقال: إنها خراب وبخارجها قرية معمورة، وأكثر أهلها أرفاض^(١).

وفي أواخر المئة الثانية عشرة للهجرة لم يكن فيها إلا محل حقير على شاطئ البحر يقال عنه ملاحه، أي مستودع للملح. ثم بناها سنة ١١٦٤هـ / ١٧٥٠م وسكنها الأمير الشيخ عباس بن محمد بن نصار الوائلي المعروف بالشيخ عباس المحمد، الذي كان حاكماً على ناحية ساحل قانا، وكانت صور داخلة في حكمه، فجاء إليها وأنشأ بها الأبنية الجسيمة، منها

(*) كاتب، من لبنان.

السرايا، ومنها البناء الذي كان على باب المدينة والجامع القديم والحمام، وعدة مخازن، وجلب إليها السكان، وجعلها مقر حكومته إلى أن توفي فيها سنة ١١٨٩هـ^(٢).

هاجم أحمد باشا الجزائر حاكم عكا جبل عامل سنة ١١٩٥هـ / ١٧٨١م، فوقف في وجهه الشيخ نايف النصار الوائلي زعيم جبل عامل آنذاك، ولم يكن مستعداً لهذا الهجوم المباغت، فاستشهد هو وجميع أفراد جيشه نهار الإثنين خامس شوال ١١٩٥هـ (٢٣ أيلول ١٧٨١م) في موقعة (يارون) جنوبي جبل عامل^(٣)، فدخل الجزائر جبل عامل فحرق محاصيلها الزراعية وخرب البيوت، وحرق المكتبات العامرة، فتشرد العلماء والزعماء والناس كل في جهة، وكانت صور من جملة المدن التي تعرضت للخراب.

وعندما زارها الفرنسي (Volney) بعد ثلاث سنوات، كان سكانها لا يتجاوزون ٥٠ أو ٦٠ عائلة، وهم يسكنون في بيوت حقيرة تنتشر على ثلث مساحة شبه الجزيرة [صور] التي يبلغ طولها ٨٠٠ قدم وعرضها ٤٠٠ قدم^(٤). وبعد وفاة الجزائر عام ١٨٠٤م استأنفت صور تطورها ونموها، ومما شجع على نهوضها والي صيدا سليمان باشا، الذي عين عام ١٨١١م سليمان آغا أباطة متسلماً على المدينة، وعبود ساروفيهم كاتباً للسراي والكمرك، ويوسف أيوب كاتباً للأخبار^(٥).

اجتاح محمد علي باشا حاكم مصر لبنان سنة ١٨٣١م، وذلك بناء على خطة مدبرة من قبل الدول الأوروبية لطرد العثمانيين من لبنان أو لإضعافهم، فبقي المصريون في لبنان حتى سنة ١٨٤٠م، وتم طردهم من لبنان أيضاً بخطة أوروبية لإضعاف الطرفين العثماني والمصري. لقد نزحت إلى صور في هذه الفترة أعداد مهمة من العائلات المصرية، وعرفت المحلة التي أقاموا فيها في صور بـ (حي المصارون)^(٦).

تعرضت صور سنة ١٨٢٧م لزلزال قوي دمر معظم منازلها، وكان يقيم فيها آنذاك وكيل القنصل الأمريكي، وهو من الطائفة الكاثوليكية، ويدعى (يعقوب عقاد)^(٧).

شكل العام ١٨٦٠م تاريخاً مهماً في صور، إذ تحولت صور إثر الحوادث الطائفية التي حدثت في جبل لبنان إلى مركز جذب لهجرة واسعة ومكثفة غلب عليها الطابع المسيحي، وذلك بفعل الغلبة الشيعية للسكان في صور ومنطقها الريفية، إذ أن الشيعة بقوا بعيدين عن الصراع الدائر. وأعقب هذا النزوح نشاط حاد للإرساليات الأجنبية في صور، والتي تنافست فيما بينها على فتح المدارس، فأسس اللاتين الفرنسيون مدرسة الأرض المقدسة سنة ١٨٦٨م، والبروتستانت المدرسة الأمريكية للإنجيليين عام ١٨٦٩م، والكاثوليك المدرسة الأسقفية عام ١٨٧٠م، كما أنشأ اليسوعيون مدرسة راهبات ماريوسف الظهور عام ١٨٨٢م^(٨).

لقد سيطر الإنكليز عسكرياً على مرفأ صور سنة ١٨٤٠م، وذلك ضمن مساعيهم في طرد المصريين من لبنان، فقد وزعوا ١٥ ألف بندقية لمساندة الثوار اللبنانيين ضد الحكم المصري. من الجدير بالذكر أن النازحين الجدد قد سيطروا على معظم الأراضي الزراعية في صور وفي منطقتها، فمثلاً إن أراضي جفتلك رأس العين الذي هو من أخصب الأراضي، والتي كانت لعائلة الشيخ عباس المحمد الوائلي قد أصبحت لإحدى العائلات النازحة إلى صور^(٩).

النشاط الديني الثقافي للمسلمين الشيعة بعد حملة الجزائر

لقد كان أهم حدث ثقافي بعد حملة الجزائر على جبل عامل أن انتزع الجامع الذي بناه الشيخ عباس المحمد الوائلي من يد الشيعة، ولم يكن

للشيعة أي جامع طوال مئة عام (القرن الثالث عشر الهجري)، وبالتالي لم يكن لهم أي إمام جماعة.

كتب المقدس السيد عبدالحسين شرف الدين في هذا المجال: «لم يكن في صور من قبل سوى مسجد واحد من آثار الوائليين زعماء الشيعة في عاملة، كانوا قد أنشؤوه وأنشؤوا له أوقافاً تقوم بمهماته ولوازمه، لكن الحكومة العثمانية ضمته بعد ذلك بأوقافه إلى إدارة الأوقاف، وعيّنت له من غير الشيعة إماماً وخطيباً ومؤذناً وخادماً، وأقصت عنه الشيعة، فكانوا مسلوبو الحرية المذهبية فيه إن صلّوا أو توضّأوا، وكثيراً ما كانوا يؤذون ويُطردون»^(١٠).

ينقل الشيخ إبراهيم سليمان عن كتاب (أزهار الخمائل) لعمه الشيخ حسين سليمان: وجدّد [الشيخ عباس المحمد الوائلي] بناء الأسواق، وطلب إليها جماعة من التجار، وطلب من أهل العلم عمنا المرحوم الشيخ حسن بن حمزة بن سليمان بن علي بن محمد بن سليمان فأقام بها، وخلفه بعده ولده الشيخ محمد علي حسن، وكانوا أهل علم وتقوى. وترك الشيخ محمد علي حسن بعد وفاته ولده الشيخ إبراهيم والشيخ مصطفى حسن. وأما الشيخ إبراهيم فقد أنجب العلّامة الكبير الشيخ خليل المتوفى بكوت العمارة سنة ١٣٤٣هـ ودفن في النجف^(١١).

وبناء على كتاب (أزهار الخمائل) يكون حسن بن حمزة آل سليمان هو أول إمام جماعة صلّى في الجامع الذي شيده الشيخ عباس المحمد الوائلي سنة ١١٨٠هـ / ١٧٦٦م.

تعرض النشاط الثقافي الديني للشيعة في جبل عامل وفي صور بعد حملة الجزار لركود شديد مدة أكثر من نصف قرن، وذلك بسبب تشرد العلماء أو قتلهم أو سجنهم، وحرقت المكتبات وتبعثر الكتب، ولكن بعد

أكثر من نصف قرن عادت الحياة تدب في الجسم الثقافى للشيعة في جبل عامل.

- فكانت أول مدرسة^(١٢) تأسست في هذه المرحلة هي مدرسة الكوثرية للشيخ حسن قبيسي المتوفى سنة ١٢٥٨هـ، في تبين، وكانت عامرة بالطلاب، وفيها قرأ حمد البك (حاكم بلاد بشارة) [النصف الجنوب لجبل عامل]، والسيد علي إبراهيم، والشيخ عبدالله نعمة [مؤسس مدرسة جبع]، والشيخ علي سببتي [من أهم الشعراء العاملين في القرن التاسع عشر الميلادي].

- مدرسة جبع، وهي مدرسة أنشأها الفقيه الجليل الشيخ عبدالله نعمة المتوفى سنة ١٣٠٣هـ، وكانت حافلة بالطلاب مدة طويلة^(١٣)، وفيها درس السيد يوسف شرف الدين والد المقدس السيد عبدالحسين شرف الدين قبل انتقاله للدراسة في النجف الأشرف.

- مدرسة شحور أنشأها العالم الصالح السيد يوسف شرف الدين والد المقدس السيد عبدالحسين شرف الدين، وبلدة شحور هي موطن آل شرف الدين، وتقع شرقي صور.

- مدرسة شقراء أنشأها السيد أبو الحسن موسى جد العلامة السيد محسن الأمين في أواخر القرن الثاني عشر الهجري، وكانت من أعظم مدارس جبل عامل^(١٤).

- مدرسة جوبا، وهي مدرسة قديمة عاشت زمناً طويلاً.

- مدرسة كفرة برئاسة العلامة الشيخ علي بن محمد السببتي^(١٥)، وكان يدرس فيها الشيخ محمد علي عز الدين قبل مدرسة حنويه^(١٦).

- مدرسة بنت جبيل أنشأها سنة ١٢٩٧هـ العالم والفقيه الشيخ موسى شرارة وانتقل إليها طلاب مدرسة حنويه، وجمعت عدة وافرة من أفاضل الطلاب^(١٧).

- مدرسة حنويه، يبدو أن هذه المدرسة هي من أكثر المدارس التي جذبت إليها طلاباً من صور، وذلك لقربها من صور إذ ينقل العلامة الشيخ إبراهيم سليمان عن كتاب التذكرة للعلامة الشيخ موسى عز الدين [مؤسس المدرسة الدينية في صور في الستينات من القرن العشرين]: إن من تلامذة مدرسة حنويه الشيخ مصطفى خليل (وهو من آل الخليل من صور، ويُعرف بالشيخ مصطفى الصوري، والذي توفي في النجف الأشرف في عنفوان شبابه)، والشيخ علي الحاج قاسم والذي يذكره السيد محسن الأمين في خطه، ويقول عنه: (والشيخ علي الصوري ممن سافر معنا إلى العراق أيضاً لطلب العلم، وبقي هناك بعد مجيئنا)، والشيخ محمود عودة، والشيخ محمود بحسون، والفاضل الأديب الشاعر محمد سعيد من صور^(١٨).

كتب السيد محسن الأمين في كتابه خطط جبل عامل: وسكنها - أي صور - في عصرنا من أهل العلم الشيخ جعفر مغنية (الذي كان من الأفاضل في علم المقدمات حسب أعيان الشيعة)، والشيخ علي الفقيه، والشيخ محمد علي عزّ الدين الفاضل الأديب الشاعر، وولده الفاضل النبيه النبيل الشيخ عزّ الدين الذي توفي في سنة ١٣٦٢هـ وغيرهم من آل عزّ الدين، وسكنها الشيخ محمد مغنية الفاضل الوجيه المشهور، والشيخ خليل الصوري سافر معنا إلى العراق سنة ١٣٠٨هـ، وطلب العلم ثم سكن كوت الإمارة وتوفي في العراق في هذا العصر... ويسكنها اليوم من العلماء السيد عبدالحسين شرف الدين المؤلف المشهور انتقل إليها من شحور^(١٩).

كتب الشيخ محمد بن مهدي مغنية (ولد سنة ١٢٥٣هـ في شهر صفر وهو أديب ومؤرخ له كتاب جواهر الحكم ونفائس الكلم، وهو كتاب أدب وتاريخ وحكميات)^(٢٠) في كتابه جواهر الحكم، الذي نقل عنه

السيد محسن الأمين في كتابه أعيان الشيعة، والذي حققه السيد حسين شرف الدين حديثاً في مجلة حركة أمل في الثمانينات، بأنه - أي الشيخ محمد بن مهدي مغنية - كان يدرّس في المدرسة الرشدية في صور، ويذكر أيضاً بأن الشاعر الشيخ علي سبيني (١٢٣٦هـ - ١٢٠٣هـ)، وهو شاعر ولغوي ومؤرخ^(٢١) درّس في المدرسة الرشدية في صور أربع سنوات. ويذكر أيضاً بأن الشيخ جعفر بن علي آل مغنية (توفي بعد سنة ١٢٨٣هـ في صور) درّس آخر سنة من حياته في المدرسة الرشدية في صور.

يبدو أنّ المدرسة الرشدية في صور قد أنشأها العثمانيون، ويبدو أنها كانت المدرسة الإسلامية الوحيدة في صور. والملاحظ أن أي من الرحالة الأوروبيين لا يشير إليها. ويذكر والدي العلامة السيد عبدالله شرف الدين في مقابلة شفوية معه بأنه درس في الثلاثينيات من القرن العشرين في المدرسة الرسمية في صور، وكانت تعرف بالتواتر بالمدرسة الرشدية، وكان مديرها عبدالرحمن البزري من صيدا، وأساتذتها من الشويفات ومن صيدا وبعضهم من صور.

وهكذا نلاحظ بأن النشاط الثقافي الديني للشيعة شهد نوعاً من الحركة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري (النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي). وتمثل على الأكثر في التحاق بضعة أفراد من الطلبة في المدارس الفقهية المجاورة لمدينة صور. وأن قسماً من هؤلاء سكن نهائياً في العراق، والقسم الآخر لم يكمل دراسته العلمية. أما العلماء من أمثال: الشيخ جعفر مغنية، والشيخ محمد مغنية، والشيخ علي الفقيه، والشيخ محمد علي عزّ الدين، فكانت إقامتهم الدائمة خارج صور، وكانوا يزورونها من وقت إلى آخر.

وهناك الشيخ إبراهيم بارود من صور ذهب إلى مصر وتعلم قراءة

القرآن الكريم وتجويده، وافتتح مكتباً لتعليم القرآن في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، وفيه تعلم السيد نور الدين الأخوي الذي فتح بدوره في بداية القرن العشرين مكتباً لتعليم القرآن، ولتعليم الخط والإملاء. أما بالنسبة لقراءة عزاء سيد الشهداء أبي عبد الله الحسين عليه السلام، فلقد سكن صور قارئ العزاء الشيخ ذيب بيضون (المولود ١٢٨٨هـ والمتوفى ١٣٦٨هـ) سنة ١٣١١هـ آتياً من بنت جبيل، وكان ملازماً هناك للشيخ موسى شرارة، كما سكن صور أيضاً في بداية القرن العشرين قارئ العزاء الشيخ علي داود سعد، وهو من قرية معركة شرقي صور.

السيد شرف الدين، المولد والنشأة وبداية النهضة

وُلد المقدس السيد عبدالحسين شرف الدين في مستهل جمادى الثانية سنة ١٢٩٠هـ في المشهد المقدس الكاظمي في العراق، وذلك أثناء دراسة والده هناك. يقول المقدس السيد شرف الدين: قرأت القرآن الكريم على معلم من الصالحين في النجف الأشرف. وكان له من العمر ثماني سنوات عندما رجع إلى جبل عامل، فدرس المقدمات على والده العالم السيد يوسف شرف الدين (الذي كان يُدرّس في بلدتي شحور وطورا شرقي صور). ارتحل سنة ١٣١٠هـ إلى العراق، ودرس مدة سنة في سامراء، فدرس على يد الشيخ باقر حيدر، وعلى الشيخ حسن الكربلائي، وكان يحضر مجالس الشيخ ملا فتح علي السلطان آبادي. ثم قصد النجف الأشرف ودرس على يد السيد محمد صادق الأصفهاني، وعلى يد الشيخ علي باقر، وعلى يد الشيخ محمد كاظم الخراساني، كما درس أيضاً على الشيخ محمد طه نجف، والشيخ آغا رضا الهمداني، والشيخ فتح الله شريعتمدار الملقب بشيخ الشريعة الأصفهاني، والشيخ عبدالله المازندراني، والشيخ حسين النوري.

بقي المقدس السيد عبدالحسين شرف الدين يدرس مدة اثنتي عشرة سنة^(٢٢) في النجف الأشرف، رجع بعدها إلى موطنه جبل عامل في تاسع ربيع الأول سنة ١٣٢٢هـ، وحلّ في بلدته شحور، يقول السيد: زارنا [في شحور] المؤمنون من أهل صور وكان لهم من قبل اتصال بولي النعمة، فرغبوا إليه في أن أكون بين ظهرانيهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورعاية الدين ونشر أحكامه^(٢٣). يقول العلامة السيد عبدالله شرف الدين، النجل الأصغر للمقدس السيد شرف الدين، بأن البعض من هؤلاء المؤمنين هم: حاج محمد بحسون، الحاج حسن الرز، الشيخ ذيب بيضون، الحاج سلمان خضرا.

أتى المقدس السيد إلى صور منتصف ذي الحجة ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م، ونزل في دار الحاج محمد بحسون الذي أخلاها له^(٢٤). ثم يشرح السيد المقدس وضع الشيعة في صور آنذاك قائلاً: «حينئذٍ دعوت وجوهم - أي وجوه أهل صور - فاستصرختهم برفق، وشكوت إليهم بثي وحرني ومصيبتي: بما أنا لا جامع لنا، ولا مجمع، ولا جماعة، ولا جمعية، ولا جمعة، ولا عيد، ولا أذان، ولا عنوان، ولا مدرسة، ولا.. ولا..»

يدخل الأجنبي صور وهي عنوان الإمامية في البلاد العاملة فلا يحسّ منهم بأحد، ولا يسمع لهم ركزاً. يراهم - وهم الأكثرية - في معزل عن المسجد...

أطلت القول في ذلك.. رغباً إليهم في اتخاذ مسجد يجمعهم على عبادة الله تعالى^(٢٥)، إلى أن اشتروا داراً^(٢٦). ويكتب المقدس السيد قائلاً: «ووقفت الدار في سبيل ما يرجى عوده بالروح على روح سيد الشهداء... ونسبتها إليه صلوات الله وسلامه عليه، فدعوناها الحسينية، وشرعنا بعبادة الله تعالى فيها يوم الغدير سنة ١٣٢٦هـ، فكانت مثابة الوفاة، ونجعة

الرواد ، إحدى وعشرين سنة.

وكنا طيلة هذه المدة نقيمها بدلاً من المسجد في كل ما يشغله من أنواع العبادة.

ونقيمها بدلاً عن دار الندوة في كل ما يعقد وينقض من أمورنا العامة.

ونقيمها بدلاً عن محكمة تصدر الحكم بما أنزل الله تعالى في كل مراضة بين المؤمنين.

ونقيمها بدلاً عن مدرسة حافلة بالعوام يتلقون فيها ما هو محل ابتلائهم من أصول الدين وفروعه ، وما إليه من آية وسنة وحكمة وموعظة. ونقيمها أيام المواسم لأداء المراسم ، ولا سيما يوم عاشوراء وسائر أيام المحرم الحرام ولياليه ، وخصوصاً العشرة الأول منه ، ويوم المولد النبوي ، ويوم الغدير العلوي ، إذ يهرع إلينا المؤمنون من نواحي الجبل العاملي» (٢٧).

بعد ذلك صمّم المقدس بأن يبني مسجداً ، فاختر قطعة واسعة من محلة الخراب في صور تربو على ثلاثة عشر دونماً من الأرض التي كانت للدولة العثمانية. يقول المقدس السيد شرف الدين: «فأبرقت للسلطان محمد رشاد أستميحها منه للطائفة وقفاً في سبيل البر. وما أن أبرق منعماً بالإجابة حتى أسسنا لجامع في وسطها. وما أن فرغنا من قواعده الراسخة ، حتى مُني العالم بقارعة الحرب العالمية..

ولما وضعت الحرب أوزارها.. ثبنا إلى الجامع لنكمله ، فكان أولئك المتزعمون لنا بالمرصاد ، حتى أغروا الحكومة الفرنسية بنا ، فصادرتنا بها متشبثة بأن تلك القطعة حكمها حكم سائر ما كان في أيدي الحكومة العثمانية» (٢٨).

يكمل المقدس شرف الدين قائلاً: «وحين صدرنا عن القطعة صفر

الأيدي... تبرع أحدهم^(٢٩) بدار له في الصدر من ساحة البلد، فوقها مسجداً بمياها الغزيرة في خلالها ومرافقها، وشرينا داراً أخرى إلى جنبها، فهدمنا الدارين وأنشأنا المسجد هناك على ما هو عليه^(٣٠)، وكان الفراغ منه سنة ١٣٤٧هـ^(٣١). يُكمل المقدس السيد قائلاً: «أنعش الله مؤمني صور بهذا المسجد، ورفع به صوتهم يدوي في أوساط عاملة. فتتابع إليهم في كل جمعة إخوانهم من أهل القرى العاملية»^(٣٢).

بناء المدرسة الجعفرية

كتب المقدس السيد: «كنت من بعيد أفكر في إنشاء معهد علمي يضمن تربية أبنائنا تربية مستقلة بأخلاقيها الإسلامية، وأهدافها الإمامية»^(٣٣)، فقد أجرى المقدس لهذا الغرض اتصالاً بالدولة عن طريق الوسطاء، فاستحصل على قطعة الأرض الرشادية (الحكومية) السابقة، وبنى عليها ستة مخازن بطرفها الشمالي^(٣٤). فقد ورد في هذا المجال في الكتاب الصادر عن المؤتمر الثاني عن مدينة صور: إن بداية الانتقال العمراني خارج السور التقليدي لمدينة صور، كان البناء الذي شيده السيد عبدالحسين شرف الدين في مطلع العشرينات، وهو عبارة عن ستة مخازن على قطعة من أرض بنيت عليها لاحقاً المدرسة الجعفرية سنة ١٩٢٨م، وتبلغ مساحتها ١٣ دونماً. وبنى السيد فوق المخازن نادي الإمام الصادق عليه السلام، وتبلغ مساحته ٣٠٠م^٢، وذلك سنة ١٩٣٩^(٣٥). ويُكمل المقدس السيد قائلاً: «أما بقية القطعة (الأرض)، فقد تيسر بعون الله تعالى لنا إنقاذها يوم ٢٤ تشرين الأول سنة ١٩٣٥م، إذ جرت المساحة العقارية فُسجِلَتْها لجنة المساحة بحدودها وفقاً على الطائفة الشيعية تحت توليتي»^(٣٦).

ويعصف المقدس السيد كيفية إنجاز بناء المدرسة الجعفرية فوق تلك

الأرض قائلاً: «فإنَّ الله تعالى أنبت نواتنا آية في الخريف في أول تشرين الأول سنة ١٩٣٨م / ١٣٥٧هـ.

وفتحنا أبوابها معهداً علمياً أسميناه (المدرسة الجعفرية)، رمزاً إلى العلم، ولترسيخ المبادئ الإسلامية الإمامية، تتبرع هذه المدرسة بالتربية والتعليم مجاناً لكل من خضع لقانونها من فقير أو غني.. فإذا التلامذة - وهم على الدوام يربون على الثلاثمة - يرتشفون معسول المعارف والأخلاق، ناهلين من نمير الدين والآداب، وهذا ما كنت من أمد بعيد أتوخّاه» (٣٧).

مسجد الجعفرية

يقول المقدس السيد: «أنشأنا في الجناح الشرقي من المخازن الستة مسجداً للمدرسة على قارعة الطريق للداخل إلى صور والخارج منها، واسع الفناء، غزير الماء، محكم البناء، ينادي التلامذة والأساتذة والمارة وأهل الحارة: حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، حيّ على خير العمل» (٣٨). وجعلنا سطحه معداً لبناء سبع غرف للمدرسة في جناحها الشرقي» (٣٩).

نادي الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)

كتب المقدس السيد قائلاً: «أنشأنا في الطبقة العليا من المؤسسة غربي المدرسة صرحاً فخماً في طول اثنين وعشرين متراً ونصف المتر، وعرض خمسة عشر متراً ونصف المتر. ذا نوافذ على البر والبحر على أحدث طرز عددها إحدى وعشرون نافذة، أسميناه نادي الإمام جعفر الصادق (عليه السلام). فكان مثابة لأهل عاملة عند اجتماعهم أيام المواسم الدينية لأداء المراسم الشرعية، وأيام أفراحهم وأتراحهم، وعند إقامة حفلاتهم لمهامهم وسائر شؤونهم، ولا سيما يوم عاشوراء، ويوم مولد سيد الأنبياء، ويوم

الغدير، حيث تحتشد الجماهير، وقد عاد على الطائفة بنفع جزيل، ورجع كثير، والحمد لله» (٤٠).

مدرسة الزهراء

كتب المقدس السيد: «في الظرف العصيب أسدينا إلى البلاد - مدرسة الزهراء - مؤسسة على هدى من الله عزّ وجلّ، خوفاً على أمتنا أن تتيه بناتها في صحراء العمه والضلال.. أردنا - بمعونة الله تعالى - أن نغزو تلك العقبات بعزم ثابت.. فبدأنا عند افتتاح مدرسة الزهراء لنورد بناتنا المورد الهنيء.. وحين عزّ على (الزهراء) وبناتها المكان.. فسحنا لهنّ دارنا، وآثرناهنّ على أهلينا وبنينا، فنرحنا عنها ونحن أهنأ ما كنّا تطوعاً للغاية المثلى. ولم يدُرّ الحول إلّا كانت تلك المدرسة مثلاً لظرف البلاد القاهر [أي أنها أُغلقت]» (٤١).

الإمام شرف الدين في سوح الجهاد والعمل

أما بالنسبة لإقامة مجالس عزاء سيد الشهداء أبي عبدالله الحسين (عليه السلام)، يقول العلامة السيد عبدالله شرف الدين نجل المقدس السيد عبدالحسين: بأن والده كان يقيم قبل الظهر مجالس عزاء متعددة في بيوت عدد من المؤمنين، منهم: الحاج حسن الرز، السيد عبدالله مرتضى، الحاج درويش خياط، الحاج مصطفى خشن، الحاج محمد بحسون، الحاج علي بحسون، الحاج محمد علي خضرا، الحاج أحمد الرز، السيد علي شرف. فكان السيد ينتقل من مجلس إلى آخر. أما في فترة بعد الظهر، فكان يقيم مجلس عزاء في الحسينية، وبعد

إنشاء الجامع كان يقيم مجالس العزاء في الجامع، وبعد تأسيس نادي الإمام الصادق أصبح مجلس العزاء الرئيس يتم إقامته في النادي، وكان المقدس السيد يقيم مجلس عزاء مركزي للنساء في بيته، وقد استمر هذا المجلس طوال حياته، ولا يزال يقام في بيتنا إلى الآن.

كان المقدس السيد يصعد المنبر الحسيني يومياً في فترة المحرم، ويتحدث عن مناقب وفضائل أهل البيت، ويذكر سيرة الأئمة عليهم السلام، مركزاً على أن الإمام الحسن المجتبي عليه السلام هو الذي مهد لنهضة سيد الشهداء عليه السلام، ومن ثم يرثي أبا عبد الله الحسين عليه السلام.

وقد جُمعت تلك المجالس في كتاب وسميت: «المجالس الفاخرة في مآتم العترة الطاهرة».

المقدس شرف الدين والحرب الكونية الأولى

عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى كتب السيد في هذا المجال: «صدر الأمر بسوق الرجال إلى ميادين القتال.. ولم تكن أنظمة السوق تعفي من التجنيد سوى أئمة المساجد والقوامين على الطقوس الدينية - ولم تكن لأئمة مساجد الشيعة أسماء في دوائر الحكومة ولا في غيرها، إذ لم تكن إمامتهم بتوظيف من الحكومة، وإنما هي بمجرد أهليتهم وعدالتهم المحرزة في نفوس شعبهم.. وبذلك أجمعت سلطات السوق على سوقهم مع سواد الناس بكل شدة، وأمعنت في طغيانها تتعقبهم لا تدخر في ذلك وسعاً، فذعروا - أي العلماء - وتواروا مُدْلهين، وهال الطائفة أمرهم..»

وفي إبان هذه الحيرة ألقى الله سبحانه في روعنا أن نطرق الأبواب العالية نلفتها إلى حرماننا وحرمان مساجدنا وأئمتنا من هذا الحق القانوني.. فإذا الشعب العالمي قائم على ساق، يحتج على الحكومة بحرمانه

وامتهانه دون إخوانه، ودون جيرانه.. وما زال مثابراً على ذلك، حتى كشف الله عنه هذه الغمة ببرقية من وزارة الحربية توجب الاجتزاء في إعفاء أئمة مساجد الشيعة من التجنيد»^(٤٢).

في هذه الأثناء برزت مشكلة أخرى خلال الحرب العالمية الأولى، وهي القحط والجوع، إذ استولت الدولة العثمانية على كل المحاصيل الزراعية لإرسالها إلى جبهة الحرب، وأُضيف إليها هجوم الجراد الذي قضى على البقية الباقية من المزروعات. فهلك الكثيرون من الجوع، ومن انعدام الأرزاق. فهب المقدس السيد يحث الموسرين على مساعدة المعدمين والمعوذين، وكتب عن تلك المحنة يقول: «رفعت صوتي بذلك أستخرج به من أعماق الناس معانيهم الإنسانية.. فيسرّ الله لي بفضله وكرمه ما كنت ألتمسه لأولئك الجوعى العراة. وبرزت الأخماس، تقفوها الزكوات، وتتلوها أثلاث الموتى إلى رصيد معلوم يوزع على الجوعى بنسب متكافئة. وقد جعلت لكل مُخرج من هذه الحقوق أن يشرف بنفسه على توزيعه»^(٤٣).

بعد أن انتهت الحرب العالمية الأولى تعرض لبنان وفلسطين وسورية سنة ١٩١٨م لاحتلال بريطاني وفرنسي، انسحب بعدها البريطانيون سنة ١٩٢٠م من لبنان، وبقي المستعمرون الفرنسيون فيه، فكتب المقدس السيد في هذا المجال: «بدأ العمل في هذه البلاد بإنشاء حكومات موقّعة تحفظ الأمن باسم الملك حسين.. ولكن الإنكليز أبطلت هذا التدبير الذي رجّوا له مستقبل عربي مستقل، إذ اجتاحت في مرورها ما بنيناه من هذا الكيان الناشئ»^(٤٤).

عندما استقر الاحتلال الفرنسي في لبنان كتب سماحة السيد: «فكان استقبالنّا للاحتلال الإفرنسي من أجل ذلك استقبالاً صاخباً محتجاً، يواجهها بالرفض والمصارحة والميل عنها ميلاً لا هواة فيه ولا لين»^(٤٥).

وتقرر لأجل ذلك إقامة مؤتمر في وادي الحجير في وسط جبل عامل، ضمّ وجهاء جبل عامل، كان المقدس السيد عبدالحسين شرف الدين أبرز شخصية مؤثرة فيه، وتقرر في هذا المؤتمر الحفاظ على الأمن، وعلى الوحدة الوطنية بين مختلف الفئات السياسية والدينية. ولكن الفرنسيين اعتبروا أن المؤتمر موجّه ضدهم، فهجموا على بيت المقدس السيد وأحرقوا مكتبته النفيسة، وأتبعوا ذلك بهجوم واسع على مختلف مناطق جبل عامل. فاستقر المقدس السيد - أخيراً - مدة سنة في بلدة (علما) شمالي فلسطين، عاد بعدها إلى مدينة صور. وأكمل نشاطه الثقافى - الدينى والاجتماعى.

أسس المقدس السيد جمعية نشر العلم^(٤٦) سنة ١٩٣٠م^(٤٧) بهدف تنشيط العلوم الدينية والإشراف على المدرسة الجعفرية. وتوجد صورة مشهورة تضم أعضاء جمعية نشر العلم مع المقدس السيد.

ولقد عمل المقدس السيد أيضاً على تأسيس جمعية خيرية سنة ١٩٤٧م ابتدأت عملها بتولي دفن موتى فقراء الشيعة، فسمّيت الجمعية بـ (جمعية البر والإحسان ودفن الموتى)^(٤٨). وعملت أيضاً على مساعدة الفقراء معيشياً وصحياً وتربوياً، ومن أعمال جمعية البر والإحسان بناء حسينية الخراب في موقع مقبرة صور، وذلك لتجهيز الموتى والصلاة عليهم.

وكان المقدس السيد يقيم جلسات تدريس نقد وأدب للخاصة. ومن الذين درسوا على المقدس السيد هم: أخوه السيد شرف شريف الدين، وابن أخيه السيد نور الدين شرف الدين.

أبناء المقدس السيد وهم: السيد محمد علي، السيد محمد جواد، السيد محمد رضا، السيد صدر الدين، السيد جعفر، والعلامة السيد عبدالله شرف الدين. وهناك كاتبه وابن عمه السيد علي شرف الدين الذي كان يحرر معظم تأليفات المقدس السيد.

كان مجلس المقدس السيد في بيته موقع استقطاب للعلماء، فكان يزوره من العلماء: السيد عبدالحسين نور الدين، الشيخ عبدالحسين صادق، الشيخ موسى عزّ الدين، السيد علي محمود الأمين، السيد حسن محمود الأمين، السيد محمد حسن فضل الله، السيد نجيب فضل الله، الشيخ محمد مغنية، الشيخ حسين مغنية، الشيخ عبدالكريم شرارة، السيد هاشم الحكيم، السيد نور الدين نور الدين، السيد مصطفى نور الدين، الشيخ محمد تقي صادق، الشيخ حسن صادق، الشيخ عبدالله الحر، الشيخ محمد الحر، الشيخ محمد أمين شمس الدين، الشيخ حسين نور الدين، السيد أمين علي أحمد، السيد هاشم معروف الحسني، الشيخ محمد عسيلي، وابنه الشيخ علي عسيلي.

وكان يزوره من علماء إيران آية الله أبو القاسم الكاشاني، الشيخ آغا بزرك الطهراني، الشيخ شريعتمداري الكيلاني، الشيخ بحر العلوم الكيلاني، السيد مجتبى نواب صفوي، السيد عبدالكريم الزنجاني، السيد محمد الهمداني، السيد رضا الصدر، السيد موسى الصدر، الشيخ ميرزا علي قلي الخوئي.

وكان يزوره من علماء العراق: الشيخ راضي آل ياسين، السيد محمد الصدر، السيد محمد حسين الصدر، السيد محمد حسن كشوان. لقد أضاف المقدس السيد بناء حديثاً وكبيراً للمدرسة الجعفرية سنة ١٩٥٠م جعلها للدراسة الثانوية، وتحمل تكاليف إنشائها المهاجرون من صور في إفريقيا فأسموها بناية المهاجر. ولقد ذاع صيت الجعفرية في جميع المناطق اللبنانية، وأصبحت من أشهر وأهم مدارس لبنان، وكانت نسبة النجاح فيها عالية.

هكذا نرى بأن المقدس السيد قد دبّ الروح في جسم التشيع في صور، وجعلها أهم مدينة شيعية في لبنان. لقد توفي المقدس السيد رحمته يوم العاشر من جمادى الثانية سنة ١٢٧٧هـ الموافق ٣٠ كانون الأول ١٩٥٧م في إحدى مستشفيات بيروت. وحمل جثمانه إلى النجف الأشرف، ودفن في إحدى حجرات الصحن الحيدري الشريف.

* * *

الهوامش:

- (١) السيد محسن الأمين، خطط جبل عامل: ٣٠٨ - ٣٠٩.
- (٢) المصدر السابق: ٣٠٩.
- (٣) الشيخ محمد تقي الفقيه، جبل عامل في التاريخ: ٢٤٩.
- (٤) وثائق المؤتمر الأول لتاريخ مدينة صور ١٥ - ١٦ حزيران ١٩٩٦م، عن مقالة للدكتور حسن دياب، التطور الديموغرافي لمدينة صور: ٣٣٠.
- (٥) المصدر السابق نفسه.
- (٦) المصدر السابق: ٣٦٣.
- (٧) المصدر السابق: ٣٣١.
- (٨) المصدر السابق: ٣٣٣ و ٣٣٤.
- (٩) المصدر السابق، عن مقالة لسيمون عبدالمسيح عنوانها: البنى الاجتماعية والاقتصادية في صور: ١٩٤ - ١٩٨؛ وأيضاً عن مقال لمحمد مراد بعنوان: علاقة صور بمصر: ٢٨١.
- (١٠) السيد عبدالحسين شرف الدين، بغية الراغبين في سلسلة آل شرف الدين ٢: ١١٤ - ١١٥، حققه وزاد عليه العلامة السيد عبدالله شرف الدين، ط. الأولى ١٤١١هـ / ١٩٩١م، الدار الإسلامية - بيروت.
- (١١) العلامة الشيخ إبراهيم آل سليمان، بلدان جبل عامل: ٢٦٧.
- (١٢) المصدر السابق: ٥٢٩، نقلاً عن محمد جابر في كتابه تاريخ جبل عامل؛ وأيضاً: السيد محسن الأمين، خطط جبل عامل: ١٨٤.
- (١٣) خطط جبل عامل: ١٨٤.
- (١٤) المصدر السابق: ١٨٣.
- (١٥) بلدان جبل عامل: ٥٢٩، نقلاً عن تاريخ جبل عامل لمحمد جابر آل صفا.
- (١٦) خطط جبل عامل: ١٨٤.
- (١٧) المصدر السابق: ١٨٥.
- (١٨) بلدان جبل عامل، نقلاً عن التذكرة للشيخ موسى عز الدين.
- (١٩) السيد محسن الأمين، خطط جبل عامل: ٣١٤ - ٣١٥.
- (٢٠) السيد محسن الأمين، أعيان الشيعة ١٠: ٦٨.

- (٢١) المصدر السابق ٨: ٣٠٣.
- (٢٢) المصدر السابق ٢: ١١٢.
- (٢٣) بغية الراغبين ٢: ٧٧.
- (٢٤) المصدر السابق: ١١٤.
- (٢٥) المصدر السابق: ١١٥.
- (٢٦) هي دار الحاج سليمان الرز.
- (٢٧) بغية الراغبين ٢: ١١٦ - ١١٧.
- (٢٨) المصدر السابق: ١١٧ - ١١٨.
- (٢٩) هو الحاج حسين جعفر وحيد.
- (٣٠) قام بعمارة الجامع البنّاء حسن بحسون.
- (٣١) بغية الراغبين ٢: ١١٨.
- (٣٢) المصدر السابق: ١١٩.
- (٣٣) المصدر السابق: ١٢٠.
- (٣٤) المصدر السابق: ١٢٣.
- (٣٥) وثائق المؤتمر الثاني عن مدينة صور سنة ١٩٩٧م: ٢٢٩ و ٢٣٣.
- (٣٦) بغية الراغبين ٢: ١٢٤.
- (٣٧) المصدر السابق: ١٢٤ - ١٢٥.
- (٣٨) تبرع بتفقات بناء مسجد الجعفرية الحاج أسعد موسى أسعد أجزل الله ثوابه.
- (٣٩) بغية الراغبين ٢: ١٢٨.
- (٤٠) المصدر السابق: ١٢٩.
- (٤١) المصدر السابق: ١٢٩ - ١٣٠.
- (٤٢) المصدر السابق: ١٤١ - ١٤٣.
- (٤٣) المصدر السابق: ١٤٣ - ١٤٤.
- (٤٤) المصدر السابق: ١٤٦ - ١٤٧.
- (٤٥) المصدر السابق: ١٤٧.

(٤٦) تضمّ جمعية نشر العلم: المقدس السيد (الرئيس)، توفيق حلاوي (نائب الرئيس)، محمد أسعد أبو خليل، حاج حسين بحسون (أمين السر)، حاج علي عودة (أمين الصندوق)، والأعضاء هم: الحاج سليم حلاوي، الحاج علي جفال، سيد محمد صفي الدين (الكاتب)، الحاج رائف بيطار، الحاج مصطفى خشن، الحاج محمد بحسون، الحاج حسن الرز، الحاج إبراهيم حب الله، محمود عجمي.

(٤٧) حسن دياب، تاريخ صور الاجتماعي: ٥٦.

(٤٨) أعضاء جمعية البر والإحسان: السيد جعفر شرف الدين (نجل المقدس السيد رئيساً)، الشيخ محمد عقيل، الحاج مصطفى الخشن، الحاج محمد علي خضرا، قاسم حمادي يونس، الحاج علي شيخ إسماعيل، محمد إسماعيل بديري، محمد حسن هاشم، الحاج حسن حب الله.

الإمام شرف الدين سيرة ذاتية وجهاد علمي (١٢٩٠ / ١٨٧٣ - ١٣٧٧ / ١٩٥٧)

د. حسن إبراهيم (*)

هو السيد (الشريف) عبدالحسين بن يوسف بن جواد بن إسماعيل بن محمد بن محمد (الكبير) ابن السيد إبراهيم شرف الدين المنتهي نسبهم إلى إبراهيم ابن الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط ابن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

وأُمهم الصديقة الطاهرة (فاطمة الزهراء) بنت رسول الله صلى الله عليه وآله. يتصل نسب (السيد عبدالحسين) بالإمام الكاظم عليه السلام بواحد وثلاثين أباً، وبأُمير المؤمنين عليه السلام بست وثلاثين واسطة. ويقال له: (شرف الدين)، اللقب الذي ورثه من جدّ الأسرة (إبراهيم شرف الدين)، و(الموسوي) لاتصال نسبه الشريف بالإمام موسى الكاظم عليه السلام، ونسبه النبوي العلوي الكريم يقال له: (السيد) و(الشريف).

ويقال له: (العالمي) نسبة إلى (عاملة) أو (جبل عامل) المنطقة الجنوبية الشهيرة بלבnan، والتي كانت منذ أكثر من عشرة قرون أحد مواطن العلم والفكر الشيعي، وأخرجت مجموعة كبيرة من أعلام الشيعة الإمامية وعلمائها وكبار فقهاءها.

(*) باحث، من لبنان.

أسرته

هناك أسرتان علميتان احتلتا منذ ثلاثة قرون مركزاً مرموقاً في التاريخ العلمي والثقافي للشيعة الإمامية، وأنجبتا عدداً كبيراً من أعلام علمائها، وكبار فقهاءها، والبارزين من أدبائها ومفكرها، وهما: (آل شرف الدين)، و(آل الصدر).

الأسرتان تفرعتا من أصل واحد، إذ يرجع نسبهما معاً إلى (السيد محمد الكبير ابن السيد إبراهيم شرف الدين)، إلا أن حفيده السيد محمد علي بن صالح ابن السيد محمد (الكبير) ابن السيد إبراهيم شرف الدين، لقّب (بصدر الدين)، فحمل أبناؤه وأحفاده هذا اللقب الثاني وسمّوا بـ (آل الصدر).

ولادته ونشأته

ولد السيد عبدالحسين في الكاظمية، المدينة المقدسة التي تضم مرقد الإمامين موسى الكاظم ومحمد الجواد عليهما السلام، والمتصلة ببغداد عاصمة العراق، سنة (١٢٩٠هـ / ١٨٧٣م)، في بيت جدّه لأُمّه (السيد هادي الصدر). وهناك شبّ ونشأ، فكان محلّ عناية الجدّ ورعايته، عزيزاً وأثيراً عنده، محبوباً من الجميع. وكان خاله الصغير السيد محمد حسين ابن السيد هادي الصدر (١٢٨٨ - ١٣٣٠هـ / ١٨٧١ - ١٩١٢م)، كصنو ورفيق له - وعاشا متصاحبين - يتعلّمان ويتأدبان معاً؛ لأنهما يلتقيان في السن ويتقاربان في الهدف والتفكير.

وكانت إلى جنبهما (في مدرسة البيت) المرحومة خالته الصغرى تشاطرهما الدرس والمذاكرة والنقاش، وقد كان السيد عليه السلام يذكر ذلك بكثير من الاعتزاز والفخر..

دراسته

١ - المرحلة الأولى - الكاظمية:

وكانت كما عبر عنها (السيد محمد صادق الصدر) بـ (مدرسة البيت)، وفيها تأدب ونشأ، وقام على تثقيفه وتهذيبه جدّه (السيد هادي الصدر)، ووالده (السيد يوسف شرف الدين).

٢ - المرحلة الثانية - عاملة (جبل عامل):

وكان المترجم له في الثامنة من عمره حينما عاد والده من العراق إلى عاملة، بعد أن أنهى دراساته العالية، وفيها بدأت المرحلة الثانية من دراسة المترجم له، وأهم أساتذته ومعلميه، والده السيد يوسف شرف الدين، فأخذ المترجم له عنه من العلوم العربية: الصرف، والنحو، وعلوم البلاغة، والأدب العربي، وعلم المنطق، وقرأ عليه أيضاً متوناً فقهية مختصرة ومطلوّة، وكتباً أولية في أصول الفقه.

٣ - المرحلة الثالثة - العراق:

ولما بلغ المترجم له الثامنة عشرة من عمره، وبعد أن بلغ أشده واستوى، وأوتي شيئاً لا يستهان به من العلم والثقافة والمعرفة، أرسله والده بتاريخ ٩/ ٣ / ١٣١٠هـ، الموافق ١٨٩٢/٨/٣١م إلى العراق لإكمال دراساته العالية هناك، بعد أن زوّجه بابنة عمه، فكانت الكاظمية أوّل مهبط له؛ لأنها كانت مهبط أسرته من قبل، ويظهر أنه لم يطل به المقام فيها. إذ تركها متوجّهاً إلى سامراء، البلدة المقدسة، التي تضم مرقدي الإمامين الهادي والعسكري (عليه السلام)، ودار الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه، والواقعة في القسم المركزي من العراق، قرب العاصمة بغداد.

وكانت (سامراء) حينذاك أحد المراكز العلمية ذات المستوى العالي جداً للشيعة، لما كان من هجرة المجتهد الأكبر المجدد الشيرازي إليها.

وكانت مهجراً لخال المترجم له الأكبر السيد حسن الصدر، وابن عمه السيد إسماعيل الصدر، فأقام المترجم له في سامراء سنة واحدة قرأ عليهما، وعلى الشيخ باقر حيدر.

ثم عاد إلى الكاظمية وقرأ - في المدة القليلة التي عاشها فيها - على الشيخ حسن الكربلائي، وأخيراً استقر في مهجره العلمي الأخير، في بلد العلم والتقى النجف الأشرف (المدينة المقدسة التي تضم جثمان أمير المؤمنين عليه السلام).

استمر في دراساته العالية مدة تزيد على العشر سنوات، ودرس فيها: أصول الفقه، والفقه، والكلام، والحديث على أشهر الأساتذة الذين أنجبتهم مدرسة النجف الأشرف، أشهر المراكز العلمية للشيعة على الإطلاق.

وقد حصل فيها على إجازات من أساتذته تشهد له ببلوغ أقصى درجات الدراسة العلمية، وهو الاجتهاد المطلق.

أساتذته الأوائل

رزق الله سيدنا المترجم له أساتذة، قلماً يظفر بمثلهم متعلّم، درس على بعضهم في الكاظمية أولى محطّ رحاله، ثم على البعض الآخر في سامراء، وفي آخر مرحلة من دراساته انتهى به المطاف إلى حاضرة العلم الكبرى، وأكبر جامعة علمية للشيعة، النجف الأشرف، فقد تلقى دراساته العالية على أكابر العلماء، والأساتذة الأعلام الذين سنذكرهم منفردين:

١ - السيد هادي ابن السيد محمد الصدر (جد المترجم له لأمه)، أحد البارزين من علماء الكاظمية في عصره، وأحد أعلام الأسرة (١٢٣٥ - ١٣١٦ هـ / ١٨٢٠ - ١٨٩٨ م).

وكانت باكورة تلمذته عليه (في مدرسة البيت).

٢ - السيد يوسف ابن السيد جواد آل شرف الدين الموسوي العاملي (والده) (١٢٦١ - ١٣٣٤ هـ / ١٨٤٥ - ١٩١٦ م)، فقد تتلمذ عليه حينما عاش معه في عاملة.

٣ - السيد حسن ابن السيد محمد هادي الصدر (خاله الأكبر) (١٢٧٢ - ١٣٥٤ هـ / ١٨٥٦ - ١٩٣٥ م)، أحد أكابر علماء عصره المشاركين في عامة العلوم الإسلامية، وأحد أعلام الباحثين والمنقبين.

٤ - السيد إسماعيل ابن السيد محمد صدر الدين بن صالح بن محمد ابن إبراهيم شرف الدين الموسوي العاملي (١٢٥٨ - ١٣٣٨ هـ / ١٨٤٢ - ١٩٢٠ م)، أحد أكابر فقهاء الشيعة في عصره، وأحد أعلام أسرة الصدر.

٥ - الشيخ باقر ابن الشيخ علي آل حيدر (المتوفى ١٣٣٣ هـ / ١٩١٤ م)، الذي وصفه مترجموه بأنه (عالم كبير وأديب شهير)، وقد تتلمذ على هؤلاء الأعلام الثلاثة في سامراء.

٦ - الشيخ حسن بن علي بن محمد رضا الكربلائي (المتوفى ١٣٢٢ هـ / ١٩٠٤ م)، أحد أعلام فقهاء عصره.

أساتذته في النجف الأشرف

٧ - الميرزا حسين ابن الميرزا محمد تقي النوري الطبرسي (١٢٥٤ - ١٣٢٠ هـ / ١٨٣٨ - ١٩٠٢ م)، أحد أعلام علماء الحديث المشهورين، وصاحب المستدرک على وسائل الشيعة.

٨ - الشيخ آقا رضا ابن الشيخ محمد هادي الهمداني النجفي (١٢٥٠ - ١٣٢٢ هـ / ١٨٣٤ - ١٩٠٤ م)، الفقيه الكبير، وصاحب الموسوعة الفقهية القيمة (مصباح الفقيه).

- ٩ - المولى محمد كاظم الآخوند الخراساني (١٢٥٥ - ١٣٢٩ هـ / ١٨٣٩ - ١٩١١ م)، من أكابر المجتهدين، والقائد الديني للنهضة الإصلاحية ضد الاستبداد السياسي والانحراف عن أصول الحكم الإسلامي.
- ٩ - الشيخ محمد طه ابن الشيخ مهدي نجف النجفي (١٢٤١ - ١٣٢٣ هـ / ١٨٢٥ - ١٩٠٥ م)، أحد أعلام الفقهاء والمجتهدين الكبار.
- ١١ - الشيخ عبدالله بن محمد نصير المازندراني (١٢٥٦ - ١٣٣٠ هـ / ١٨٤٠ - ١٩١٢ م)، أحد أكابر الفقهاء والمجتهدين، وزميل الشيخ الآخوند الخراساني في الجهاد الديني والسياسي.
- ١٢ - السيد محمد كاظم بن عبدالعظيم الطباطبائي اليزدي (١٢٤٧ - ١٣٣٧ هـ / ١٨٢١ - ١٩١٩ م)، الفقيه والمرجع الديني الكبير.
- ١٣ - المولى فتح الله بن محمد جواد، شيخ الشريعة الأصفهاني (١٢٦٦ - ١٣٢٩ هـ / ١٨٥٠ - ١٩٢٠ م)، الفقيه والمرجع الديني الكبير، والقائد الديني للثورة العراقية ضد الاحتلال البريطاني.
- ١٤ - الشيخ علي ابن الشيخ باقر ابن الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر النجفي (المتوفى ١٣٤٠ هـ / ١٩٢٢ م)، فقيه ثبت، وعالم كبير. عُرف في الأوساط العلمية بالتحقيق ودقة النظر، والعمق وسعة الاطلاع. وكان حسن التقرير للأبحاث وبلغ العبارة.

إجازات الرواية والاجتهاد

الإجازات العامة

وتعني (الإجازة) شهادة يكتبها الأستاذ للتلميذ، بأنه درس عنده في العلوم التي يصرح بها في تلك الشهادة، وأنه بلغ فيها المرتبة التي يصرح بها الأستاذ في إجازته أيضاً. وتعني (الإجازة العامة) المرتبة العالية في الدراسات

الإسلامية، والتي تنتهي إلى أن يكتسب التلميذ القدرة على استنباط الأحكام الشرعية الدقيقة ببراعة فكره الثاقب، وحصيلته العلمية.

فقد أجاز مترجمنا عدة من أساتذته إجازات عامة، وهم:

الشيخ آغا رضا الهمداني، الذي أجازته إجازة عامة مؤرخة في (١٨ / ١٢ / ١٣٢٠ هـ الموافق ١ / ٣ / ١٩٠٣ م).

الآخوند الخراساني، فقد أجازته إجازة عامة مؤرخة في (٩ / ٣ / ١٣٢٢ هـ الموافق ٢٤ / ٥ / ١٩٠٤ م).

- الشيخ محمد طه نجف، فقد أجازته إجازة عامة مؤرخة في (١ / ١ / ١٣٢٢ هـ الموافق ١٨ / ٣ / ١٩٠٤ م).

- الشيخ عبدالله المازندراني، الذي أجازته إجازة عامة مؤرخة في (صفر ١٣٢٢ هـ / ١٩٠٤ م).

- شيخ الشريعة، الذي أجازته إجازة عامة مؤرخة في (٤ / ١ / ١٣٢٢ هـ الموافق ٢١ / ٣ / ١٩٠٤ هـ).

إجازات ومشايخ رواية الحديث

أولاً - علماء الشيعة الإمامية:

١ - والده السيد يوسف شرف الدين، الذي يصفه الشيخ مرتضى آل ياسين بـ (الفقيه الثابت العلامة الثقة). إجازة بإجازة عامة عن جميع مشايخه.

٢ - خاله السيد حسن الصدر بن محمد هادي بن محمد علي الحسيني (١٢٧٢ - ١٣٥٤ هـ / ١٨٥٦ - ١٩٣٥ م)، صاحب التصانيف التي قيل إنها تجاوزت المئة، ومنها: الشيعة وفنون الإسلام. واسمه يكفي بالتعريف به. أجازته إجازة عامة عن جميع مشايخه.

٣ - السيد (الميرزا) محمد هاشم بن زين العابدين الموسوي الأصفهاني

صاحب كتاب (مباني الأصول). أجازته عن مشايخه يوم زار الأصفهاني النجف عام (١٣١٨هـ).

٤ - الميرزا حسين النوري، فقد أجازته إجازة مؤرخة في (١ / ٩ / ١٣٢٠هـ الموافق ٢ / ١٢ / ١٩٠٢م).

٥ - شيخ الشريعة الأصفهاني فتح الله بن محمد جواد. أجازته في الرواية عن مشايخه هو وأخوه السيد شريف عام (١٣٢٢هـ).
ثانياً - علماء الزيدية:

٦/١ - الشيخ عبدالواسع بن يحيى الواسعي اليمني الصنعاني (١٢٩٥ - ١٣٧٩ هـ / ١٨٧٨ - ١٩٦٠م)، المؤرخ العارف بالحديث، له مؤلفات عديدة مطبوعة. أجازته في الرواية بطرقه كلها، يوم زار الصنعاني دمشق عام (١٣٣٨هـ).

ثالثاً - علماء السنة:

٧/١ - الشيخ سليم البشري بن أبي فراج بن سليم (١٢٨٤ - ١٣٣٥ هـ / ١٨٦٧ - ١٩١٧م)، شيخ الجامع الأزهر وإمام مصر في عصره، من فقهاء المالكية. أجازته بإجازة عامة بجميع أسانيده وطرقه عام (١٣٢٩هـ).
٨/٢ - الشيخ محمد بخيت بن حسين المطيعي الحنفي (١٢٧١ - ١٣٥٤هـ / ١٨٥٤ - ١٩٣٥م)، مفتي الديار المصرية، ومن كبار فقهاءها.
٩/٣ - محمد بن يوسف بن عبدالرحمن المراكشي المعروف بـ(بدر الدين) الحسني (١٢٦٧ - ١٣٥٤ هـ / ١٨٥١ - ١٩٣٥م). أجازته بدمشق سنة (١٣٣٨هـ).

١٠/٤ - الشيخ محمد بن محمد بن عبدالله الخاني الخالد النقشبندي الشافعي. أجازته أيام اجتماعهما في بيروت ودمشق.
١١/٥ - الشيخ توفيق الأيوبي الأنصاري الدمشقي. أجازته عن شيوخه

يوم التقيا في صور ودمشق.

١٢/٦ - الشيخ محمد عبدالحى بن عبدالكريم بن محمد الحسني الإدريسي الكتّاني الفاسي، الذي له ثبت كبير بأساتذته وإجازاته ومروياته، أسماه (فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات) طبعه في جزأين بفاس. أجازته برواية صحيح البخاري يوم التقيا معاً في مصر.

ولمزيد التفصيل يراجع: تثبت الأثبات في سلسلة الرواة للمترجم، ومختصره في مقدمة الشيخ مرتضى آل ياسين للطبعة الثانية من المراجعات، والشيخ عبد الحميد الحر...

تعريف بأهم مؤلفاته المطبوعة

١ - أبو هريرة:

يعرف المؤلف كتابه في مفتحه بقوله: «هذه دراسة لحياة صحابي روى عن رسول الله ﷺ فأكثر حتى أفرط، وروت عنه صحاح الجمهور (إخواننا السنة) وسائر مسانيدهم فأكثر حتى أفرطت أيضاً، ولا يسعنا إزاء هذه الكثرة المزدوجة إلا أن نبحث عن مصدرها لاتصالها بحياتنا الدينية والعقلية اتصالاً مباشراً، ولولا ذلك لتجاوزناها وتجاوزنا مصدرها...». وقد طبع الكتاب عدة طبعات.

٢ - الفصول المهمة في تأليف الأمة:

يبحث عن أسباب الشقاق والخلاف بين المسلمين وعن طرق إزالته...

٣ - الكلمة الغراء في تفضيل الزهراء (عليها السلام):

يقول المؤلف في فاتحتها: «ألقتها جواباً لمن سألني، فقال: هل للإمامة دليل يعتبره خصومهم في تفضيل فاطمة الزهراء (عليها السلام) على سائر هذه الأمة؟

وما ذلك الدليل والحجة؟ أرجو التفصيل...».

طُبِعَ هذان الكتابان معاً عدة مرات.

٤ - أجوبة مسائل موسى جار الله:

كان (موسى جار الله) مسلماً تركستانياً هرب من بلاد تركستان الروسية حينما قامت الثورة الشيوعية فيها، وعاش مدة في البلاد الشيوعية في إيران والعراق، وكان يتظاهر فيها أمام الرأي العام بأنه شيعي... إلا أنه لما انتهى به المطاف إلى مصر، ارتأى أن يكفر عن ذلك بأن كتب كتاباً ضمّنه مسائل انتقد فيها الشيعة، وصاغه بصورة أسئلة موجهة إلى علماء الشيعة.. وكان ممن أجاب عن مسأله مترجمنا في هذا الكتاب.

٥ - النص والاجتهاد:

(النص) مصطلح أصولي وارد في (علم أصول الفقه)، ويقصد منه الدليل الشرعي الذي لا يسع المسلم مخالفة مؤداه، وأنه مضطر إلى الأخذ به والعمل بمضمونه؛ لأنه لا لبس ولا إبهام في دلالة، ولا شك ولا تشكيك في حجّيته واعتباره، كالقرآن الكريم، والسنة النبوية التي ثبتت بطرق صحيحة، اعترف بثبوتها المسلمون جميعاً.

و(الاجتهاد) مصطلح أصولي آخر، ويقصد منه هنا: أن يكون للمسلم حرية الرأي وأعمال الفكر، ويختص هذا في الموارد التي لا يكون المسلم فيها مضطراً إلى الأخذ بدليل معيّن، وعدم التجاوز عن مدلوله...

والاجتهاد بهذا المعنى يختلف عنه (الاجتهاد) الذي يقصد منه استنباط الحكم الشرعي واستخراجه من مصادره أو منابعه.

فالاجتهاد بهذا المعنى هو الذي يقصده الأصل القائل: (لا اجتهاد إن كان هناك نص).

أما الكتاب فله أهمية في الأوساط العلمية؛ لأنه عالج قضايا، رغم

صعوبتها، إلا أنها لا شك سوف تعود على الأمة الإسلامية بالنفع العميم في طريق توحيد كلمتها، ووقوفها أمام تحديات العصر.

فقد عرض فيه مؤلفه لتأويلات السلف للنصوص الصريحة، واجتهادهم في إثبات المصلحة عليها! وقد أوصلها ﷺ إلى مئة مورد في فصول سبعة.

وهناك مصنفات مهمة عديدة مطبوعة كالمراجعات وغيرها مما لا تتسع له صفحات مقالنا هذا المحدودة، والله الموفق.

المرجعية العلمية لأهل البيت عليهم السلام تتسالم عليها الأمة

الشيخ محمد علي التسخيري (*)

مدخل

ظل موضوع المرجعية العلمية للمسلمين محوراً للنقاش والبحث طيلة مئات من السنين، وكانت أهمية هذا الموضوع تزداد كلما ابتعد المسلمون زمنياً عن عصر صدر الإسلام، وتحديدأ عصر النص القرآني والنبوي. وكان من شأن اتفاق المسلمين على مساحة مشتركة في هذا المجال أن يشكل أحد أهم محاور الوحدة الإسلامية.

وإذا كان القرآن الكريم وسيرة رسول الله ﷺ وسنته المحورين الأساسيين اللذين يشكلان الإطار الذي يجمع المسلمين في داخله، فإن المرجعية العلمية التي تفسر القرآن الكريم، وتكشف عن وجوهه، وتحسم حالة الاختلاف حول أحكامه في الجانبين العقيدي والفقهية، وكذا الحال بالنسبة للسنة النبوية الشريفة، هذه المرجعية العلمية هي أهم قضية ظلت حائلاً دون اتفاق المسلمين في البعد العلمي للاختلاف.

وفي هذا البحث نحاول الاستمرار في الحوار العلمي حول هذه المرجعية العلمية، مع افتراض أنها تتمثل في الأئمة من أهل بيت رسول الله ﷺ؛ إذ أن طرح هذا الافتراض في مدخل البحث سيحصر موضوع البحث في دائرة واضحة في معالمها، ويحول دون تشتت محاور البحث وتشظي خطته. ولا شك أن هذا الافتراض مبني على أسس رصينة سنأتي عليها في

(*) الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.

فقرة المرجعية العلمية للمسلمين في القرآن والسنة؛ لأن القرآن والسنة هما المصدران المقدسان اللذان يحتج بهما المسلمون على اختلاف فرقهم ومذاهبهم.

ومن هنا فمنهج البحث يقوم على محاولة إثبات محورية مرجعية أهل البيت عليهم السلام العلمية، وقد سعينا لاستخدام الموسوعات الحديثية والفقهية والتاريخية لأهل السنة أكثر من استخدامنا لكتب الشيعة، وذلك لسبب موضوعي، إذ أن الشيعة يعتقدون بما لا يقبل الشك بالمرجعية العلمية لأهل البيت عليهم السلام، فهو القاعدة التي قام عليها مذهبهم. ومن هنا سيكون الحديث باتجاه مذاهب المسلمين الأخرى للبحث معاً، وفي إطار حوار علمي معمق حول الاتفاق على شكل ومضمون المرجعية العلمية التي يُجمع عليها المسلمون.

وهذا الاكتشاف المشترك سيؤدي آلياً إلى تجاوز الخلاف التاريخي، والتركيز على المساحات المشتركة التي تجمع المسلمين في الحاضر والمستقبل، فضلاً عن رفع الحيف عن جزء كبير من المعارف الإسلامية، التي ظل القسم الأكبر من المسلمين يتجاوزها ولا ينتفع بها، برغم أنها بحر لجي من العلوم والمعارف.

وستعتمد خطة البحث مجموعة محاور، يشكل كل محور منها محطة من الاستدلالات التي تخرج بنتيجة علمية تثقل البحث آلياً إلى المحور اللاحق الذي سيحول النتيجة باتجاه التكامل، وفقاً للمنهج الاستقرائي الذي سنتحدث عنه في الخاتمة.

المرجعية العلمية للمسلمين في القرآن والسنة

ونقصد بالمرجعية العلمية - كما أشرنا - النقطة المشتركة التي يتفق

عليها المسلمون، وتنتهي عندها مسائل الاختلاف بين المسلمين، ولا سيما في المجالين العقيدي والفقهية، وهي المرجعية التي تكشف عن حقائق القرآن الكريم والسنة النبوية، بالصورة التي تحسم خطوط التقاطع بين المسلمين. ومن الطبيعي أن يترك الرسول الأعظم ﷺ مرجعية علمية تتكفل حل النزاع حول القرآن الكريم وتفسيره والسنة وتوضيحها، خصوصاً وأنها لم تجمع على عصر الرسول، وإنما اعطيت بشكل متفرق، وبهذا يكفل القرآن أن تربي الأمة وتوحد مسيرتها لمواجهة المخاطر التي تكتنفها.

وبما أن القرآن الكريم والسنة الشريفة هما المصدران المقدسان لدى المسلمين كافة، فسنترك القرآن والسنة ينطقان بنوعية هذه المرجعية وباسمها وصفاتها. ولسنا هنا بصدد الدخول في المباحث الأصولية بشأن حجية الأدلة؛ لأننا سوف لن نخرج عن المساحات المتفق عليها، ولا سيما في ما يرتبط بالحديث الشريف وحجيته ودلالة بعض النصوص.

ومن خلال استقراء ما ورد في القرآن الكريم والسنة الشريفة من نصوص حول هذه المرجعية، وجدنا أن النصوص لا تشير إلى مرجعية أخرى غير مرجعية أهل البيت ﷺ، وإن كانت هناك بعض الأحاديث التي يختلف فيها المسلمون، ولذا تجاوزناها إلى ما يتفقون عليه. وبالنظر لضيق المساحة المحددة للبحث، فسوف نستعرض أدلة القرآن والسنة استعراضاً سريعاً بالصورة التي لا تطيل البحث، ولكنها تفي بالغرض.

ونبدأ أولاً ببعض آيات القرآن الكريم المفسرة بالسنة الشريفة:

١ - يقول تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١). جاء في تفسير ابن جرير الطبري بسنده عن جابر الجعفي: لما نزلت هذه الآية، قال علي: «نحن أهل الذكر»^(٢).

ويقول الحارث سألت علياً عن هذه الآية: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ

لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾، فقال: «والله إنا لنحن أهل الذكر، نحن أهل الذكر، نحن أهل العلم، ونحن معدن التأويل والتنزيل» (٣).

٢ - يقول تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ (٤). جاء عن الإمام علي عليه السلام في خطبة له: «أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا كذباً وبغياً علينا أن رفعنا الله ووضعهم، وأعطانا وحرّمهم، وأدخلنا وأخرجهم، بنا يستعطى الهدى ويستجلى العمى» (٥).

٣ - يقول تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (٦). عن أبي سعيد الخدري قال: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية، قال: «ذاك أخي علي بن أبي طالب» (٧).

٤ - يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (٨). وفي تفسير هذه الآية يقول الرسول ﷺ: «أنا وأهل بيتي مطهرون من الذنوب» (٩).

وآية التطهير هذه تؤكد العناية الإلهية الخاصة بأهل البيت عليه السلام، وإبعادهم عن الزلل والانحراف؛ ليشكلوا نماذج إنسانية سامية يتم الرجوع إليها عند اختلاف المرجعيات.

٥ - يقول تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (١٠). روى عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ عندما سئل عن هذه الآية: «ومن هم القربى؟ قال: «علي وفاطمة وابناها» (١١). وعن سعيد بن جبیر أنهم: (قربى آل محمد) (١٢).

وهذه الآية تشد القلوب والعقول إلى آل البيت، وتؤكد أن محبتهم الحقيقية هي أجر الرسالة، وموالاتهم - في البعد العلمي كحد أدنى - هي المودة الحقيقية، وربما يستفاد من الآية الكريمة: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (١٣) للتلازم بين الاتباع والمودة.

٦ - يكشف حديث الكساء عن المقصود بأهل البيت عليهم السلام. يروي ابن عباس: أخذ رسول الله ﷺ ثوبه فوضعه على علي وفاطمة وحسن وحسين وقال: **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾**. وفي خبر: دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فجلل عليهم كساء خبيراً، فقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». قالت أم سلمة لرسول الله ﷺ: أأنت منهم؟ قال: «أنت إلى خير» (١٤).

وقد رواه عن أم سلمة: عطاء بن يسار، وأبو سعيد الخدري، وأبو هريرة، وحكيم بن سعد، وشهر بن حوشب، وعبد الله بن المغيرة، وعطاء بن أبي رباح، وعمرة ابن أفعى، وعلي زين العابدين عليه السلام.

كما روى الحديث عن عائشة كل من: صفية بنت شيبة، العوام بن حوشب، عن التميمي، وجميع بن عمير، وقد روته على النحو التالي: خرج النبي ﷺ غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾** (١٥).

وقد روى حديث الكساء جمع كثير من الصحابة أيضاً، منهم: أبو سعيد الخدري، وأبو برزة، وأبو الحمراء، وأبو ليلى الأنصاري، وأنس بن مالك، والبراء بن عازب، وثوبان، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وزيد بن أرقم. وزينب بنت أبي سلمة، وسعد بن أبي وقاص، وصبيح مولى أم سلمة، وعبد الله بن جعفر، وعمر بن أبي سلمة، وعمر بن الخطاب وغيرهم.

وتتص رواياتهم على أن قصد النبي ﷺ من أهل البيت هم: علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، ومعظم أسانيد هذه الروايات منقولة من

صحاح أهل السنة وموسوعاتهم الحديثية^(١٦).

٧ - ويكشف حديث الثقلين أيضاً عن المقصود بأهل البيت (عليه السلام)، وهم العترة. وعن مرجعيتهم الشاملة يقول رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»^(١٧).

وفي رواية أخرى أنه قال ﷺ: «إني قد تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله تعالى وعترتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما فإنهما لن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض»^(١٨).

وحديث الثقلين جعل أهل البيت عدلاً للقرآن، وقد رواه عن النبي ﷺ أكثر من (٣٣) صحابياً، منهم: أبو أيوب الأنصاري، وأبو ذر الغفاري، وأبو سعيد الخدري، وأبو شريح الخزاعي، وأبو قدامة الأنصاري، وأبو هريرة، وأم سلمة، وأنس بن مالك، وخزيمة ذو الشهادتين، وسعد بن أبي وقاص، وزيد بن ثابت، وسلمان الفارسي، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عباس، وعمر بن الخطاب، وعمر بن العاص^(١٩).

ومن خلال حديث الثقلين يستدل بعض علماء أهل السنة على أن المرجعية المقصودة في الحديث هي مرجعية الفقه، وحسب تعبيره: (لا يدل على إمامة السياسة، وأنه أدل على إمامة الفقه والعلم)^(٢٠)، ولا نريد هنا الدخول في نقاش حول دلالة الحديث، ولكن نكتفي بالحد الأدنى المتفق عليه بين الفريقين، وهو الدلالة على إمامة أهل البيت العلمية.

يقول أحد الباحثين بأنه جمع (١٨٥) مرجعاً من عيون مراجع أهل السنة ذكرت بأكملها نص: (كتاب الله والعترة)، وأن المقصود بالعترة أهل البيت الذين سمّاهم الرسول ﷺ أكثر من مرة، كما في دلالة هذا

الحديث وحديث الكساء (٢١).

٨ - عن أنس بن مالك، قال الرسول ﷺ لعلّي ﷺ: «أنت تبين لأمتي ما اختلفوا فيه بعدي» (٢٢)، والحديث واضح الدلالة على المرجعية العلمية لأهل البيت.

٩ - عن سلمان الفارسي، قال الرسول ﷺ: «أعلم أمتي من بعدي عليّ ابن أبي طالب» (٢٣).

١٠ - يقول الرسول ﷺ مخاطباً السيدة فاطمة الزهراء: «أما ترضين أني زوجتك أول المسلمين إسلاماً وأعلمهم علماً» (٢٤).

١١ - عن عبدالله بن عباس، قال رسول الله ﷺ: «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف» (٢٥).

١٢ - عن أبي ذر الغفاري، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إن مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح في قومه، فمن ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق» (٢٦).

١٣ - قول الإمام عليّ ﷺ: «إنا نحن أهل البيت أعلم بما قال الله ورسوله» (٢٧).

١٤ - يقول الإمام عليّ ﷺ: «... نحن شجرة النبوة، ومحط الرسالة، ومختلف الملائكة، ومعادن العلم، وينايع الحكم» (٢٨).

١٥ - عن جابر بن سمرة، قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة، أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة، كلهم من قريش» (٢٩).

١٦ - وعن عبدالله بن مسعود أنهم سألوا الرسول ﷺ عن عدد خلفاء الأمة فقال: «اثنا عشر، كعدة نقباء بني إسرائيل» (٣٠).

وهناك عدد كبير من الأحاديث الصحيحة من مصادر الفريقين تشير

إلى المعنى نفسه مع اختلاف في الألفاظ.

وبناء على ذلك، فإن المسلمين بأجمعهم متفقون على أن عدد الأوصياء أو الخلفاء أو النقباء والأمراء والأئمة بعد الرسول ﷺ هو اثنا عشر، وكلهم من قریش، وأنهم معينون بالنص كما هو مقتضى تشبيههم بنقباء بني إسرائيل، وأن هذه الأحاديث أكدت بقاء هؤلاء الأئمة ما بقي الدين الإسلامي أو حتى تقوم الساعة، كما هو مقتضى رواية مسلم في صحيحه. وهذه الأحاديث كانت ماثورة في بعض الصحاح والمسانيد قبل أن يكتمل عدد الأئمة (من عليّ وحتى المهدي)، فمن المستحيل - إذن - أن تكون هذه الأحاديث موضوعة بعد اكتمال العدد المذكور، فضلاً عن أن رواة الأحاديث من طرق أهل السنة هم من الموثوقين لديهم. وعموماً، فإن حجية ما استعرضناه من آيات وأحاديث، يترتب عليه واقع عملي، وهو الواقع الذي ندعو المسلمين جميعاً إلى صياغته وبلورته، دون أن يفقد أي مذهب إسلامي خصوصياته.

المكانة العلمية لأهل البيت ﷺ في الواقع الإسلامي

ظل المسلمون على مختلف تياراتهم ومدارسهم الكلامية والفقهية ينظرون لأهل البيت ﷺ، نظرة خاصة تميزهم عن غيرهم من الصحابة والتابعين والفقهاء، الأمر الذي تغص به كتب الحديث والفقه والتاريخ. ولولا السياسة المزيفة التي مارسها بعض الحكام، في العهدين الأموي والعباسي؛ لبقيت مكانة أهل البيت راسخة في عقول المسلمين وقلوبهم، إذ سعت هذه السياسة المنحرفة إلى تزيف الحقائق والتحايل على الواقع؛ من أجل صرف الأنظار عن أهل البيت ومرجعيتهم. ولكي لا يطول بنا المقام نستعرض هنا جزءاً من الشهادات التي أدلى

بها كبار الصحابة والتابعين الفقهاء بحق أهل البيت عليهم السلام، بالصورة التي تعكس تطابقاً كاملاً بين الواقع الذي جسده أهل البيت عملياً، والنصوص الواردة في القرآن والسنة، ونظرة المسلمين الموضوعية لأهل البيت عليهم السلام.

وإذا تجاوزنا عصر الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله إلى عصر الخلفاء، فسنرى أن البداية كانت مع الخليفة الأول أبي بكر، برغم الملابس المعقدة التي شابت الواقع الإسلامي منذ وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، فأبو بكر رجع إلى الإمام علي عليه السلام في موضوع قتال أهل الردّة، وفي كثير من الأحكام الشرعية^(٣١). أما الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، فكان أكثر الخلفاء تعبيراً عن هذه الحقيقة، إذ كان دائم الرجوع إليه في المسائل العقائدية والفقهية والاجتماعية والسياسية^(٣٢)، حتى إن مقولات عمر التاريخية في علي بن أبي طالب تظهر أن عمر كان من أكثر المسلمين إعجاباً بالإمام علي، وانبهاراً بشخصيته وعلمه، وإيماناً بدوره ومكانته وموقعه، يقول عمر: (أعوذ بالله أن أعيش في قوم لست فيهم يا أبا الحسن)^(٣٣)، (لولا عليّ لهلك عمر)^(٣٤)، (أنت [يا عليّ] خيرهم فتوى)^(٣٥)، (اللهم لا تنزل بي شدة إلاّ وأبو الحسن إلى جنبي)^(٣٦)، (أبا حسن! لا أبقاني الله لشدة لست لها، ولا في بلد لست فيه)^(٣٧)، (يا ابن أبي طالب! فما زلت كاشف كل شبهة، وموضع كل حكم)^(٣٨)، (أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن)^(٣٩)، (لا أبقاني الله بعدك يا عليّ)^(٤٠)؛ وذلك لأن الإمام علياً عليه السلام كان ينجذ عمر في المشاكل العقائدية والفقهية التي تعترضه، أو التي يخرجه فيها المسلمون وغير المسلمين. وهذا من جملة ما يُردُّ به على من يزعم أن علياً اعتزل الأمة والسلطة، إذ أن تعدد الروايات التي يعجب عمر بعليّ إلى العشرات، يكشف عن تدخله في القضايا المختلفة، وإفتائه فيها.

ومن الأحداث الجديرة بالذكر في هذا المجال، حادثة كتابة التاريخ، إذ أن علي بن أبي طالب هو الذي أشار على الخليفة عمر بن الخطاب أن يبدأ بكتابة التاريخ من اليوم الذي هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، ففعل ذلك عمر^(٤١). وكذلك رجع إليه في أن يقود الجيش الذي يفتح إيران، والجيش الذي قاتل الروم، وسنأتي على ذلك في فقرة قادمة.

وكذا الحال مع عثمان بن عفان الذي رجع إليه في كثير من المسائل العقائدية والفقهية، بالصورة التي نصت عليها كتب الحديث والفقه والتاريخ^(٤٢).

وكانت عائشة أيضاً تحيل كثيراً ممن يسألها في الأحكام الشرعية إلى الإمام علي، ومن أقوالها المأثورة في هذا المجال: (عليك بابن أبي طالب لتسأله)^(٤٣)، (أنت علياً فإنه أعلم بذلك مني)^(٤٤).

وروى الحاكم بسنده عن قيس بن أبي حازم أن الصحابي سعد بن أبي وقاص نهر رجلاً تعرض للإمام علي عليه السلام، فقال عنه: (ألم يكن أول من أسلم؟) ألم يكن أول من صلى مع رسول الله ﷺ؟ ألم يكن أعلم الناس؟^(٤٥).

والتاريخ ليشهد أن لقب الإمام صار من أشهر الألقاب لعلي، وهناك العديد من الشهادات أيضاً في الإمام الحسن والإمام الحسين، وعلي بن الحسين وباقي الأئمة، ولعل من المناسب هنا ذكر أبيات من ميمية الفرزدق في مدح أهل البيت عليه السلام، وتحديد الإمام علي بن الحسين (زين العابدين)، حيث يقول:

من معشر حبههم دين وبغضهم	كفر وقربهم منجى ومعتصم
مقدم بعد ذكر الله ذكرهم	في كل بدء ومختوم به الكلم
إن عدّ أهل التقى كانوا أئمتهم	أو قيل من خير أهل الأرض؟ قيل هم ^(٤٦)

وكذلك رائية أبي نواس التي يمتدح فيها أهل البيت عليهم السلام، إذ يقول:

مطهرون نقيات ثيابهم تجري الصلاة عليهم أينما ذكروا
فألله لما برى خلقاً فأتقنه صفاكم واصطفاكم أيها البشرُ
فأنتم الملاء الأعلى وعندكم علم الكتاب وما جاءت به السور (٤٧)

أما ميمية أبي فراس الحمداني، فهي من أكثر القصائد تعبيراً عن مكانة أهل البيت، ونقتطف منها هنا ما يرتبط بالبعد العلمي:

الحق مهتضم والدين مخترم وفيء آل (رسول الله) مقتسمُ
خلوا الفخار لعلامين إن سئلوا يوم السؤال وعمالين إن عملوا
لا يفضبون لغير الله إن غضبوا ولا يضيعون حق الله إن حكموا
تنشى التلاوة من أبياتهم أبداً وفي بيوتكم الأوتار والنعيم (٤٨)
الركن والبيت والأستار منزلهم وزمزم والصفاء والحجر والحرم (٤٩)

وهذا التعبير يكشف - في حقيقته - عن اتجاه الرأي العام الإسلامي في ما يرتبط بالمكانة التي يختص بها أهل بيت النبوة عليهم السلام، بل إن هذا الاتجاه لم يقتصر على الشعراء وعموم الناس، بل عمّ حتى الفقهاء وأئمة المذاهب الإسلامية، فالشافعي أنشد يقول:

آل النبي ذريعتي وهم إليه وسليتي
أرجو بهم أعطى غداً بيدي اليمين صحتي (٥٠)

وكان عدد كبير من أئمة المذاهب الإسلامية، وكبار الفقهاء قد درسوا على أئمة أهل البيت عليهم السلام، ولا سيما الإمام جعفر الصادق، إذ جمع الحافظ ابن عقدة أسماء أربعة آلاف رجل من الفقهاء والمحدثين، روى ودرسوا على الإمام الصادق عليه السلام، وذكر ابن عقدة مصنفات كثير من هؤلاء^(٥١). وقد ذكر الشيخ الطوسي في فهرسته أسماء بعضهم، مما يدل

على أن أكثرهم لم يكونوا من الشيعة في الظاهر، وكان فيهم عدد من الأئمة المعروفين من مثل: مالك بن أنس، أبو حنيفة النعمان^(٥٢)، يحيى بن سعيد، ابن جريج، سفيان الثوري، شعبة بن الحجاج، عبدالله بن عمرو، روح بن القاسم، سفيان بن عيينة، إسماعيل بن جعفر، إبراهيم بن طحان، وغيرهم^(٥٣).

ولعل مقولة أبي حنيفة الشهيرة: (لولا السنتان لهلك النعمان)^(٥٤) - وهما السنتان اللتان حضر فيهما دروس الإمام الصادق عليه السلام، وتتلّمذ عليه - تشير إلى عمق التأثير العلمي لأئمة أهل البيت عليه السلام في الواقع الإسلامي. ومثلها مقولة مالك بن أنس: (ما رأت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد الصادق علماً وعبادة وورعاً)^(٥٥).

ويوضح الشيخ أبو زهرة هذا الواقع بقوله: كان أبو حنيفة يروي عن الإمام الصادق، ويراه أعلم الناس باختلاف الناس، وأوسع الفقهاء إحاطة، وكان مالك يختلف إليه دارساً راوياً. ولا يزيده فضل الأستاذية على أبي حنيفة ومالك فضلاً، فالصادق لا يمكن أن يؤخّر عن نقص ولا يقدّم عليه غيره عن فضل، وهو فوق هذا حفيد علي زين العابدين عليه السلام، الذي كان سيد أهل المدينة في عصره فضلاً وشرفاً ودينياً وعلمياً، وقد تتلمذ له ابن شهاب الزهري وكثير من التابعين، كما أن الصادق هو ابن محمد الباقر الذي بقر العلم ووصل إلى لبابه^(٥٦).

أسلوب المناظرة يكشف عن علم أهل البيت عليه السلام

كانت حياة أهل البيت مليئة بالحوار العلمي، فهم رجال الحوار الذين تمثلوا آدابه وأساليبه الصحيحة بالشكل والمضمون اللذين أوضحهما القرآن الكريم، فكانت مجالسهم أو المجالس التي يحضرونها ساحة للمناظرات،

ومواقف للاحتجاج.

وتختلف هذه المناظرات في دوافعها باختلاف الأحداث التي أدت إليها، فهناك مناظرات كان بعض الحكام يهدفون إلى إحراج أهل البيت فيها، وأخرى كانت تجري في جو علمي صرف هدفه إظهار الحقيقة، وثالثة كانت بطلب من آخرين، حكماً أم رواة وفقهاء، بعد أن عجزوا عن مجارة الخصم. وقد جمع بعض المؤلفين هذه المناظرات في كتب خاصة نقلوها من مصادرها الأصلية. من قبيل كتاب الاحتجاج للمرحوم الطبرسي. والمهم في هذه المناظرات، وبكلمة أدق ما يفيدنا في هذا البحث، هو أن أئمة أهل البيت عليهم السلام لم يخصموا أو يخرجوا أو يترددوا في أي من هذه المناظرات، برغم أن بعضهم (كالإمام محمد الجواد) أقحم في مناظرة علمية رفيعة المستوى، وهو دون التاسعة من عمره - كما سيأتي - فضلاً عن المستوى العلمي الفريد الذي كانت تكشفه هذه المناظرات، مما يجعلها دليلاً آخر من الواقع العملي على مرجعية أهل البيت التي لا يناقضهم عليها أحد.

وأول من دخل في هذه المناظرات الإمام علي عليه السلام، وكانت غالباً مع أصحاب الديانات الأخرى، كاليهود والنصارى والمجوس وغيرهم، فضلاً عن حوارهم مع الغلاة، بهدف استتابتهم، ومع الذين خرجوا على إجماع الأمة حول خلافته، بل كان يحث الأمة على أن يسألوه عن كل شيء في العقائد والأحكام والعلوم النظرية والطبيعية، ولطالما ناداهم: «سلوني قبل أن تفقدوني»^(٥٧).

وعلى سيرة علي عليه السلام سار ولده الحسن والحسين عليهما السلام، فمن مناظرات الإمام الحسن الشهيرة، مناظرته مع الرجل الشامي الذي أرسله معاوية بن أبي سفيان، ومعه أسئلة عميقة في مضامينها كتبها له القساوسة الروم،

ويريد أن يسأل بها الإمام علياً عليه السلام ليحرجه، فأحاله الإمام عليّ على ولده الحسن عليه السلام، الذي أجابه عن كل الأسئلة الدينية والعلمية والفلسفية التي كان يحملها الرجل الشامي^(٥٨). وعلى غرار هذه المناظرة كانت مناظرة الحسن البصري مع الإمام الحسن عليه السلام حول القضاء والقدر^(٥٩).

وللحوول دون الإطالة في هذا المجال، سنقتصر على ذكر بعض النماذج من مناظرات الإمام جعفر الصادق، وهي كثيرة جداً ومطولة، بالنظر للفترة التاريخية الاستثنائية التي عاشها الإمام الصادق عليه السلام.

ومن هذه النماذج: مناظرته مع أبي حنيفة النعمان التي أقحمه فيها المنصور، وأخرج فيها أبو حنيفة، إذ يرويها الأخير بنفسه، يقول: (ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد، لما أقدمه المنصور بعث إليّ، فقال: يا أبا حنيفة! إن الناس قد افتتوا بجعفر بن محمد، فهبّ له من المسائل الشداد، فهيأت له أربعين مسألة. ثم بعث إليّ أبو جعفر (المنصور) وهو بالحيرة، فأتيته فدخلت عليه وجعفر بن محمد (الصادق) عن يمينه، فلما أبصرت به دخلتني الهيبة لجعفر بن محمد الصادق ما لم يدخلني لأبي جعفر (المنصور)، فسلمت عليه وأومأ إليّ فجلست. ثم التفت إليه فقال: يا أبا عبد الله (الصادق) هذا أبو حنيفة. فقال: نعم.. ثم التفت إليّ المنصور فقال: يا أبا حنيفة! ألق على أبي عبد الله من مسائلك، فجعلت ألقى عليه؛ فيجيبني فيقول: أنتم تقولون كذا، وأهل المدينة يقولون كذا، ونحن نقول كذا، فربما تابعنا وربما تابعهم، وربما خالفنا جميعاً، حتى أتيت على الأربعين مسألة، ثم قال أبو حنيفة:

ألسنا رويناً أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس^(٦٠).

وهناك أيضاً حوار شهير بين الإمام الصادق عليه السلام مع أحد زعماء الزنادقة، في شتى العلوم الدينية والفلسفية وعلوم الديانات الأخرى، وأدت

أجوبة الإمام الصادق عليه السلام بالزندق إلى الإيمان ودخول الإسلام (٦١).
وللإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام حوار معروف ومطول، وثقه كثير
من المؤرخين، مع علماء ومتكلمي النصارى واليهود والصابئة والمجوس، إذ
جمعهم الفضل بأمر من الخليفة المأمون. وطلب منهم أن يتناظروا أمامه،
وكانت النتيجة أن أسلم كثير من هؤلاء العلماء والمتكلمين على يد الإمام
الرضا عليه السلام.

وقد استمر المأمون - بعد انتهاء المناظرة - في طرح أسئلته على الإمام
الرضا عليه السلام في مختلف العلوم (٦٢)، فكان المأمون يزداد بعد كل جواب
دهشة وذهولاً من مستوى علم الإمام، وهي دهشة كانت مشوبة بالخوف من
هذا الرجل، الذي قد يشكل إجماع الناس عليه خطراً على الدولة
العباسية.

أما المناظرة الأكثر إثارة ودهشة، فهي مناظرة الإمام محمد بن علي
الجواد عليه السلام مع يحيى بن أكثم (قاضي القضاة في عهد المأمون). وكان
الإمام الجواد حينها دون التاسعة من عمره، وكانت هذه المناظرة عبارة عن
رهان بين المأمون وبطانته حول علم الإمام الجواد، وهي في الواقع امتحان
أرادوا إخراج الإمام الجواد فيه، مستغلين صغر سنه (٦٣)، وحين اكتمل
المجلس بحضور المأمون وعدد كبير من قادة الدولة والعلماء والرواة وزعماء
الأسرة العباسية، طرح يحيى بن أكثم سؤالاً قصيراً على الإمام الجواد
حول حكم: (محرم قتل صيداً). فأجابه الإمام الجواد عليه السلام بصيغة سؤال:

«هل قتله في حل أو حرم؟»

عالمًا كان المحرم أو جاهلاً؟

قتله عمدًا أو خطأ؟

حرًا كان المحرم أو عبدًا؟

صغيراً كان أو كبيراً؟

مبتدئاً بالقتل أو معيداً؟

من ذوات الطير كان (الصيد) أم من غيرها؟

من صغار الصيد أم من كبارهم؟

مصرأً على ما فعل أو نادماً؟

في الليل كان قتله للصيد أم بالنهار؟

محرمأً كان بالعمرة إذ قتله أو بالحج كان محرمأً؟.

فتحير يحيى بن أكثم وعجز عن مجازاة الإمام.

حينها طلب المأمون من الإمام الجواد أن يفصل أحكام كل تشقيق من التشقيقات التي وضعها الإمام للسؤال. فأجاب عنها الإمام الجواد بالتفصيل واحدة تلو الأخرى. مما أسقط في يد يحيى وبطانة المأمون ما كانوا يضمرونه للإمام الجواد (ابن السنوات التسع فقط أو دونها) (٦٤).

ولعل هذه المناظرة وما أسفر عنها من نتائج، تكفي وحدها للدلالة على أهمية أسلوب المناظرات وفاعليته في الكشف عن مرجعية أهل البيت، دون أن يؤثر في ذلك سن أو زمان أو مكان، فلا يمكن أن يكون النجاح الدائم والمطلق في المناظرات - التي كان كثير منها يأخذ طابع الامتحان - مجرد صدفة. فالصدفة هنا مستحيلة، كما يقول أحد الفقهاء (٦٥)؛ لأنها ممكنة في حدود امتحان ما لشخص ما وفي مجال ما، ولكن أن يكون الامتحان في مختلف المجالات، ويتكرر باستمرار، سواء بالنسبة لكل واحد من الأئمة أو بالنسبة لجميع الأئمة، صغارهم وكبارهم، فهو ما لا يمكن أن يكون صدفة أبداً، خصوصاً إذا لاحظنا أنهم كانوا مصرحين بآرائهم ومرجعيتهم، غير مبتعدين عن الناس والمحافل العلمية، التي كانت تعج بالعلماء وطلاب العلم.

الإنتاج العلمي لأهل البيت عليهم السلام

ترك أهل البيت عليهم السلام للأمة إنتاجاً علمياً ضخماً، استثمرته في ماضيها، وستبقى تنتفع به في حاضرها ومستقبلها، فهذا الإنتاج لم يكن لزمانه وحسب، بل هو خالد على مر العصور. وتمثل إنتاج أهل البيت في أحاديثهم وخطبهم وكتاباتهم ودروسهم، وما تضمنته من مناهج وقواعد وتعليمات وعلوم، فضلاً عن الجامعات العلمية التي أسسوها، والطاقت العلمية التي ربوها ورعوها وغذوها بالعلم والمعرفة.

فعلى مستوى التأليف والتصنيف، كان الإمام علي عليه السلام نقطة الانطلاق في تاريخ الإسلام، وكانت أولى أعماله جمع القرآن الكريم مرتباً حسب النزول، وبيّن أسباب نزول آياته، عامها وخاصها، مطلقها ومقيدها، محكمها ومتشابهها، ناسخها ومنسوخها، عزائمها ورخصها، وسننها وآدابها. حتى إن ابن سيرين قال: لو أصبت ذلك الكتاب لكان فيه العلم ^(٦٦).

وروى أبو نعيم عن الإمام علي عليه السلام قوله في هذا المجال: «لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم اقسمت أن لا أضع ردائي عن ظهري حتى أجمع ما بين اللوحين، فما وضعت ردائي عن ظهري حتى جمعت القرآن» ^(٦٧).

والمصنّف الآخر للإمام علي عليه السلام هو (الصحيفة)، وهو كتاب في الديات؛ أي الأموال المفروضة على الجنايات التي ترتكب خطأ أو شبيها بالعمد؛ أي في ما لا يكون القصاص فيه ^(٦٨). وكتاب (الجامعة) هو مصنّف آخر للإمام علي عليه السلام، وهي أمالي للرسول كتبها الإمام، وتضمنت ما يحتاجه الناس من أحكام شرعية وتفصيل لما جاء في القرآن الكريم.

أما الكتب التي جمعت إنتاجه فهي كثيرة، وأهمها (نهج البلاغة) الذي يشتمل على منتخب من خطب للإمام علي عليه السلام، وكتبه ورسائله،

وحكمه ومواعظه، وقد جمعها الشريف الرضي.
والكتاب الآخر هو (غرر الحكم ودرر الكلم)، ويتضمن كلماته
القصار وحكمه، وقد جمعه عبدالواحد الآمدي.
وإلى جانب مصنفات الإمام عليّ، فإن بعض الموالين لمدرسته،
كسلمان الفارسي، وأبي ذر الغفاري، ورافع مولى رسول الله ﷺ، والأصغر
ابن نباتة، مارسوا التأليف والتصنيف أيضاً بتوجيه من الإمام نفسه (٦٩).
ويمكن مراجعة كتب الرجال للوقوف على تراجم الرجال الذي تتلمذوا
على الإمام عليّ وولديه الإمام الحسن والإمام الحسين. بيد أن مدة إمامة
علي بن الحسين زين العابدين، والتي بلغت حوالي ٣٥ عاماً، سمحت له بأن
يبني جيلاً متخصصاً من الرواة والفقهاء والمتكلمين، وفيهم عدد من كبار
التابعين (٧٠).

وقد ترك الإمام زين العابدين رسالة رائعة هي (رسالة الحقوق)، والتي
تتضمن بياناً لأنواع الحقوق وما يترتب عليها.

والفرصة التاريخية نفسها فسحت المجال للإمام الصادق بأن يبني
جامعة إسلامية في تاريخ الإسلام، كان تلامذتها كبار محدثي وفقهاء
وعلماء الأمة. ومن مختلف البلدان، كالعراق والحجاز وفارس وبلاد الشام،
وقد تمكن تلامذة الإمامين محمد الباقر وجعفر الصادق من تصنيف
وتأليف كم كبير من الرسائل والبحوث والكتب، ومنهم: أبان بن تغلب،
إذ روى ٣٠٠٠٠ حديثاً عن الإمام الصادق، وأبو حمزة الثمالي، وبريد بن
معاوية، وأبو بصير، ووزارة بن أعين، ومحمد بن مسلم، وهشام بن الحكم
(اشتهر من كتبه ٢٩ كتاباً).

وقد بادر بعض تلاميذ الإمام الصادق عليه السلام إلى تدوين روايات وأقوال
الإمام عليه السلام، وجمعوها في ٤٠٠ مصنف، عرفت بالأصول الأربعمئة.

ثم برع تلامذة الأئمة الآخرين: موسى الكاظم، وعلي الرضا، ومحمد الجواد، وعلي الهادي، والحسن العسكري، في التصنيف والتأليف، عبر نقل روايات هؤلاء الأئمة وآرائهم، وتحويل توجيهاتهم إلى مصنفات مدونة في مختلف المجالات والاختصاصات، ولا سيما علوم الدين. ومن هؤلاء أحمد بن خالد البرقي الذي ألف نحو ١٠٠ كتاب، والحسين بن سعيد الذي ألف ٣٠ كتاباً، والفضل بن شاذان صاحب أكثر من ٢٠٠ مؤلف، ومحمد العياشي الذي كتب أيضاً ما يقرب من ٢٠٠ كتاب وبحث (٧١).

ولم يقتصر تعليم أهل البيت تلامذتهم لعلوم الدين، بل تعدوها إلى العلوم الأخرى أيضاً، كما هو الحال مع علم النحو الذي علمه الإمام عليّ أبا الأسود الدؤلي، أو علم الكيمياء الذي برز فيه جابر بن حيان الكوفي تلميذ الإمام الصادق عليه السلام وغيرهما (٧٢).

وقد أوضح أئمة أهل البيت عليهم السلام كل ما كانت الأمة تحتاجه من أصول عقيدية وفقهية وأخلاقية، وكانت آراؤهم تمثل فصل الخطاب لكل اختلاف علمي - ديني يحدث بين العلماء المسلمين ومذاهبهم الكلامية والفقهية، ولا سيما في قضايا التوحيد وصفات الخالق تعالى ووصف ذاته مع صفاته، وقضايا العدل الإلهي وما يرتبط بذلك من أفعال الإنسان، ومسائل القضاء والقدر، والوسطية بين الجبر والتفويض، والبداء والتقية، وكذا القواعد الأصولية والفقهية التي أقام عليها فقهاء مذهب أهل البيت مدرستهم. وقد كتب في هذه المجالات الآلاف من الكتب (٧٣).

علم أهل البيت عليهم السلام في خدمة مصالح الأمة

برغم المحن القاسية التي مرت على أهل البيت في مختلف المراحل

والعهود، إلا أنهم ظلوا يضحون من أجل رعاية مصالح الأمة ووحدتها، وتغليب هذه المصالح على أي شيء آخر، من منطلق الرسالة التي كلفوا بحملها. كما ظلت علومهم هي المنار الذي يهدي الأمة إلى الطريق القويم. وكانت القضية الأولى هي قضية الخلافة، إذ صمت الإمام عليّ عليه السلام حيالها، برغم تصريحه بأحقية فيها، وذلك حرصاً على مصلحة الأمة التي كانت تعيش مرحلة تثبيت الأقدام والفتوحات، وتوسيع رقعة الدولة الإسلامية، ولم يسمح لمن أراد أن يلوح بورقة الخلافة لتفريق الأمة، بتمرير مخططه، وهو ما حدث مع أبي سفيان، الذي دعاه عقيب السقيفة بأن يتصدى للخلافة، فنهزه الإمام عليّ وفضح أمره، بل إن الإمام علياً لم يبخل بأية مشورة للخلفاء الراشدين. ويكفي أن نراجع الخطبة الشقشقية، وكتابه إلى أهل مصر الذي بعثه مع مالك الأشر؛ لنقف على مجمل هذه الحقائق.

ففي كتابه إلى أهل مصر قال الإمام عليّ عليه السلام: «... إن الله سبحانه بعث محمداً نذيراً للعالمين، ومهيماً على المرسلين، فلما مضى عليه السلام تنازع المسلمون الأمر من بعده، فوالله ما كان يلقى في روعي، ولا يخطر ببالي، أن العرب تزيج هذا الأمر من بعده عن أهل بيته، ولا أنهم منحوه عني من بعده! فما راعني إلا أنثيال الناس على فلان يبايعونه، فأمسكتُ يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون على محق دين محمد، فخشيت إن أنا لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً، تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم التي إنما هي متاع أيام قلائل، يزول منها ما كان، كما يزول السراب، أو كما يتشعّ السحاب، فنهضت في تلك الأحداث، حتى زاح الباطل وزهق، واطمأن الدين وتنهه» (٧٤).

وهذه الكلمات واضحة الدلالة تماماً على تغليب الإمام علي عليه السلام مصلحة الإسلام، برغم تصريحه بأحقّيته في خلافة رسول الله، ولم يقف الإمام على الحياد تجاه قضايا الإسلام، بل ظل في خضم الأحداث فاعلاً وعاملاً، ومن ذلك موقفه من حروب الردّة، ومانعي الزكاة، ثم موقفه من التجاوزات التي قام بها بعض قادة الجيش الإسلامي خلالها، ففي كليهما تصرف بالطريقة التي يملها عليه موقفه الشرعي.

وفي السياق نفسه تأتي مواقفه في مرحلة خلافة عمر، فحين استشاره الخليفة في أن يخرج بنفسه لغزو الروم، أشار على عمر بعدم الخروج بنفسه؛ لأنه خليفة المسلمين ومحور وحدتهم^(٧٥). وفعل الشيء نفسه حين استشاره عمر بأن يخرج بنفسه لقيادة جيش المسلمين المتوجه لفتح إيران؛ لأنه - كما يقول الإمام علي - لا بد أن يكون القطب الذي تدور الرحا حوله، فخروجه يعني تشتت أمر المسلمين^(٧٦).

وفي السياق نفسه جاء صلح الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية في إطار الظروف الاستثنائية التي مرّ بها الإمام وعانت منها الأمة، ثم ثورة الإمام الحسين عليه السلام. إذ ضحّى الحسين عليه السلام بنفسه وبصحبه وأهل بيته من أجل مصلحة الأمة، والحيلولة دون استئثار الانحراف في جسدها.

ويلفت الإمام السجاد عليه السلام الأنظار بدعائه للجيش الإسلامي، برغم خضوع هذا الجيش لقيادة الأمويين الذين أذاقوا أهل البيت الأمرين، وهو دعاؤه المعروف بدعاء (أهل الثغور) الذي يقول فيه:

«اللهم صل على محمد وآله وحصن ثغور المسلمين بعزّتك، وأيّد حمايتها بقوتك.. وكثّر عددهم واشحذ أسلحتهم.. وألّف جمعهم، ودبّر أمرهم، وواتر بين مسيرهم، وتوحد بكفاية مؤنهم، وأعضدهم بالنصر، وأعنهم بالصبر.. اللهم أعزّ بكل ناحية من المسلمين على من إزاءهم من

المشركين، وأمددهم بملائكة من عندك مردفين» (٧٧).

كذا الحال مع الإمام الباقر عليه السلام، الذي كان يضع علمه وخبرته تحت تصرف الدولة الإسلامية، ومن ذلك حلّه مشكلة السكة (ضرب النقود)، حين قتنها الروم على المسلمين، فأشار الإمام الباقر عليه السلام على عبد الملك بن مروان بأن يضرب السكة باسمه.

ثم مواقف الإمام الصادق عليه السلام من قضايا الخلاف الكبرى بين الفرق الإسلامية في العهد العباسي، فكان يوجه أصحابه وشيعته بشأن سلوكهم مع أتباع المذاهب الأخرى، فيقول: «صلّوا في جماعتهم، وعودوا مرضاهم، واحضروا جنازهم وموتاهم؛ حتى يقولوا: رحم الله جعفر بن محمد، فلقد أدب أصحابه. كونوا زيناً لنا، ولا تكونوا شيناً علينا» (٧٨).

والأمر نفسه كان يحدث مع الأئمة الآخرين، وبالإمكان مراجعة مواقفهم، كما جاءت في المصادر التاريخية وفي كتب التراجم الموثقة، ومنها ما نقله المؤرخون من أن فتنة فكرية حدثت من بعض مؤلفات الفيلسوف الكندي في الكوفة، فأرسل إليه الإمام الحسن العسكري عليه السلام من يناقشه، بعد أن علّمه كيفيتها. واستطاع بذلك أن يردّ عن الأمة هذه العادة (٧٩).

وعموماً فإن هذه المواقف كانت تعبر عن نظرتهم المتفردة لقضايا الأمة، وتشخيصهم الدقيق لمصلحتها العليا.

النتائج

نخلص مما سبق إلى نتائج نضعها بين أيدي الباحثين والمختصين؛ للتداول والحوار، بهدف إثرائها وبلورتها:

١ - إن القرآن الكريم والسنة الشريفة أكّدا مرجعية أهل البيت العلمية العامة لكل المسلمين.

٢ - إن السنة الشريفة الصحيحة كشفت عن المقصود بأهل البيت بصفاتهم وعددهم.

٣ - وإنهم لم يحتاجوا إلى أحد في حياتهم العلمية، سوى المعصوم الذي سبقهم.

٤ - إن أعلام الأمة ورجالها المسلمين، بدءاً بالخلفاء الراشدين وأئمة المذاهب الإسلامية وحتى الآن، شهدوا بأهمية أهل البيت، وبحاجة المسلمين إلى مرجعيتهم العلمية.

٥ - إن أهل البيت وظفوا علمهم لخدمة الأمة ومصلحتها، برغم قساوة الظروف التي واجهتهم.

٦ - وبناء على ما سبق، فإن أهل البيت عليهم السلام مرجعية علمية عامة للمسلمين، دون أن يؤثر في ذلك زمان أو مكان، وهو الحد الأدنى الذي يتفق عليه المسلمون بشأن محورية أهل البيت في الوحدة الإسلامية. فإذا كانت الإمامة السياسية لأهل البيت موضع جدل بين المسلمين، فإن المرجعية العلمية هي - وفقاً لما سبق - نقطة التقاء بين المسلمين^(٨٠).

واتفاق المسلمين على هذه الحقيقة أمر في غاية الأهمية؛ لأن من شأنه تقرير مصير الأمة في قضية طالما حاول الحكام، وحاولت السياسة التعتيم عليها طيلة مئات من السنين.

ومن المناسب هنا الإشارة إلى منهج الدليل الاستقرائي الذي استخدمه الشهيد الإمام السيد محمد باقر الصدر لإثبات الخالق تعالى؛ لأنه منهج يُعتمد عليه في إثبات جميع الحقائق العلمية، وهو يقوم على حساب الاحتمالات^(٨١). فنستخدمه هنا في إثبات كون أهل البيت الفئة التي مُنحت الأهلية للمرجعية لهذه الأمة.

ويمكن تلخيص هذا المنهج في الخطوات الخمس التالية:

أولاً: التعرف على ظواهر القضية التي نريد إثباتها، من خلال التجربة والحس.

ثانياً: بعد ملاحظة تلك الظواهر وتجميعها، ننتقل إلى مرحلة تفسيرها، وإيجاد فرضية علمية صالحة من خلال تفسير هذه الظواهر وتبريرها، والمقصود بكونها صالحة، هو أنها إذا كانت ثابتة في الواقع، فهي تستبطن أو تتناسب مع وجود جميع تلك الظواهر الموجودة بالفعل.

ثالثاً: إن لم تكن هذه الفرضية صحيحة وثابتة في الواقع، فإن فرصة تواجد تلك الظواهر مجتمعة كلها ضئيلة جداً؛ أي أن نسبة احتمال وجودها جميعاً إلى احتمال عدمها - أو عدم واحدة منها على الأقل - ضئيلة جداً.

رابعاً: نخلص إلى أن تلك الفرضية صادقة، ودليل صدقها هو وجود تلك الظواهر المجتمعة معاً، والتي أحسناها في الخطوة الأولى.

خامساً: إن درجة إثبات تلك الظواهر للفرضية المطروحة في الخطوة الثانية، تتناسب عكسياً مع نسبة احتمال وجود تلك الظواهر جميعاً إلى احتمال عدمها على افتراض كذب الفرضية، فكلما كانت هذه النسبة أقل كانت درجة الإثبات أكبر، حتى تبلغ في حالات اعتيادية كثيرة درجة اليقين الكامل بصحة الفرضية.

ونحن في هذا البحث استخدمنا هذا المنهج استخداماً غير مباشر، حيث قلنا: إن كل هذه الظواهر التاريخية الثابتة إنما تتسجم مع الأهلية الحقيقية لهم عليهم السلام لهذه المرجعية، وإلاّ احتجنا إلى الكثير من الصدق التي لا يعقل اجتماعها. متمنين على أهل العلم والاختصاص الانتفاع من هذا المنهج وفقاً للخطوات التي حددها الشهيد الصدر، في مثل هذه الموضوعات المصيرية بالنسبة للأمة التي تنتمي إلى الرسالة الخاتمة، التي تبشر البشرية جمعاء بالعدل والسعادة وخير الدنيا والآخرة.

النتيجة

ونخلص من هذا البحث إلى أن الأمة الإسلامية، لكي توسع من مساحة مصادرها الأصلية، ومقدرتها على مواجهة التساؤلات الحياتية المتنوعة، وتنسجم أكثر مع توجهات القرآن الكريم والسنة الشريفة، يجب أن ترجع إلى هذا التراث الضخم، وتستمد منه ما يركز موقعها الحضاري المطلوب.

* * *

الهوامش:

- (١) سورة النحل: ٤٣، وسورة الأنبياء: ٧.
- (٢) تفسير القرآن لابن جرير الطبري ١٧: ٥.
- (٣) الحاكم الحسكاني، شواهد التنزيل ١: ٤٢٢ ح ٤٥٩.
- (٤) سورة آل عمران: ٧.
- (٥) نهج البلاغة، الخطبة ١٤٤؛ والمناقب لابن شهر آشوب ١: ٢٨٥.
- (٦) سورة الرعد: ٣٤.
- (٧) شواهد التنزيل ١: ٤٠٠ ح ٤٢٢؛ والأمالى للصدوق ٣: ٤٥٣ وغيرهما.
- (٨) سورة الأحزاب: ٣٣.
- (٩) أنظر: دلائل النبوة للبيهقي ١: ١٧٠؛ والبداية والنهاية لابن كثير ٢: ٢٥٧؛ والمعجم الكبير للطبراني ١٢: ٨١ ح ١٢٦٠٢ وغيرهما.
- (١٠) سورة الشورى: ٢٣.
- (١١) فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ٢: ٦٦٩ ح ١١٤١؛ والمعجم الكبير للطبراني ٣: ٤٧ ح ٢٦٤١؛ والدر المنثور في التفسير بالمأثور لعبد الرحمن السيوطي ٧: ٣٤٨ وغيرهما.
- (١٢) صحيح البخاري ٤: ١٨١٩ ح ٤٥٤١؛ والسنن للترمذي ٥: ٣٧٧ ح ٣٢٥١؛ والمسند لأحمد بن حنبل ١: ٦١٤ ح ٢٥٩٩، وغيرهما.
- (١٣) سورة آل عمران: ٣١.
- (١٤) أنظر: المستدرک على الصحيحين للحاكم النيسابوري ٣: ١٥٨ ح ٤٧٠٥ و ٢: ٤٥١ ح ٣٥٥٨ و ٣٥٥٩؛ والسنن الكبرى لأبي بكر البيهقي ٢: ٢١٤ ح ٢٨٦١؛ والمعجم الكبير ٣: ٥٢ ح ٢٦٦٢، وغيرهما.
- (١٥) أنظر: المستدرک على الصحيحين للحاكم النيسابوري ٣: ١٥٨ ح ٤٧٠٥ و ٢: ٤٥١ ح ٣٥٥٨؛ والسنن الكبرى لأبي بكر البيهقي ٢: ٢١٤ ح ٢٨٦١؛ والمعجم الكبير ٣: ٥٢ ح ٢٦٦٢، وغيرهما.
- (١٦) أنظر: محمدي الري شهري، أهل البيت في الكتاب والسنة: ٢٧ . ٥٠.
- (١٧) أنظر: صحيح مسلم ٤: ١٨٧٣ ح ٢٤٠٨؛ و سنن الدارمي ٢: ٨٨٩ ح ٣١٩٨؛ ومسند أحمد بن حنبل ٧: ٧٥ ح ١٩٢٥؛ والسنن الكبرى ١٠: ١٩٤ ح ٢٠٣٣٥؛ فرائد السمطين ٢: ٢٣٤ ح ٥١٣؛ و سنن الترمذي ٥: ٦٦٣ ح ٣٧٨٨.

- (١٨) المستدرك على الصحيحين ٣: ١١٨ ح ٤٥٧٦؛ خصائص الإمام أمير المؤمنين للنسائي: ١٥٠ وغيرهما.
- (١٩) أنظر: صحيح مسلم ٤: ١٨٧٤ ح ٣٦ و ٣٧؛ وسنن الترمذي ٥: ٦٦٢ ح ٢٧٨٦ و ٢٧٨٨؛ وسنن الدارمي ٢: ٨٨٩ ح ٣١٨٩؛ ومسند أحمد بن حنبل ٤: ٣٠ ح ١١١٠٤، وعشرات المصادر الأخرى.
- (٢٠) الشيخ محمد أبو زهرة، الإمام الصادق: ١٩٩.
- (٢١) أحمد حسين يعقوب، الخطط السياسية لتوحيد الأمة الإسلامية: ٣٥١.
- (٢٢) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٢٢، وقال الحاكم النيسابوري: إنه حديث صحيح على شرط الشيخين؛ وانظر أيضاً: كنز العمال للمتقي الهندي ٦: ١٥٦.
- (٢٣) كنز العمال ٦: ١٥٦؛ وكنوز الحقائق للمناوي: ١٨.
- (٢٤) كنز العمال ٦: ١٥٣.
- (٢٥) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٦٢ ح ٤٧١٥.
- (٢٦) فرائد السمطين ٢: ٢٤٦ ح ٥١٩؛ ينابيع المودة ١: ٩٤ ح ٥؛ المستدرك على الصحيحين ٣: ١٦٣ ح ٤٧٢٠؛ المناقب لابن المغازلي: ١٣٢ - ١٣٤ وغيرها.
- (٢٧) الطبقات الكبرى لابن سعد ٦: ٢٤٠.
- (٢٨) نهج البلاغة، الخطبة ١٠٩.
- (٢٩) أنظر: صحيح مسلم ٣: ١٤٥٣ ح ١٠؛ ومسند أحمد بن حنبل ٧: ٤١٠ ح ٢٠٨٦٩؛ ومسند أبي يعلى ٦: ٤٧٣ ح ٧٤٢٩ وغيرها.
- (٣٠) أنظر: مسند أحمد بن حنبل ٢: ٥٥ ح ٣٧٨١؛ والمستدرك على الصحيحين ٤: ٥٤٦ ح ٨٥٢٩؛ والمعجم الكبير ١: ١٥٨ ح ١٠٣١٠ وغيرها.
- (٣١) أنظر: الرياض النضرة للمحب الطبري ٢: ٢٢٤ و ٢: ١٩٥؛ وكنز العمال ٣: ٣٠١ و ٣: ٩٩.
- (٣٢) أورد ذلك معظم كتب الحديث والتاريخ، ولا سيما الصحاح والسنن والمسانيد، مما يطول تفصيله.
- (٣٣) المستدرك على الصحيحين ١: ٤٥٧.
- (٣٤) السنن للبيهقي ٧: ٤٤٢، وهذه المقولة وردت في كثير من كتب الحديث والتاريخ.
- (٣٥) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢: القسم ١٠٢.
- (٣٦) كنز العمال ٣: ٥٣.
- (٣٧) المصدر السابق: ١٧٩.

- (٣٨) المصدر السابق نفسه.
- (٣٩) نور الأبصار للشبلنجي: ١٧١.
- (٤٠) الرياض النضرة ٢: ١٩٧.
- (٤١) أخرجه البخاري في تاريخه؛ ورواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ٣: ١٤.
- (٤٢) أنظر: الموطأ لمالك بن أنس: ص ٣٦ و ١٧٦؛ وسنن البيهقي ٧: ٤١٩؛ ومسند الشافعي: ص ١٧١؛ ومسند أحمد بن حنبل ١: ١٠٠ و ١٠٤؛ وتفسير ابن جرير ٢٥: ٦١ وغيرها.
- (٤٣) أنظر: سنن النسائي ١: ٣٢؛ وسنن ابن ماجه، ص ٤٢؛ ومسند أحمد بن حنبل ١: ٩٦ و ١٠٠ و ١١٣ و ١١٧ و ١٢٠ و ١٢٣ و ١٤٦ و ١٤٩.
- (٤٤) المصادر السابقة نفسها.
- (٤٥) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين بسنده عن قيس بن أبي حازم ٣: ٤٩٩.
- (٤٦) وفيات الأعيان لابن خلكان ٦: ٩٦.
- (٤٧) عيون أخبار الرضا للشيخ الصدوق ٢: ١٤٣ ح ١٠؛ والمناقب لابن شهر آشوب ٤: ٣٦٦.
- (٤٨) يقصد الشاعر هنا العباسيين.
- (٤٩) ديوان أبي فراس الحمداني، تحقيق د. محمد بن شريفة: ١٩٧ - ٢٠٦.
- (٥٠) أنظر: الصواعق المحرقة لابن حجر: ١٠٨؛ ونور الأبصار: ١٠٥.
- (٥١) الرجال لابن عقدة الزيدي، نقلاً عن أعيان الشيعة للسيد محسن الأمين ١: ٦٦١.
- (٥٢) ذكر ذلك معظم كتب الطبقات والأعلام والتاريخ، كمطالب السؤول لابن طلحة الشافعي: ٢١٨؛ والصواعق المحرقة: ص ٣٠.
- (٥٣) حلية الأولياء لأبي نعيم، نقلاً عن المناقب لابن شهر آشوب ٤: ٢٤٧.
- (٥٤) تحفة الألوسي: ٨ وغيره من المصادر التاريخية؛ وقصة التقريب للسيد محمد تقي الحكيم: ٩٠.
- (٥٥) تهذيب التهذيب ٢: ١٠٤.
- (٥٦) الشيخ محمد أبو زهرة في كتاب الإمام الصادق: ٢.
- (٥٧) أنظر: كتاباً يحمل العنوان نفسه للأستاذ محمد رضا الحكيمي.
- (٥٨) الاحتجاج: ٢٦٧ - ٢٦٩.
- (٥٩) تحف العقول عن آل الرسول لابن شعبة الحراني: ٢٣١.

- (٦٠) رواها الموفق في مناقب أبي حنيفة ١: ١٧٣.
- (٦١) الاحتجاج: ٣٣١ - ٣٣٥.
- (٦٢) المصدر السابق: ٤٢٥ - ٤٢٢.
- (٦٣) أنظر: الأصول العامة للفقهاء المقارن للسيد محمد تقي الحكيم: ١٨٣.
- (٦٤) أنظر: الصواعق المحرقة: ٢٠٤؛ والاحتجاج: ٤٤٤ وغيرهما.
- (٦٥) السيد محمد تقي الحكيم، الأصول العامة للفقهاء المقارن: ١٨٤.
- (٦٦) أنظر: المراجعات للسيد عبدالحسين شرف الدين، المراجعة ١١٠.
- (٦٧) حلية الأولياء ١: ٦٧.
- (٦٨) أنظر: تكملة المنهاج للسيد أبي القاسم الخوئي، الجزء ٢، كتاب الديات.
- (٦٩) أنظر: المراجعات: ٤١٢ - ٤١٣؛ والمناقب لابن شهر آشوب.
- (٧٠) أنظر: المناقب لابن شهر آشوب ٤: ١٦١؛ ورجال الكشي.
- (٧١) المراجعات: ٤٢٢.
- (٧٢) أنظر: رجال الكشي؛ وتأسيس الشيعة لعلوم الإسلام للسيد حسن الصدر؛ ومؤلفو الشيعة في صدر الإسلام للسيد عبدالحسين شرف الدين؛ ورجال النجاشي؛ وطبقات مؤلفي الشيعة للشيخ آغا بزرگ الطهراني وغيرهما.
- (٧٣) أنظر: المصادر السابقة نفسها.
- (٧٤) نهج البلاغة، الرسالة رقم ٦٢.
- (٧٥) المصدر السابق، الخطبة ١٣٤.
- (٧٦) المصدر السابق، الخطبة ١٤٦.
- (٧٧) الإمام زين العابدين (السجاد)، الصحيفة السجادية: ٨٧ - ٩١.
- (٧٨) السيد عبدالحسين شرف الدين، الفصول المهمة في تأليف الأمة.
- (٧٩) المناقب لابن شهر آشوب ٢: ٤٥٩.
- (٨٠) لا يعني هذا ذوبان المذاهب الإسلامية في مذهب واحد، بل يعني تحديد مساحة مرجعية عامة يلتقي عندها كل أتباع المذاهب الإسلامية، مع احتفاظ كل مذهب وفريق بخصوصياته.
- (٨١) أنظر: السيد محمد باقر الصدر، الأسس المنطقية للاستقراء، القسم ٣: ١٣٥ فما بعدها.

الإمام علي عليه السلام

في حوار مع الكاتب المسيحي جورج جرداق(*)

حاوره: الأستاذ ضياء الشهيد

حيثما تبحث عن العدالة ستجد علياً عليه السلام، وأينما تنقب عن الإنسانية فإنك لن تلاقى نظيراً له عليه السلام، فهو النموذج الأرقى والمثل الأعلى..

ومن مثله في إنسانيته وعدالته وأريحيته وأبوتّه وكرمه وشجاعته؟
وأين هم الخلق من علمه وأدبه وبلاغته وسعه صدره وحنانه؟
نعم.. أين هم؟

وأين هو أبو الحسن؟

وأين الثرى من الثريا؟

إنه (عليه الصلاة والسلام) تجسيد حقيقي لكل الفضائل الإنسانية، فإنك تجده رديفاً لكل منقبة وفضيلة، ولا يسعك إلا أن تعتبره بمثل تلك المعاني السامية التي تشخّصت فيه، فلم تعرف البشرية له مثيلاً.. تلك البشرية التي لو أنها أزالَت تلك الغشاوة عن عينيها؛ لأدركت أنها خسرت علياً عليه السلام وأضاعته.. ولا تزال!

ولأنه شعاع للقيم ونبراس للحضارة، تجد أن العظماء يتخلّون عن رداء عظمتهم أمامه! فلا يملكون إلا أن يطأطئوا الرؤوس وينحنوا إجلالاً وإكباراً له (صلوات الله عليه)!

وأياً كانت عقيدة أولئك العظماء، أو ثقافتهم، أو إيديولوجيتهم، فإنهم - عندما يتعلق الأمر بابن أبي طالب - يستصغرون أنفسهم قدامه، ولا

(*) الكاتب المسيحي المشهور، صاحب كتاب «الإمام علي صوت العدالة الإنسانية»، من لبنان.

يرون مندوحة من تعظيمه.. حتى إن العشق يملكهم تجاه تلك الشخصية الرفيعة العملاقة! ومن لا يعشق مثله؟ وهل في هذه الدنيا مثله؟

لذا ترى العلماء والأدباء والمفكرين والساسة والمثقفين والأكاديميين.. وكل طلاب الحقيقة.. وجميع محبي المكارم.. من مختلف الأديان والمذاهب والاتجاهات الفلسفية والفكرية، يجلبون هذا العملاق العظيم الذي أذهل العالم وأظله بعدله وإنسانيته.

وأحد هؤلاء هو المفكر والأديب المسيحي الشهير جورج جرداق، الذي دفعه (اكتشافه علماً من جديد) إلى أن يؤلف ستة مجلدات ضخمة قرأ فيها شخصيته عليه السلام الفذة، مقدماً هذا النتاج العلمي الواسع تحت عنوان (عليّ صوت العدالة الإنسانية)، ذلك الكتاب الذي ذاع صيته في كل الأنحاء، فأحدث دويماً قل نظيره في عالم اليوم.

الأستاذ جرداق لم ير علماً عليه السلام كغيره، بل رآه الصيغة الكونية المثلى للفكر الإنساني السامي، وضميراً عملاقاً للعدالة والحرية والمساواة. وهو يعتبر النهج العلوي هادفاً إلى إسعاد الناس وفق مبادئ الاجتماع التي تستوجب العدل والتكافؤ والتكامل، مشفوعة بإرادة السماء التي تقضي بالمحبة والرحمة واستتفاء الضمائر. فإلى نص الحوار:

□ بداية.. هل لنا ببطاقة تعريف شخصية لكم؟

اسمي جورج سجعان جرداق، ولدت في جديدة مرجعيون بלבnan الجنوبي، في بقعة من أجمل بقاع الأرض وأحفلها بأحداث التاريخ وذكريات السابقين، وفي أسرة غسّانية قحطانية الجذور، وربيت في بيئة عامّة عربية القلب واللسان، وبيئة خاصة طبعت على الميل إلى طلب المعرفة. وكان لشقيقي الأكبر، العالم اللغوي والشاعر والمهندس فؤاد جرداق، تأثير خاص في توجيهي منذ الطفولة.

تلقيت دروسي الأولى في إحدى مدارس بلدتي التي عُرف أبناؤها بميلهم الشديد إلى العلم، ومن بينهم ميخائيل الدبغي أكبر علماء الطب بالعالم في القرن العشرين. وكنت في أثناء ذلك أهرب من المدرسة عندما أستطيع الهروب... وأحمل كتابين اثنين هما ديوان المتنبي، ومجمع البحرين للشيخ ناصيف اليازجي، وألجأ إلى كنف من أكناف الطبيعة الجميلة حيث أجلس تحت شجرة ظليلة أو على مقربة من مياه جارية، وأرضنا هناك ملأى بالمروج الخضراء، وبالينابيع المتدفقة التي تعد بالمئات، مما أعطى البلدة، والمنطقة كلها من خلالها، اسم مرج العيون، أو مرجعيون، إشارة إلى وفرة المروج وكثرة الينابيع.

وهناك أخذ بقراءة هذين الكتابين في نهم. وذات مرة رأني شقيقي فؤاد في هذه الحال، فشجعني على المضي في ما أنا فيه ولو اضطررت إلى الهروب من المدرسة أحياناً، ثم جاءني بكتاب (نهج البلاغة) وقال لي: أدرس هذا الكتاب بصورة خاصة، واحفظ منه كل ما تستطيع حفظه، فإن فيه الخير كل الخير لمن يطلع عليه ويحفظ ما فيه.

ولما كانت ذاكرتي جيدة، فإنني لم أبلغ الثالثة عشرة من عمري حتى كنت أحفظ غيباً الكثير من الكتب الثلاثة المذكورة، ومن نهج البلاغة بصورة خاصة، ولا تزال هذه المحفوظات مخزونة في ذاكرتي حتى اليوم.

بعد ذلك شاء نسيبي منصور جرداق أحد كبار علماء الرياضيات في هذا العصر، لا في الشرق العربي وحده، بل في العالم، أن يبعثني إلى أوروبا لأدرس العلوم الطبيعية والرياضية. غير أنني أبيت ذلك لتعلقني الشديد ببلدتي وبيئتها الطبيعية والروحية، ثم لميلي الشديد إلى الشعر والأدب. وعلى أثر هذا (الإباء) انتقلت إلى بيروت حيث تابعت دروسي في

الكلية البطريركية المشهورة بتخريج أقدر الطلاب باللغة العربية وآدابها. وقد حملني على إثارة هذه المدرسة بالذات ما عرفته يومذاك من تاريخها في هذا الباب الذي أشرت إليه. ومما عرفته أن الشيخ إبراهيم اليازجي، أكبر علماء العربية على الإطلاق على مدى ألفي عام، كان في قديم الزمان أحد أساتذتها، وابن خليل مطران شاعر القطرين الشهير كان من تلامذتها، ومن تلامذة الشيخ إبراهيم اليازجي بالتحديد. وقد شاقني تاريخ هذه المدرسة التي شاع أنها تحافظ على نهجها هذا في تدريس العربية، فضلاً عن شهرة أساتذتها في تدريس اللغة الفرنسية.

في أثناء دراستي بالكلية البطريركية، كان من أساتذتي الأديب المعروف رثيف خوري، وعلامة العصر فؤاد أفرام البستاني مؤسس الجامعة اللبنانية وأول رئيس لها، والمرجع الكبير للغة العربية وآدابها. وكان أستاذي باللغة الفرنسية والأدب الفرنسي الشاعر - باللغة الفرنسية - ميشال فريد غريب.

وفي هذه الأثناء، وكنت في الثامنة عشرة من عمري، ألقت كتابي الأول الذي يحمل هذا الاسم (فاغزر والمرأة) وفاغزر هو الشاعر الفيلسوف الألماني الشهير. وقد نشر هذا الكتاب في (دار المكشوف) للشيخ فؤاد حبيش. ويبدو أن في هذا الكتاب من إشراق البيان العربي ما طاب للعلامة الكبير الشيخ عبد الله العلايلي غفر الله له، وحمله على أن يهتف قائلاً: «لا مثيل لهذا البيان في أدب عصرنا كله، إنه كما رأى الدكتور طه حسين، غفر الله له، أن يدرج هذا الكتاب في قائمة المؤلفات المعدودة التي ينبغي لطلاب الأدب الجامعيين الاطلاع عليه».

بعدما تخرجت من الكلية البطريركية، بدأتُ عملين اثنين معاً: الكتابة المتواصلة في الصحف اللبنانية والعربية، وتدريس الأدب العربي

والفلسفة العربية، في عدد من كليات بيروت.

من الصحف التي كتبت فيها بصورة متواصلة: الجمهور الجديد، الحرية، الصياد، الشبكة، نساء، الكفاح العربي، الأمن، بعض الصحف العربية الصادرة في باريس. وقد كتبت سنتين وبلا انقطاع في جريدة (القبس) الكويتية، وسنة في جريدة (الوطن) الكويتية، وبعض الوقت في جريدة (الرأي العام). فضلاً عن صحف كثيرة في مصر وسورية كتبت فيها بصورة متقطعة. أما اليوم، فأني أكتب بصورة دائمة في صحف دار الصياد، وفي الكفاح العربي، والأمن.

أضف إلى ذلك برامج إذاعية، منها ما هو يومي، ومنها ما هو أسبوعي، بينها برنامج يومي في كبرى إذاعتنا المعروفة باسم (صوت لبنان) وهو البرنامج الذي يحمل اسم (على طريقتي) والذي بدأته منذ خمسة عشر عاماً ولا يزال مستمراً برغبة وإلحاح من إدارة الإذاعة ومن المستمعين. ومن المعروف أن كل ما أكتبه في الصحف، وأبثه في الإذاعات، لا يخضع لأي نوع من المراقبة. وهذا هو شرطي الأول والأساسي في عملي بالصحف وسائر وسائل الإعلام.

في هذه الأثناء وضعت سلسلة كتبتي عن الإمام عليّ وهي التالية: (عليّ وحقوق الإنسان)، (بين عليّ والثورة الفرنسية)، (عليّ وسقراط)، (عليّ وعصره)، (عليّ والقومية العربية)، ثم أتبعتها بملحق كبير بعنوان (روائع النهج) الذي طبع أربع مرات في ثلاث دور نشر بسنة واحدة، وهي (دار النهار) في بيروت، و(دار الشروق) في مصر، و(دار الغدير) في بيروت.

ومن كتبتي الصادرة هنا وهناك، بعد (فاغنر والمرأة) ومجلدات الإمام عليّ:

قصور وأكواخ؛ رواية تاريخية من ألف صفحة بعنوان صلاح الدين

وريكاردوس قلب الأسد؛ نجوم الظهر؛ عبقرية العربية؛ صبايا ومرايا؛ وجوه من كوتون؛ حديث الحمار؛ حكايات. كما أن لي مؤلفات مسرحية عدة، ومسلسلاً تلفزيونياً كنت كتبت قصته.

□ كيف تعرفتم على شخصية الإمام علي عليه السلام؟ متى وأين؟

بدأ تعريفي، مبدئياً، على هذه الشخصية العظيمة منذ طفولتي يوم جاءني شقيقي فؤاد بنهج البلاغة وقال لي: أدرس هذا الكتاب واحفظ منه كل ما تستطيع حفظه، كما سبق أن قلت في أوائل هذا الحديث. أضف إلى ذلك أن لشقيقي فؤاد قصائد كثيرة في الإمام علي يتحدث بها عن عبقريته وسمو فكره وعظمة مبادئه الإنسانية، وعن سيرته المشرفة، وكنت أنا أصغي إليه في اهتمام كثير وهو ينشدها على مسامع زوار البيت. وقد أثبت واحدة منها في أواخر المجلد الخامس من كتبي عن الإمام، وهو المجلد الذي عنوانه (علي والقومية العربية)، وفي إمكانك الاطلاع عليها.

وهكذا رسخت صورة الإمام علي في مخيلتي منذ الصغر، كما ترسخ في مخيلة الولد الأقوال والأعمال والصور التي تؤثر فيه. ودارت الأيام، وتخرجت في الكلية البطريركية في بيروت كما سبق أن قلت، وأخذت أدرس الأدب العربي والفلسفة العربية في بعض معاهد بيروت. ونتاج الإمام علي الأدبي والفكري مطلوب في هاتين المادتين - الأدب العربي والفلسفة العربية - وفق البرنامج المقرر.

ولما كان ما يحتفظ به الإنسان منذ طفولته من خواطر ومشاعر غير كاف في مجال التدريس، وكان لا بد له من الاطلاع من جديد اطلاعاً واعياً وشاملاً على شخصية الأديب أو الفيلسوف الذي يتحدث عنه للطلاب، فقد تهيأ لي أن أفضل ما ألجأ إليه في هذا الباب، هو الاطلاع على آراء

دارسي الإمام، وعلى الكتب التي وضعت عن شخصيته الأدبية والفكرية والاجتماعية والسياسية وما إلى ذلك؛ لتضاف إلى ما هو راسخ في ذهني ومخيلتي من عناصر هذه الشخصية منذ الطفولة.

والاطلاع على آراء الكتاب والمؤرخين في شخصية مفكر أو فيلسوف يُعنى المرء بتدريسها للطلاب، أمر معروف ومألوف؛ لأنه ضروري، وهكذا أخذتُ أقرأ ما كتب عن الإمام في مؤلفات السابقين والمعاصرين. وبعد الاطلاع على هذه المؤلفات، تبين لي أن معظم ما قرأته يدور حول أمور تاريخية محدودة بزمان ومكان معينين، وقد تعني فئة من الناس في بعض مراحل التاريخ، ولا تعني جميع الناس في كل الأزمنة، وأكثره يدور حول حقه في الخلافة، ومقدار هذا الحق في نظر المؤلفين، ولكل منهم دوافع تحركه، ولا علاقة متينة لها بالموضوعية التي تدور في نطاق الفكر العلوي بحد ذاته، وبمنظرة الإمام إلى معنى الوجود ونواميسه الثابتة، وشروط الحياة التي لا بد من إجرائها في المجتمع الإنساني؛ ليكون مجتمعاً سليماً في تركيبه، معافى في مسيرته، كريماً في غايته.

وارتأيت أن أعود إلى نهج البلاغة فأقرؤه من جديد قراءة واعية، تكون أوفى بالمراد من قراءتي له في السن المبكرة. فقرأته من جديد، فتبين لي أن الإمام أعمق وأعظم من كل ما دارت حوله أبحاث الباحثين من قدامى ومحدثين، وأن إنسانية الإمام، بكل عناصرها ودعائهما، تنبثق من فكر صاف وشعور عميق بمعنى الوجود الحقيقي، وأن ما دعا إليه، بمبادئه وسيرته، يتجاوز حدود الزمان والمكان إلى كل زمان وكل مكان، فعلاً يحصرون هذه الشخصية العظيمة النادرة بموضوع الولاية.. وسائر الموضوعات المحلية التي تدور عليها أبحاث معظم المؤلفين الذين قلت إنني قرأتهم.

وهكذا ارتأيت، بدافع من حبي للحقيقة، أن أضع كتاباً موسوعياً يكون فيه بعض الإحاطة بهذه الشخصية العظيمة، وبعض الإنصاف لها، واستدراك ما أهمله المؤلفون. فكان المجلد الأول بعنوان (عليّ وحقوق الإنسان)، الذي أثبت فيه بالدلائل الساطعة أن علياً سبق مفكري أوروبا والعالم إلى إدراك هذه الحقوق بمفهومها الثابت، وإلى إعلانها، بقرون عديدة.

وكان المجلد الثاني بعنوان (بين عليّ والثورة الفرنسية)، وفيه تأكيد على السبق الذي حققه الإمام علي فلاسفة الثورة الكبرى العظام. وكان المجلد الثالث بعنوان (عليّ وسقراط)، والمعروف أن سقراط هو أبو الفلاسفة الإنسانيين الكبار. وقد كشفت أن سقراط والإمام عليّ ابن أبي طالب يلتقيان على كل صعيد. إلى آخر السلسلة التي تتألف من ستة مجلدات يحمل آخرها عنوان (روائع النهج).

□ ما نظرتك الشخصية للإمام عليّ (عليه السلام)؟

هذه المجلدات الستة التي وضعتها عن الإمام، أليست كافية لأن تعرفك بـ(نظرتي الشخصية) إليه؟ أما إذا شئت جواباً موجزاً جداً عن هذا السؤال، فأني أقول: إن علياً هو الصيغة الكونية المثلى للفكر الإنساني المستمد من نواميس ثابتة، لا يبدل المكان من جوهرها كثيراً أو قليلاً، ولا الزمان! كما أنه الصيغة الكونية للضمير العملاق، والشعور العميق بوحدة الكائنات المتكافئة المتفاعلة المتكاملة!

□ لماذا اخترت وصف العدالة الإنسانية.. هل لأنك تجد علياً (عليه السلام) يمثل

قيمة العدالة بأكمل صورها؟

هل لديك أو لدى سواك كلمات أدق تعبيراً عن شخصية الإمام عليّ

كما هي في الواقع، وعن سيرته كما رأيتها وتحديث عنها في هذا الكتاب بأجزائه الستة، من (صوت العدالة الإنسانية)؟ في هذه التسمية إشارة واضحة إلى المدلول العام للكتاب.

□ ما هي آثار ظهور الكتاب؟ وكيف كانت ردود الفعل في العالمين المسيحي والإسلامي بشقيه الشيعي والسني؟

أول هذه الآثار: إن تاجر كتب عراقياً هو صاحب مكتبة (المثني)، أعاد طبعه في بغداد من دون علمي بعد صدوره بأقل من شهر واحد، وشحن منه عشرات الآلاف من النسخ إلى بعض دول الشرق الأقصى، فضلاً عما ملأ به مكتبات العراق.

وثاني هذه الآثار: إنهم ترجموه في بعض بلدان الشرق إلى لغات أجنبية من دون علمي كذلك.

وثالث هذه الآثار: إعادة نشره في بيروت مراراً من دون أن أحاط علماً بهذه الإصدارات، أي خفية عني. وكان الدافع في هذه الأعمال (الكريمة) كلها، الجشع التجاري لدى بعض دور النشر في هذا الشرق السعيد. وأخبرك بأنني اشتري بعض هذه الطبعات بالعربية، وبيع بعض اللغات الأجنبية، من المكتبات، إذ أن الناشرين والمترجمين الكرام لم يتكرموا حتى بإرسال نسخة واحدة لي مما ينشرونه بأعداد لم يعرفها كتاب آخر، عربياً كان أو مترجماً.

هذا بعض ما كان، وما هو كائن الآن، من قبل تجار الكتب. أما كيف استقبله العالم المسيحي، فنبؤك بالأمر ما فعله أحد الآباء بلبنان:

في أثناء تأليف الكتاب، جاءني رئيس تحرير مجلة (الرسالة) اللبنانية، وهو صديق كريم، وطلب إليّ أن أعطيه فصلين اثنين على الأقل

من الفصول التي انتهت من كتابتها. فلبيت رغبته، فنشر الفصلين في عدد من المجلدات.

واتفق للراهب العالم الأب نجم رئيس مدرسة الرهبان الكرملين في مدينة جونيه، أن قرأ هذين الفصلين في المجلد المذكورة، فطاب له الموضوع، كما طاب له الأسلوب الذي عولج به، فاتصل برئيس تحرير (الرسالة) ليخبره بأنه يريد أن يطبع هذا الكتاب بأجزائه كلها عندما أنتهي أنا من تأليفه كاملاً، على نفقة الرهبانية.

وهكذا كان.. فقد طبعه الأب نجم على نفقته كما أراد، وأصرّ على إجراء ما أراد.

وبعدما نشر الكتاب بمدة وجيزة وبيعت منه كمية كبيرة، أبى الراهب النبيل أن يسترد قرشاً واحداً من ثمن الورق وتكاليف الصف والطباعة وكانت كثيرة، وقال: لقد نشرت هذا الكتاب تكريماً للإمام عليّ، وإعجاباً بأسلوب المؤلف وصدقته في ما يرى ويكتب. وعلى هذا، يمكنكم أن تسلموا هذا المبلغ الذي تحملونه إليّ، لإحدى الجمعيات الخيرية إذا شئتم.

وكان له ما نصح به.

ثم عليك أن تقرأ ما قاله أديب الشرق الأكبر ميخائيل نعيمة في هذا الكتاب عند صدوره، وما كتبه الأدباء المسيحيون العرب فيه، وكل ذلك مثبت في الجزء الخامس من الكتاب، لتعلم كيف استقبله العالم المسيحي. أما في العالم الإسلامي، فما عليك إلا أن تقرأ كذلك فصل (قالوا في هذا الكتاب) بالجزء الخامس منه، لتعلم كيف استقبله العلماء والمفكرون والأدباء من المسلمين العرب والأعاجم، ومن الشيعة بصورة خاصة، وفي طليعتهم كبار الأئمة في ديار العرب وإيران وبعض بلدان الشرق

الأقصى.

وفي كل ما قالوه، إجماع على أنه الكتاب الوحيد الذي يكشف النقاب عن حقيقة الإمام عليّ، وعن عبقريته النادرة، ولا يقاس به كتاب آخر قديم أو جديد، لا من قريب ولا من بعيد.

□ هل حققت ذاتك عبر هذا الكتاب؟ وماذا عن الأهداف، هل تراها

تحققت على أرض الواقع؟

الكاتب عندما يكون صادقاً مع نفسه، وفي التعبير عما يجول في أعماقه من خواطر ومشاعر، يحقق ذاته بكل ما يكتب. وبين كتبي الكثيرة المنشورة والمعدة للنشر، ليس هنالك كتاب ألصق بأعماقي من هذا الكتاب.

أما سؤالك عما إذا كانت الأهداف من هذا الكتاب قد تحققت على أرض الواقع، فأجيب عنه قائلاً: ليس في إمكانية الكاتب أو صاحب الرأي، أيّاً كان، وحيث كان، أكثر من أن يكون صادقاً في ما يرى ويكتب، وجريئاً حتى أقصى حدود الجرأة في عرض ما يراه، أما تحقيق ما يصبو إليه على أرض الواقع، فأمر يتعلق بأنظمة المجتمعات، وسلطاتها، وأحوالها العامة التي توجهها، وعلى هذا، أسألك: هل قرأت رسالة الإمام عليّ إلى الأشتر النخعي عامله على مصر؟ بعد ذلك، اسأل نفسك: من ألف وأربعمئة سنة مضت على صدور هذه الرسالة، الدستور الذي لا تجد أرقى منه في دساتير الأمم جميعاً، حتى يومنا هذا، ما الذي طُبّق منها على أرض الواقع في ديار هذا الشرق؟

□ ما موقع الإمام عليّ (عليه السلام) في الفكر المسيحي؟

إذا ما اطلعنا على بعض الآداب الأوروبية في العصور الوسطى، لا سيما الأدب الإيطالي المعبر أكثر من سواه عن الأفكار والمعتقدات في

العالم المسيحي يومذاك، نعلم أن الفكرة التي كانت لدى الكثيرين من الناس عن الإمام عليّ أنه قدّيس مسيحي، لما في أقواله ومنهجه من شبه بتعاليم المسيح.

ومما يجدر ذكره في هذا الباب أن للإمام عليّ صورة في إحدى الكنائس القديمة بإيطاليا. وهنا في بيروت، في صدر صالة الاستقبال الكبرى بمدرسة (زهرة الإحسان) التابعة لمطرانية الروم الأرثوذكس، تجد صورة واسعة المساحة للإمام عليّ.

وإذا نحن قرأنا ما كتبه المؤرخ والباحث الفرنسي البارون كارا ديفو عن الإمام عليّ في القرن الأسبق، نعلم أن مكانة رفيعة يحتلها في نفسه وفي نفوس عارفي الإمام من بني قومه.

أما الأدباء والمفكرون المسيحيون العرب، فلا شك أنك تعلم ما هي منزلة الإمام عليّ لديهم.

ولهذه الغاية يكفيك أن تقرأ جرجي زيدان في رواياته التاريخية المعروفة، وجبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، ومارون عبود، وبولس سلامة، وفؤاد جرداق، وعبدالمسيح محفوظ، وكثيرين غيرهم، في آثارهم النثرية والشعرية.

وقد سبق أن رويت لك أن الذي طبع كتبني عن الإمام عليّ على نفقته الخاصة، أو على نفقة المؤسسة التي يرأسها، إعجاباً بالإمام عليّ وإكراماً وحباً، هو راهب مسيحي لبناني. وليس من عجب في هذا الواقع بعد أن تقرأ في كتب الحديث أن النبي محمداً نظر ذات مرة طويلاً إلى عليّ، وهو أعرف الخلق بطويته وهويته وحقيقته، ثم قال له: (يا عليّ، إن فيك لشبهاً من عيسى بن مريم!).

إن الإنسان عندما يبلغ درجة عالية من الإدراك، يصبح موضوعياً، أيّاً

كان المعتقد الفلسفي أو الاجتماعي أو الديني الذي نشأ عليه. وعلى هذا، ليس في أصحاب المعرفة من لا يوالي القيم الحقيقية حيث كانت، ومن حيث أتت.

□ النتائج الحضاري الذي قدمه الإمام عليّ للإنسانية، هل يرويه يمثل فكراً محضاً أم منهجاً مرتبطاً بالسماء؟

في الأساس، ليس هنالك شيء اسمه (فكر محض!) فالفكر ينبع من معادلات واقعية كثيرة، ومن ملاحظة النواميس الثابتة في الطبيعة والحياة وفق قدرة المفكر على الملاحظة، وينهج نهجاً مرتبطاً بالناس ومصائيرهم وغايتهم من الحياة أو غاية الحياة منهم. وعلى هذا، ترى أن النهج العلوي ينبعث من الملاحظة الدقيقة والعميقة للنواميس الثابتة، ثم من نظرته إلى المجتمع الإنساني وهي نظرة منسجمة مع ما لاحظه من نواميس كونية ثابتة، ويهدف إلى إسعاد الناس إسعاداً يقوم على بناء الفرد والمجتمع بناءً سليماً يستند إلى ما تقرّره إرادة الحياة، ومبادئ الاجتماع التي تستوجب العدل والتكافؤ والتكامل، مشفوعة بإرادة السماء التي تقضي بالمحبة والرحمة واستصفاء الضمائر.

□ أين تكمن موقعية نهج البلاغة في الفكر الإنساني؟

موقعية نهج البلاغة في الفكر الإنساني هي في القمة. فجميع القيم الرفيعة، والمبادئ السامية التي سعى المفكرون وعلماء الاجتماع إلى إدراكها، وإشاعة مفهومها لدى الأدميين عبر عشرات القرون، تراها كلها في نهج البلاغة. وقد تحدثت عن هذا النهج في ستة مجلدات لا يمكن إيجازها بكلمات... فعد إلى هذه الكتب الستة إذا شئت الجواب مفصلاً ووافياً.

□ ما معنى التشيع في مفهومكم الذي توصلتم إليه؟

معناه إنكار كل ما يؤذي الإنسان فرداً وجماعة من أنظمة وقوانين اجتماعية وسياسية، ورفض استغلال إنسان لإنسان أو فئة لفئة، والثورة على كل منكر من أعمال السلطات، مهما بلغت هذه السلطات من القوة والشدة في المحافظة على مصالحها ووجودها على ما هي عليه. وأحداث التاريخ في الشرق كلها تدل على هذا المفهوم وهذا الواقع.

وما ثورة التشيع والمتشيعين على مظالم الحكام في التاريخ إلا الوجه الآخر للرحمة والمحبة والميل إلى العدالة بين الناس، وللعطف على المستضعفين ومقاومة الظلم وإزالة أسبابه ونتائجه. والعواطف الكريمة لا تسير ولا تداور، بل تمشي في طريقها ولو محفوفة بالمخاطر.

□ هل ترون أن هذا العالم سليم الصياغة؟ وهل تدعون إلى إعادة

صياغته وفق منهج الإمام عليّ عليه السلام؟

من سوء حظ الإنسان أن صياغة العالم في معظم مراحل التاريخ ومعظم أقاليم الأرض، جُعِلت وفق مصالح المنتفعين بأفئتين غائلتين، هما السياسة والتجارة: السياسة كما فُهِمَت ومورست في معظم أصقاع الأرض حتى الآن، والتجارة التي هي آفة الآفات في تاريخ الأمم وفي حاضرها، وسبب الأسباب في ويلات الشعوب. ولن يصلح العالم إلا بأن يتولى إدارته وأُمُوره جميعاً اثنان لا ثالث لهما: عالم وأديب! عالم هو الفكر النير والنهج والمقياس، وأديب هو الفكر النير والقلب الخير والضمير والرحمة والإحساس بالوجود وقدس الحياة.

والإمام عليّ، في سيرته ونهجه، هو هذا العالم وهذا الأديب مجتمعين في شخصية واحدة!

* * *

هوامش نقدية على كتاب خلافة الإمام علي بالنص أم بالنصب (القسم الأول)

١. حسين الكاظمي (*)

المقدمة

تقوم فكرة كتاب (خلافة الإمام علي بالنص أم بالنصب) لمؤلفه أحمد القبانجي على أساس فصل الإمامة الدينية عن الزعامة الدنيوية (الخلافة)، فهو يحاول أن يقدم فهماً جديداً للنص على إمامة أمير المؤمنين علي عليه السلام ويحصره في دائرة الإمامة الدينية.

فهو يقول: (حتى لو دلت النصوص عليها [الخلافة] فإنما تدل على الترشيح لا النصب)^(١).

ويقول: (بالملازمة العقلية يستفاد نصب الإمام للزعامة الدنيوية، أي بما أنه أفضل المسلمين على الإطلاق، وله مقام العصمة والقرب من الله تعالى، يكون أصلح من الآخرين) (ص: ١٦).

وربما يمكن درج هذه الفكرة في ضمن محاولات عديدة لتأويل النصوص الواردة في إمامة أمير المؤمنين، والتشكيك في دلالتها وإسقاطها في مضامينها ومعانيها بعد إخفاق محاولات التشكيك في أسانيد تلك النصوص.

فقد ظهرت من أتباع مدرسة الخلفاء عدة اتجاهات في مواجهة النصوص الدالة على الإمامة أهمها ما يلي:

١. الاتجاه المنقبي: ويتلخص في حمل تلك النصوص على أنها مناقب

(*) باحث، من العراق.

وفضائل لا غير، ولا دلالة لها على الإمامة.

٢. الاتجاه الترشيعي: وهو يحاول إعطاء النصوص طابعاً لا يتجاوز الحالة التأهيلية والترشيحية، فليست هي نصوصاً صريحة في العهد والتعيين.

٣. الاتجاه التجزيئي: وهو فهم النصوص على أنها تشير للبعد الفقهي والإمامة الفقهية لا السياسية.

٤. الاتجاه (المالي): وهو تأويل النصوص وحملها على أنها تدلّ أنّ لأمر المؤمنين (عليه السلام) الخلافة، ولكن حين تؤول إليه ولو بعد حين، أي: أنّه لا دلالة لها على أنّه الإمام بلا فصل بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) (٢).

وقد تصدّى علماؤنا (رضوان الله عليهم) للإجابة عن هذه الاتجاهات، وأثبتوا بالبراهين القطعية: عقلية ونقلية، وبالقرائن والشواهد الكثيرة أنّ هذه النصوص لا يصحّ تجزئتها مدلولها والتحكم في إطلاقها، فلا يمكن إلاّ أن تحمل على إمامة الدين والدنيا بلا فصل. وهي صريحة وواضحة في ذلك. وإنّ المشكلة الوحيدة التي دعت أتباع مدرسة الخلفاء إلى تلك التمحّلات والتأويلات، هو ما حدث بعد وفاة النبي: من مخالفة لهذه النصوص من قبل بعض الصحابة، وإنّ نظرة التقديس والاحترام للصحابة هي التي أدّت إلى بروز هذه الاتجاهات.

وعلى هذا، فتندرج فكرة الكتاب المائل في ضمن الاتجاه الثالث: وهو الاتجاه التجزيئي.

وربّما شكّل أساس الفكرة، أي التمييز بين الإمامة (الروحانية) والخلافة كحكم، رأي لابن أبي الحديد المعتزلي في شرحه لنهج البلاغة. إذ أنّه علّق على حديث للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول فيه: «ألا أدلكم على ما إن تساءلتم عليه لم تهلكوا؟ إن وليكم الله، وإنّ إمامكم عليّ بن أبي طالب.

فناصحوه وصدقوه فإن جبريل أخبرني بذلك».

فقال (المعتزلي): (فإن قلت: هذا نص صريح في الإمامة، فما الذي تصنع المعتزلة بذلك؟

قلت: يجوز أن يريد أنه إمامهم في الفتاوى والأحكام الشرعية. لا في الخلافة)^(٣).

وقد سبق المعتزلي في الفكرة علي بن إسماعيل بن ميثم التمار في كتابه (الإمامة)^(٤).

وأيضاً فقد أثار الفكرة في عصرنا الحديث الشيخ علي عبد الرزاق (المصري) في كتابه (الإسلام وأصول الحكم). وكذلك الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه (الإمام الصادق عليه السلام)، ورشيد رضا في (الإمامة والخلافة العظمى)، وأحمد صبحي في (نظرية الإمامة)، وغيرهم. وطرحت الفكرة ذاتها في كتابات الكثير من الحداثيين في الوسط الإيراني، وذلك لمواجهة أطروحة ولاية الفقيه، التي تمثل الأساس للدولة الإسلامية.

ومقصود هؤلاء هو التنظير لفكرة فصل الدين عن السياسة والحكم، وحصره في زاوية الحياة الفردية. فهو علاقة بين العبد وربّه، و(ما لقيصر لقيصر وما لله لله)، وهي مقولة نسبت إلى الإنجيل نقلها (الكاتب) متبنياً لها في كتابه المائل، وأرسلها إرسال المسلمات!! (ص: ٥٠).

وهذه الفكرة في دوافعها النفسية هي من ردود الفعل السلبية من قبل مثقفي الغرب تجاه تسلط الكنيسة وممارساتها باسم الدين. والمآسي التي سببها القائمون عليها في القرون الوسطى، والتي مثلت محاكم التفتيش أمض ذكرياتها المؤلمة. وكان من نتائج ذلك كم هائل من المؤلفات التي سطرها منظرو الفكر الغربي الليبرالي. من أجل عزل الدين عن معترك الحياة الاجتماعية.

ومن جانبنا لن نناقش نحن أساس هذه الفكرة وهي فصل الدين عن السياسة . فقد كُتِبَ فيها الكثير من الدراسات والأبحاث ، وأُشِيعَتْ بحثاً وتقيباً ، واتضح الحق في أنّ الذي وقع مورداً للنقد باسم الدين، هو ممارسات القائمين على أمر الدين والكنيسة يومئذٍ. لكنّ الناقدين لم يستطيعوا التفريق بين تعاليم الدين الأصيل وبين ممارسات القائمين عليه. فوقعت المشكلة، وحُكِمَ على كلّ أطروحة دينية بأنها ليست لها الصلاحية في إدارة وتسيير الأمور العامة في أيّ مجتمع.

والخلاصة: إنّ إفرازات الواقع هي التي دعت إلى رفض النظرية. وإنّما سينصبّ البحث حول المسألة المهمة التي بناها (الكاتب) على أساس هذه الفكرة. وهي: مسألة الفصل بين الإمامة الدينية والزعامة الدنيوية.

وكما أشرت آنفاً، فليس في الفكرة من جديد، إلّا إضافة بعض التشكيكات، وتجميع الشبهات، وطرحها بأسلوب يتناغم مع أجواء الانكماش وردود الفعل السلبية الناشئة من خلل في التطبيقات. وكذلك من هواجس الإحباط واليأس، المترشحة عن أخطاء قد يكون الكثير منها مبرراً أو طبيعياً لا بدّ منه في تجربة فتية.

وقد رأيت أن أقوم بالردّ على هذا الكتاب رداً موضوعياً مختصراً أناقش أساس فكرته أولاً، وهي فكرة فصل الإمامة عن الخلافة، والتي بناها (الكاتب) على أصل عدم الولاية، أي أنني سأبحث في هذا الأصل الذي يمثل حجر الزاوية في فكرة الكتاب بشيء من التفصيل. فإذا تزعزع هذا الأساس أقوم بتسجيل ملاحظات هامّة أخرى بصورة عابرة على بقية إشكالاته بحسب تسلسلها.

وقد أبقيت أكثر عناوين كتابه على حالها. وذلك لتسهيل الوصول

إلى موضع كلامه الذي علقت عليه.

كما قمت بقراءة الكتاب فصلاً فصلاً، واقتنصت من كل فصل من كلامه لبَّ الفكرة. فسجلتها وأعقبته بما تراءى لي من التعليق، تاركاً ما لم يكن مهماً من كلامه، أو لم يكن له ارتباطاً بموضوع الكتاب الأساسي وعنوانه، وهو (خلافة الإمام علي عليه السلام) ولذا غضضت الطرف عن كثير من المفارقات والتناقضات التي وقع فيها الكاتب، والتي قد يمكن اكتشافها بتأمل بسيط.

نقد المقدمة

وقبل البدء بالتعليق على مقدمة الكتاب نسجل تحفظنا على عنوانه: (خلافة الإمام علي بالنص أم بالنصب). فإنَّ العطف بـ(أم) يقتضي المغايرة والتباين بين المعطوف والمعطوف عليه، لا التداخل - كما وقع في عنوان الكتاب - حيث إنَّ (النص) يدل على النصب - كما يعتقد الشيعة - وإنَّ النصب قد تمَّ عن طريق النص. وعليه، فينبغي أن يكون العنوان - مثلاً - (بالنص أم بالانتخاب)، ولعلَّ هذا هو ما قصده الكاتب، ولكنه أخطأ التعبير!

يقول (الكاتب) في مقدمته التي لم يبدأها بذكر الله واسمه! (وإذا كان أتباع الحق الأقلين فهذا لا يعني أن أتباع الباطل هم الأكثرون).. ولم نعرف محملاً صحيحاً لهذا الكلام إلاَّ المقولة المتداولة في التعددية الدينية (البلوراليسم)، وأنَّ جميع الأديان والطوائف على حق.. ولا نريد الدخول معه في مناقشة هذه المقولة والتي يكفي في إبطالها المنطق القرآني القائل: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ (يونس: ٣٢)، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ (الحج: ٦٢).

ويقول الكاتب: (وإذا كان السبب في قلة أتباع الحق هو أن الحق لشدة جماله وبهائه لا يظهر عارياً للناس، ولا يتجلى لهم إلا من خلال ألف حجاب من نور. فالباطل بطريق أولى أن يتقنّع لشدة قبحه ودمايته بألف حجاب من ظلمة..).

وهذا كلامٌ شعري جميل، لكن لم يلتفت الكاتب إلى لازمه وهو: أن يكون أتباع الباطل قليلين أيضاً... لأنه يتقنّع لشدة قبحه بألف حجاب من ظلمة! وعليه فيكون هذا حينئذٍ كلاماً بلا محصل! ويقول: (وبسبب هذه الحجب أخذ أكثر الناس من هذا ضغث (كذا) ومن ذاك ضغث ليتخذونه ديناً ويعتقونه مذهباً...).

فالكاتب يبرّر إذن للمنحرفين عن الدين انحرافهم بأن الحجب منعتهم عن رؤية الحق والباطل على حقيقتهما.. وهذا أيضاً خلاف منطق القرآن القائل: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ (الأنعام: ١٤٩). وقوله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ (الأنفال: ٤٢).

وقوله: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٥). فإن من كانت لديه رغبة حقيقية في التعرف على طريق الحق فالمنهج واضح، وجهود الأنبياء والأولياء والشهداء، على مرّ التاريخ، كانت من أجل إنارة الطريق وإقامة الحجّة.. ولكي لا يبقى مجالاً لحيرة حائر، إلا من أراد الانفلات واتباع الشهوات. وعندها سيبحث لنفسه عن المبررات والأوهام؛ ليكون منها حاجزاً يحول بينه وبين رؤية الحق: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ * يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ (القيامة: ٥ - ٦).

فإن هذه الآية الكريمة تقرّر أنه لا توجد مشكلة فكرية لدى منكري يوم الحساب في الحقيقة، لكنهم يحاولون توفير الحماية

الفكرية، والتبرير النفسي لممارسة رغباتهم وشهواتهم؛ لينطلقوا معها دون أن يعكّر صفوهم هاجسُ الفكرة في المصير والحساب.

ويقول الكاتب في المقدمة أيضاً: (وما رافق المسيرة التاريخية للفكر الديني من اجتهادات المجتهدين، وتفسيرات المفسرين، وعرفان العارفين، ووضع الوضعّاء طيلة هذه المدة المديدة، هل يمكن لأحد أن يدّعي أنه أخذ دينه من عين صافية. ومذهبه من روافد نقية؟)

وقد خلط الكاتب هنا بين الثابت والمتغير في الشريعة، أو بين النص والاجتهاد، وتخيّل أنّ كلّ الدين اجتهادات وتفسيرات، ونسي أنّ الأساسيات في العقيدة ثابتة قطعية، ومأخوذة من عين صافية وروافد نقية، وأن الدين والمذهب الحقّ - طبقاً لما رسمه الله تعالى لمسيرة الهداية إلى الحقّ - باتباع الثقلين، اللذين هما علما الهداية والحجة البالغة، وهما: كتاب الله، وعترته نبيه ﷺ أو سنّته الثابتة النقية. ولا يضرُّ بعد هذا: الكلام والنقاش حول بعض مفردات العقيدة وأحكام الشريعة، بعد التسليم بكون الحاكم في الاختلاف هو (الثقلين).

ثم إنّ الاختلاف في الأحكام الفرعية واجتهادات المجتهدين، لا يعني تعدّد حكم الله الواقعي، حيث إن مذهبنا التخطئة لا التصويب^(٥)، لكن حيث كانت الاجتهادات على طبق النهج المرضي للشارع، فتكون حجة ومعدّرة في صورة الخطأ.

مع أساس النظرية

يرفض الكاتب أن يكون من حقّ النبي أو الولي، بل حتّى الله سبحانه، أن يتولّى أمر الحكومة والزعامة، ويعيّن من يراه مناسباً لذلك، بل هو - بزعمه - حقّ للناس يختارون له من يشاؤون، ولا يحقّ لأحد - حتى

الله - أن يتدخل في هذه المسألة؛ لأنه - برأيه - : تجاوز لحكم العقل الفطري. يقول القبانجي: (والدين أو القانون يجب عليهما أن يتطابقا مع هذه الحقوق الفطرية، وإلاّ لو كانت هناك فقرة من القانون، أو حكم شرعي، يتقاطع مع هذه الحقوق الفطرية، لا اعتبر هذا القانون أو الدين ظالماً..) (ص: ٤١).

ثم يلطف الجوّ بعد هذه الحملة والتحديد لصلاحيّة الدين بقوله: (وإنما يحقّ للشارع المقدّس إرشاد الإنسان إلى الأفضل في اختيار الحاكم، لا أنه يجبره على بيعة شخص معين، ويلزمه بالطاعة له) (ص: ٤٣). وبعدها يقوم بنسج ثوب رقيق بيده ويسمّيه استدلالاً على الحق الإلهي في الحكومة، ثمّ يقوم بنقضه وتفنيده بلباقة. ليقف بالنهاية منتصراً لفكرته الجديدة، ومأولاً للآيات القرآنية التي يظهر منها خلافها. ثمّ يشرع في الاستدلال لنظريته القائلة بأنّ الحكومة من حقّ الناس، ولا يحقّ لأحد - كائناً من كان - أن يفرض عليهم حاكماً. ويذكر لها من الأدلة ما خلاصته:

١. إنّ كون الحكومة من حقّ الناس، هو من الحقوق الطبيعية الفطرية التي يدركها الإنسان بالوجدان، حاله حال حقّ الحياة والمسكن والبيان والزواج وأمثال ذلك، والإسلام جاء لدعم هذه الحقوق وتوكيدها لا لإنشاء حقوق جديدة... (ص: ٤٦).

٢. إنّ هذا الرأي يتوافق مع أجواء الآيات القرآنية أيضاً، حيث نقرأ في الكثير من الآيات الشريفة، إيكال أمر الحكومة إلى الناس والأمة، وخاصة المؤمنين منهم، لا إلى فرد معين من قبيل قوله تعالى: ﴿الزَّائِنَةُ وَالزَّائِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ﴾ (النور: ٢) ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا...﴾ (المائدة: ٢٨) ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ

وَالْمِيزَانُ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ... ﴿ (الحديد: ٢٥) (ص: ٤٧).

٣. كلام الإمام علي عليه السلام في نفسه في تقرير هذا الحق للناس حيث يقول: (الواجب في حكم الله وحكم الإسلام على المسلمين بعد ما يموت إمامهم أو يقتل، ضالاً كان أو مهتدياً، أن لا يعملوا عملاً، ولا يقدموا يداً ولا رجلاً قبل أن يختاروا لأنفسهم إماماً عفيفاً عالماً ورعاً)، وقوله عليه السلام لما أرادوا البيعة له: (دعوني والتمسوا غيري...) (ص: ٤٩).

٤. إن الكثير من العلماء والفقهاء ذهبوا إلى أن هذا الحق إنما هو للناس في هذا الزمان أي زمان الغيبة، ولكن السؤال هو إذا كان هذا الحق للناس فمثل هذا الحق لا يتجزأ على مستوى الزمان، فأمّا أن يكون لهم على طول الزمان أو للشارع المقدس على طول الزمان أيضاً. هذه النقاط هي خلاصة ما أورده الكاتب (أحمد القبانجي) من الأدلة على نظريته، نقلناها نصّاً من السؤال السادس من أسئلته، وقدمناها أولاً لأنه بنى عليها أساس الكتاب وفكرته، (وكان ينبغي للكاتب أيضاً - من الناحية المنهجية - أن يقدمها أولاً، ثم يأتي بعد ذلك باعتراضاته...) وسنعرّض الآن لمناقشتها تباعاً إن شاء الله.

وأود قبل كلّ شيء التّويه إلى أن البحث سينصبّ حول الإمامة السياسية لأمير المؤمنين عليه السلام وخلافته للنبي. وأما الحكومة في عصر الغيبة فلها بحث آخر لن نتدخل فيه إلا للضرورة، وإن كان (الكاتب) قد حشره حشراً في حديثه في محاولة مبسّطة جداً لإسقاط تحليله لمشاكل الحكومة الإسلامية والوضع الفعلي للداخل الإيراني على الواقع التاريخي وقضايا العقيدة، وهذا هو الخطأ الذي وقع فيه من سبقه في الفكرة وهو الأستاذ علي عبد الرّازق حينما أسقط واقع الخلافة العثمانية على نظرية الخلافة الإسلامية^(٦)، وكان منه ما كان وصار ما صار. إذ كان كتابه مكرّساً

للتدديد بالخلافة العثمانية التي زعمت الحكم باسم الإسلام.

الدليل الأول، الحكومة حق فطري

وهذا هو أساس فكرة الكتاب والكاتب، ولذا سيتركز البحث حوله فنذكر له عدّة مناقشات:

المناقشة الأولى - خطأ في التطبيق:

إنّ ما ذكره الكاتب من أنّ الأصل - بمقتضى قاعدة الناس مسلّطون على أموالهم - هو أنّه لا حقّ لأحد على أحد في الحكومة، واستنتج منه أن الحكومة حقّ للناس...

يرد عليه:

١. إن قاعدة السلطنة مثبتة لا نافية، فهي تثبت جواز مختلف التصرفات فيما يملكه الإنسان - كما نوضح - لا أنها تنفي أن يكون شيء ما أو حق ما ملكاً لغيرهم، وكأنّ الكاتب أراد بالاستدلال بالقاعدة أن ينفي حق الحكومة عن الله سبحانه.

وعليه، فما ذكره من النتيجة لا يترتب على القاعدة وهي أجنبية عنه فالحكومة ليست ملكاً شخصياً لكي يتصرّف بها كلّ إنسان حسب ذوقه ومزاجه وسليقته.

٢. وإن أراد الكاتب بكلامه هذا، أن يثبت جواز حكومة الناس على بعضهم، وأن هذا الحقّ ملكٌ للناس تمسكاً بهذه القاعدة..

فهذا خطأ في التطبيق، إذ أنّ مورد هذه القاعدة هو الأشياء المملوكة للإنسان، والتي يشكّ في جواز بعض أنواع التصرفات فيها، فمعنى القاعدة هو أنّه: يجوز للإنسان أن يتصرف بأنحاء التصرف فيما يملك. لا أنّ معناها أن الأشياء المشكوك دخولها في ملكه، يحكم بدخولها بواسطة القاعدة.. توضيح ذلك:

إنه إذا ثبت أن شيئاً معيناً هو ملك لشخص، فإنه وبمقتضى القاعدة يجوز له أن يتصرف فيه بأي نوع من أنواع التصرف والتعامل، فإذا شك في نوع من التصرف أنه نافذ شرعاً أو لا، فيثبت جوازه بواسطة هذه القاعدة. أما إذا شك في شيء أو حق، أنه مملوك للإنسان أو لا، فلا يصح التمسك بالقاعدة لإثبات مملوكيته. فإن الحكم لا يثبت موضوعه، ولذا اشتهر بين الفقهاء أن قاعدة السلطنة ليست مشرعة للأسباب، بل هي في مقام جواز المسببات...

إذا اتضح هذا نقول: إن مورد البحث هو من القبيل الثاني، فإن المفروض أن الكاتب يريد الاستدلال بالقاعدة على أن هذا الحق ملك للناس، أي أنه لم يثبت لديه (قبل هذا الدليل) إن هذا الحق ثابت لهم. وعليه، فلا يمكن التمسك بالقاعدة لإثبات إن هذا الحق هو للناس؛ لأن قاعدة السلطنة لا تشرع الحكم. فإنها تقول: إن الناس مسلطون على أموالهم، (لا على أحكامهم).

المناقشة الثانية - أصل لا أصل له:

إن النتيجة التي استنتجها الكاتب مما سبق، هي أن الأصل يقتضي ألا يكون لأحد - لا لنبي ولا ولي ولا حتى الله سبحانه - حق الحاكمية والتدخل في أمر الحكومة.. هي نتيجة باطلة، وأن هذا الأصل لا أصل له ولا أساس، إلا مع إنكار وجود الله سبحانه، فهذا هو منطق الماديين وأصحاب المدارس الوضعية. أما في المدرسة التوحيدية، فلا مجال لهذا الكلام بالكلية، فهو يخالف أوليات تعاليم هذه المدرسة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ (آل عمران: ١٥٤).

وقال: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ (الكهف:

(٢٦).

وقال: ﴿هَٰذَاكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ (الكهف: ٤٤) (٧).

وقال: ﴿أَمْ آتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَأَلَّهِ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ (الشورى: ٩). ولإجل

توضيح الرؤية الكونية التوحيدية نقدم ما يلي:

المقدمة الأولى: إننا نعتقد بأنَّ لله سبحانه حقَّ المولوية والمالكية والربوبية، بمعنى القيام بشؤون الخلق وتدبير أمورهم، وأصل هذه الفكرة هو التوحيد الأفعالي للخالق، وتوحيد المالكية والحكم، ولا خلاف بين جميع المسلمين في هذا. قال الإمام السجاد عليه السلام في رسالة الحقوق: (إعلم - رحمك الله - أن لله عليك حقوقاً محيطية في كل حركة حركتها أو سكنة سكنتها... وأكبر حقوق الله عليك ما أوجبه لنفسه تبارك وتعالى من حقه الذي هو أصل الحقوق ومنه تفرع...) (٨).

المقدمة الثانية: إنَّ لله سبحانه هدفاً من وراء خلقه الإنسان والكون، ولم يخلقه تشهياً أو لهواً.. قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٥)، فقد رسم لهذا الكون أن يكون بخدمة الإنسان، وخطط للإنسان منهجاً يوصله - باختياره - إلى نيل كماله الأعلى، وإلى تفتح قابلياته واستعداداته الكامنة... فهو خليفة الله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)، وقال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ (الأعراف: ٦٩)، وقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (يونس: ١٤)، وما على الخليفة أو الوكيل إلا أن ينفذ أوامر المستخلف له: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ (النساء: ٥٨).

المقدمة الثالثة: إنَّ أمر الحكومة والسلطة، من الأمور الحساسة والخطيرة والمؤثرة جداً في مسيرة الإنسان وتربيته وسلوكه، إذ تستطيع عبر آلياتها وقنواتها الإعلامية والسياسية والأمنية والاقتصادية... أن تخلق البيئة

والمحيط المناسب والموافق لما ترتأيه وتعتقد به الهيئة الحاكمة - إن خيراً فخير، وإن شراً فشر^(٩).

وقد ورد في الحديث الشريف قوله ﷺ: (إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن أو فوق ما يزع بالقرآن)^(١٠)، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: (السلطان وزعة الله في أرضه)^(١١)، والوزعة: المانعون عن محارم الله. جمع وازع. فلا يمكن لأي وسيلة أخرى أن تقوم بالدور الذي تقوم به الحكومة (السلطان). سواء في الردع عن الانحراف، أو المساندة والمساعدة على تنمية السلوك الصالح، أو تهيئة أجوائه وتتيقية فضاءاته.

وفي حديث للإمام الرضا عليه السلام في فلسفة الحكم والسلطة، أنه قال: (...فإن قال: فلم جعل أولي الأمر وأمر بطاعتهم؟ قيل: لعل كثيرة، منها: إن الخلق كما وقفوا على حد محدود وأمروا ألا يتعدوا ذلك الحد لما فيه من فسادهم، لم يكن يثبت ذلك، ولا يقوم إلا بأن يجعل عليهم فيه أميناً. يمنعهم من التعدي والدخول فيما حظر عليهم؛ لأنه لو لم يكن ذلك كذلك لكان أحد لا يترك لذته ومنفعته لفساد غيره، فجعل عليهم قيماً يمنعهم من الفساد، ويقيم فيهم الحدود والأحكام.

ومنها: إنا لا نجد فرقة من الفرق، ولا ملة من الملل بقوا وعاشوا إلا بقيم ورئيس، لما لا بد لهم من أمر الدين والدنيا، فلم يجز في حكمة الحكيم أن يترك الخلق مما يعلم أنه لا بد لهم منه. ولا قوام لهم إلا به، فيقاتلون به عدوهم، ويقسمون به فيئهم، ويقيم لهم جمعتهم وجماعتهم، ويمنع ظالمهم من مظلومهم.

ومنها: إنه لو لم يجعل لهم إماماً قيماً أميناً حافظاً مستودعاً لدرست الملة وذهب الدين، وغيرت السنة والأحكام، ولزاد فيه المبتدعون، ونقص منه الملحدون، وشبهوا ذلك على المسلمين؛ لأننا قد وجدنا الخلق منقوصين

محتاجين غير كاملين، مع اختلافهم واختلاف أهوائهم وتشتت أنحائهم، فلو لم يجعل لهم قيماً حافِظاً، لما جاء به الرسول؛ لفسدوا على نحو ما بينا وغيرت الشرائع والسنن والأحكام والإيمان. وكان في ذلك فساد الخلق أجمعين^(١٢).

قال العلامة الحلي^{رحمته} في شرح قول الشيخ الطوسي^{رحمته}: (الإمام لطف فيجب نصبه على الله تعالى. تحصيلاً للغرض): «استدلّ المصنّف على وجوب نصب الإمام على الله تعالى بأنّ الإمام لطف واللفظ واجب. أمّا الصغرى فمعلومة للعقلاء. إذ العلم الضروري حاصل بأنّ العقلاء متى كان لهم رئيس يمنعهم عن التغالب والتهاوش. ويصدّهم عن المعاصي. ويعدّهم على فعل الطاعات. ويبعثهم على التناصف والتعادل. كانوا إلى الصلاح أقرب. ومن الفساد أبعد. وهذا أمر ضروري لا يشكّ فيه العاقل...».

وليتأمّل القارئ الكريم. في كلمات العلامة هنا ليتّضح له طريقة فهم علمائنا للإمامة. وإن الخلافة جزء لا ينفك عنها. حيث استدلّ العلامة للإمامة بما هو من لوازم الخلافة (وهو ما سنشير إليه في موضع آخر. من أنّ علماءنا لم يخطر لهم ببال أن يفرّقوا بين الإمامة والخلافة)، وسيأتي مزيد من التوضيح حول الحاجة إلى الحكومة ودورها في بناء المجتمع الصالح إن شاء الله.

النتيجة

وبعد ربط هذه المقدمات بعضها ببعض ينتج: أنه لا بدّ وأن يدخل أمر الحكومة والسلطة في ضمن دائرة تدبير الله سبحانه وتخطيطه لمسيرة الإنسان - ضمن تخطيطه سبحانه للكون كلّ - ولا يمكن افتراض أنه تعالى قد أهمل هذا الأمر الخطير وتركه لاختيار الإنسان - الذي وصفه في

كلامه تعالى - بالظلم والجهول والكفور.

ولا يكفي لضمان تحقق الهدف الرياني من الخلقة، أن ترسل الشرائع والتعليمات وأن يهمل أمر تطبيقها وتنفيذها، بل لا بد من المتابعة واستلام زمام المبادرة، والإمساك بالمفاصل الحساسة والمؤثرة في التنفيذ، وذلك عبر تنصيب مشرف على سلامة المسيرة وتوجيهها، وهذا هو أحد مهمات الإمامة كما سيوضح.

وأودّ التعليق هنا على كلام للكاتب في موضع آخر من كتابه، لارتباطه بهذا السياق، قال في صفحة ٤٤: إن القضايا الوجودية (الله خالق) لا يمكن الانتقال منها لإثبات القضايا الاعتبارية (يجب طاعة الله) والعكس كذلك.

أقول: إن هذا الكلام خلاف البديهة، فإن كل قضية وجودية قد يترتب عليها ويرتبط بها قضية أو عدة قضايا اعتبارية. فقد رتب القرآن الكريم الكثير من القضايا الاعتبارية على قضايا وجودية. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ٢١)، فالآية الكريمة تعتبر أن المبرر لعبادة الله و(طاعته) هو أنه (الخالق)، فقد رتب إذن قضية اعتبارية (وجوب الطاعة) على قضية وجودية (الخلق).

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (فصلت: ٣٧)، حيث رتب الآية الأمر بالسجود وعللته بالخلق.

ويقول العلامة الطباطبائي رحمه الله: «الله سبحانه مالك كل شيء ملكاً مطلقاً. أمّا أنه مالك لكل شيء على الإطلاق، فلأن له الربوبية المطلقة والقيومية المطلقة على كل شيء، فإنه خالق كل شيء، وإله كل شيء، قال تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...﴾ (المؤمن: ٦٢).

ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ...﴾: يدل بتقديم لفظ الجلالة على بيان السبب، فهو تعالى مالك الملك؛ لأنه (الله) جلت كبرياؤه وهو ظاهر (١٣).

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾: وإذا لا قاهر يقهره على فعل، ولا مانع يمنعه عن فعل، فهو مختار بحقيقة معنى الاختيار. هذا بحسب التكوين، والتشريع يتبعه، فإن حقيقة التشريع هي أنه فطر الناس على فطرة لا تستقيم إلا بإتيان أمور هي الواجبات وما في حكمها، وترك أمور هي المحرمات وما في حكمها، فما ينتفع به الإنسان في كماله وسعادته هو الذي أمر به وندب إليه، وما يتضرر به هو الذي نهى عنه وحذر منه.

فله تعالى أن يختار في مرحلة التشريع من الأحكام والقوانين ما يشاء، كما أن له أن يختار في مرحلة التكوين من الخلق والتدبير ما يشاء، وهذا معنى قوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾، وقد أطلق إطلاقاً.

وقوله: (ويختار) إشارة إلى اختياره التشريعي الاعتباري، ويكون عطفه على قوله: (يخلق ما يشاء) من عطف المسبب على سببه؛ لكون التشريع والاعتبار متفرعاً على التكوين والحقيقة (١٤).

والخلاصة: أن الآية الكريمة تقرّر الربط بين القضايا الوجودية (يخلق) والقضايا الاعتبارية التشريعية (يختار).

المناقشة الثالثة - لفظة معرفية ذوقية:

إنّ التأمّل في حقيقة الإنسان نفسه، وأنه موجود مفتقر ممكن، ووجود رابط متكئ، وكيان معلق بالواجب عزّ اسمه، يقود الإنسان إلى الحقيقة الكبرى، وأنه ليس للإنسان استقلاليةً ونفسيةً في مقابل الله تعالى، بل كلّ ما فيه هو الفقر والحاجة والربط، وربما يكون هذا من

معاني الحديث الشريف: (من عرف نفسه فقد عرف ربه) ^(١٥).. فمع هذه المعرفة يدرك أن المالك الحقيقي لأمره هو الله سبحانه، وأنه لا يملك ابتداءً من أمر نفسه شيئاً إلا بتمليك المالك الحقيقي... وهذا مطلب ذوقي حق يستشعره ويقرب به كل موحد لله. وعليه، فالأصل هو ولاية الله سبحانه، لا ما ذهب إليه الكاتب من أن الأصل أنه لا ولاية لأحد على أحد ... والذي قصد منه إنكار ولاية الله.

يقول العلامة الطباطبائي رحمته الله: (إن استقلال المعلول وكل شأن من شؤونه إنما هو بالعلة. وإن كل ما له من كمال فهو من أطلال وجود علته، فلو كان للحسن والجمال حقيقة في الوجود، فكماله واستقلاله للواجب تعالى؛ لأنه العلة التي ينتهي إليه جميع العلل) ^(١٦).

ويقول أيضاً: إن هذا التذلل والتواضع الذي هو من عامة المخلوقات لساحة ربهم عزّ وعلا، خضوع ذاتي لا ينفك عنها ولا يتخلف. فهو بالطّوع البتّة، وكيف لا وليس لها من نفسها شيء حتى يتوهم لها كراهة أو امتناع وجموح، وقد قال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (السجدة: ١١).

المناقشة الرابعة - حكومة العقل:

إذا تنزلنا عن مناقشاتنا السابقة وقبلنا الأصل الذي ذكره الكاتب في المسألة، وهو أنه لا ولاية لأحد على أحد. وأن هذا هو حكم العقل الأولي. لكن للعقل أحكاماً أخرى وبواسطتها ينتفي هذا الأصل الأولي بالحكومة: (فإنه توجد في مقابله أمور أخرى يحكم بها العقل أيضاً، منها: حكم العقل بوجوب إطاعة الله، وإطاعة المرشد الصادق، وتعظيم المنعم المحسن، وإطاعة الحاكم العادل الحافظ لمصالح المجتمع، فهذه كلها أصول حاكمة على ذلك الأصل، فتثبت الولاية بالآخرة بحكم العقل) ^(١٧).

المناقشة الخامسة - خلل منهجي:

حين عرض الكاتب منهجه في البحث، ذكر أنه يؤسس الأصل أولاً؛ ليرجع إليه عند فقدان الدليل، قال: (لقد دأب العلماء في مثل هذه الموارد على تأسيس الأصل أولاً ليرجع إليه عند فقدانه الدليل)(ص: ٤٣). ويرد عليه: أن مقولة تأسيس الأصل أولاً ثم استعراض الأدلة، إنما تصح فيما لو كانت دائرة البحث واحدة، وهي دائرة الشرع مثلاً^(١٨)، أما إذا تعددت الدوائر، فلا معنى لهذه الطريقة من البحث، وهذا ما ارتكبه الكاتب، فإنه أخذ الأصل من مدارس فكرية إلهادية أو علمانية (بالمعنى الغربي لهذه الكلمة طبعاً)، وحاول تطبيقه وفرضه على المدرسة التوحيدية، وتفسير نصوص هذه المدرسة طبقاً لأصل ماديّ وضعي، وهذا خللٌ أساسي في منهج البحث.

خلاصة ونتيجة

إنّضح من خلال هذه المناقشات لدليله الأول: إن الأصل الذي أسسه الكاتب ليقم عليه فكرته، لم يصمد أمام نقد المدرسة التوحيدية - والتي ينتسب الكاتب نفسه إليها - بل الأصل في هذه المدرسة هو أن أمر الحكومة لله سبحانه؛ لأن له المولوية والمالكية والربوبية على جميع خلقه. وأن ما ذكره من قاعدة السلطنة فهي ليست مشرعة، وأن وجود الإنسان وجوداً رابطاً مفتقر إلى ربه، وليس له استقلالية ونفسية مقابل ربه، ولازمه ألا تكون له ولاية على شيء إلا بتولية الله سبحانه وتعالى له...

وإن ما ذكره الكاتب من الأصل، إنّما يتماشى مع نهج المدارس الإلهادية الوضعية، والتي تنكر ما وراء الحسن والتجربة، ولا تعتقد بشيء خارج نطاق الحياة المادية الحيوانية، فلا هدف ولا غاية للخلق عندهم، إلا

التمتع واللّهو واللذة.. وعلى هذا أسّسوا نظريّاتهم في فلسفة الحقوق ونظام السلطة والحكومة.

وببطلان هذا الأصل، تبطل النتيجة المهمة التي استنتجها الكاتب منه، وهي أنه (إذا ثبت أن هذا الحق للناس، فحتى مع ورود النصوص بهذا الشأن، فلا بد من حملها على الإرشادية)(ص: ١٢٨).. بل وثبت محلّها النتيجة التي تعاكسها والتي تقول: بأن النصوص الواردة في تنصيب الأئمة عليه السلام، وخصوصاً أمير المؤمنين عليه السلام للإمامة. باقية على إطلاقها ولا مخصّص لها - بعد سقوط ما ادّعى من المخصّص - فتشمل الإمامة الدينية والزعامة الدنيوية، وأن الأصل في الأوامر الصادرة من الشارع هو المولوية، وأن الإرشادية تحتاج إلى قرينة.

الدليل الثاني

وخلاصته، أن بعض الآيات القرآنية يظهر منها إيكال أمر الحكومة إلى الناس، من قبيل قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ﴾ (النور: ٢)، وقوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءَ بِمَا كَسَبَا...﴾ (المائدة: ٣٨)، وقوله: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...﴾ (الحديد: ٢٥).

المناقشة:

○ إن هذه الآيات الكريمة إنّما وردت في مقام بيان أصل الحدود الإلهية، وهي أن حد الزنا الجلد وحد السرقة القطع، أو بيان وجوب إقامة القسط... وليست هي بصدد تعيين المنفذ لهذا الحد، وإلا: فهل يمكن افتراض أن الآية تقرر أن لكل فرد من المجتمع الحق في إجراء هذه الحدود ومتى يشاء!! ومعه تعمّ الفوضى، وينعدم الأمن، وينفطر نظم المجتمع... فلا

بد وأن يفترض أن يكون المتصدي لإجراء هذه الأحكام هو النبي ﷺ أو خليفته أو من نصبه، وهذا ما تصدّت لبيانه آيات أخر من القرآن الكريم، نذكر منها:

١. قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ

الله﴾ (النساء: ١٠٥)، حيث يستفاد من إطلاق الآية (الحكم) بين الناس: أنه يشمل جميع الشؤون. ويعم المسلمين وغيرهم.

٢. وقوله تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ

بِالْحَقِّ﴾ (ص: ٢٦)، ويستفاد من الآية الكريمة: أنه ﷺ إنما جاز له الحكم بين الناس بعد جعله خليفة، وقبل ذلك كان داود عليه السلام نبياً مهمته التبليغ والإرشاد. (وهذه ملاحظة جديرة بالتأمل والتدقيق لم يلتفت إليها الكاتب، بل تعسّف بها ومرّ عليها مرور الكرام..أو بالأحرى وظّفها بالمقلوب بعقلية مسبقة أو حكم جاهز لم يخل من الهوى أو الانحياز، كما سنقرأ).

٣. وقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ

لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ (البقرة: ١٢٦)، فإن إبراهيم عليه السلام أصبح إماماً بعد أن كان نبياً، وابتلي بابتلاءات عظيمة. وخرج منها مرفوع الرأس، فاستحق بذلك هذا الوسام الرفيع وهو الإمامة. التي من أحد شؤونها: الإشراف العملي على تطبيق مقررات الشريعة، وملاحظتنا الآنفة في حكم داود عليه السلام آتية بعينها هنا، إذ أن إبراهيم كان نبياً ومهمته الهداية والتبليغ. ثم أصبح إماماً، أي مسؤولاً عن التطبيق العملي والحكم.

وبهذا نسجل ملاحظة مهمة على رأي الكاتب. الذي يفصل بين الإمامة الدينية والسياسية. فإنه لا يبقى لجعله عليه السلام إماماً أي معنى - إذا فسرت الإمامة بالإمامة الدينية - كما هو مذهب الكاتب؛ لأن الإمامة الدينية كانت ثابتة له عليه السلام بالأصل، أي منذ كان نبياً.

ففي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: إن الله تبارك وتعالى اتخذ إبراهيم عبداً، قبل أن يتَّخذه نبياً. وأن الله اتخذهُ نبياً قبل أن يتَّخذه رسولاً، وأن الله اتخذهُ رسولاً قبل أن يتَّخذه خليلاً. وأن الله اتخذهُ خليلاً قبل أن يجعله إماماً، فلما جمع له الأشياء قال: إني جاعلك للناس إماماً. قال: فمن عظمها في عين إبراهيم، قال: ومن ذريتي... الحديث^(١٩)، وهذه كلها إشارات نمر عليها مروراً للإيجاز. ونظن أن القارئ اللبيب أدرك أو يدرك ما نعني بتأمل بسيط، لا يحتاج إلى التمحلات أو التأويلات التي أوردها الكاتب وحاول من خلالها إثبات نظريته. وإلا لانتهى دور الأنبياء في الدعوة والهداية (الإمامة الدينية)، ولما احتجنا إلى (الرسول) وأولي العزم منهم تحديداً. الذين دفعوا ثمناً غالياً في تبليغ الرسالة وأداء الأمانة.

٤. وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ (النور: ٥٥). ويمكن أن يستفاد من الآية الكريمة أن الاستخلاف - (وهو بمعنى الإمارة والحكم) - إنما هو حق لله سبحانه، يجعله لمن يشاء من عباده.

○ هذا وقد ورد في السنة الشريفة أحاديث كثيرة مضمونها أن حق الحكومة إنما هو لله سبحانه لا للناس. وكنموذج ننقل الرواية التالية: (دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوم عامر بن صعصعة إلى الله، وعرض عليهم نفسه. فقال رجل منهم: إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال صلى الله عليه وسلم: الأمر لله، يضعه حيث يشاء)^(٢٠).

ومن الواضح أن السائل هنا لم يسأله عن الإمامة الدينية. بل سأله عن الخلافة والحكومة (الإمرة).

الدليل الثالث

قوله: (كلمات لأمر المؤمنين عليه السلام يظهر منها أن هذا الحق للناس، منها قوله: الواجب في حكم الله وحكم الإسلام على المسلمين بعد ما يموت إمامهم أو يقتل، ضالاً كان أو مهتدياً، ألا يعملوا عملاً، ولا يقدموا يداً ولا رجلاً قبل أن يختاروا لأنفسهم إماماً عفيفاً عالماً ورعاً)...

يرد عليه:

١. إن الكاتب قد اقتطع هذا المقطع من رواية طويلة، رأينا أن ننقل جزءاً منها لنلقي ضوءاً على ملابسات وظروف صدور النص؛ ليتضح أن الإمام عليه السلام في تلك الفترة العصيبة. حرص على الجدل بالأحسن، والاعتماد على مقدمات يقبلها الخصم، وبعد تهيئة الأذهان يشير إلى مسألة النص عليه بالإمامة:

ما في كتاب سليم بن قيس الهلالي في جواب كتاب معاوية، حيث طلب من أمير المؤمنين عليه السلام قتلة عثمان ليقتلهم.. (فلما قرأ علي عليه السلام كتاب معاوية، وبلغه أبو الدرداء وأبو هريرة رسالته ومقالته، قال علي عليه السلام لأبي الدرداء:

قد بلغت ما أرسلكما به معاوية، فاسمعا مني ثم أبلغاه عني وقولا له: أن عثمان بن عفان لا يعدو أن يكون أحد رجلين: أما إمام هدى حرام الدم. واجب النصر لا تحل معصيته ولا يسع الأمة خذلانه، أو إمام ضلالة حلال الدم لا تحل ولايته ولا نصرته، فلا يخلو من إحدى الخصلتين. والواجب في حكم الله وحكم الإسلام على المسلمين بعد ما يموت إمامهم أو يقتل، ضالاً كان أو مهتدياً مظلوماً كان أو ظالماً، حلال الدم أو حرام الدم، ألا يعملوا عملاً، ولا يحدثوا حدثاً، ولا يقدموا يداً ولا رجلاً، ولا يبدأوا بشيء قبل أن يختاروا لأنفسهم إماماً عفيفاً عالماً ورعاً عارفاً بالقضاء

والسنة، يجمع أمرهم ويحكم بينهم، ويأخذ للمظلوم من الظالم حقه، ويحفظ أطرافهم..

هذا أول ما ينبغي أن يفعلوه: أن يختاروا إماماً يجمع أمرهم إن كانت الخيرة لهم، ويتابعوه ويطيعوه. وإن كانت الخيرة إلى الله عز وجل وإلى رسوله فإن الله قد كفاهم النظر في ذلك والاختيار، ورسول الله ﷺ قد رضي لهم إماماً، وأمرهم بطاعته واتباعه. وقد بايعني الناس بعد قتل عثمان وبايعني المهاجرون والأنصار بعد ما تشاوروا في ثلاثة أيام، وهم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان وعقدوا إمامتهم، ولي ذلك أهل بدر والسابقة من المهاجرين والأنصار، غير أنهم بايعوهم قبلي على غير مشورة من العامة، وأن بيعتي كانت بمشورة من العامة، فإن كان الله - جل اسمه - جعل الاختيار إلى الأمة. وهم الذين يختارون وينظرون لأنفسهم. واختيارهم لأنفسهم ونظرهم لها خير لهم من اختيار الله ورسوله لهم، وكان من اختاروه وبايعوه بيعة هدى، وكان إماماً واجباً على الناس طاعته ونصرته، فقد تشاوروا في واختاروني بإجماع منهم.

وإن كان الله عز وجل الذي يختار وله الخيرة، فقد اختارني للأمة واستخلفني عليهم، وأمرهم بطاعتي ونصرتي في كتابه المنزل، وسنة نبيه ﷺ، فذلك أقوى لحجتي وأوجب لحقي... الحديث) (كتاب سليم بن قيس الهلالي: ١٨٢؛ وبحار الأنوار ٨: ٥٥٥).

وهنا نرى أن الكاتب قام باقتطاع ونقل ما يدعم رأيه، وأهمل ما يضره (وما ذلك دأب من يتحرى الحقائق، وليس هو من الأمانة والموضوعية في شيء). وعلى أية حال، فانظر - أخي الكريم - إلى الفقرة الأخيرة من كلام الإمام علي (وإن كان الله عز وجل الذي يختار وله الخيرة، فقد اختارني للأمة واستخلفني عليهم..)، فهل توجد عبارة أصرح منها في كون

هذا الحق لله سبحانه، وأنه أعطاه لأمير المؤمنين عليه السلام. ثم انظر إلى تدرج الإمام عليه السلام في استدلاله مع خصم منكر للنص، ومستدلّ بعمل الصحابة السابقين، فيحتجّ عليه بمقدمات يقبلها ويقرُّ بها. وهذا هو الجدل بالأحسن، حيث إن معاوية إنما اعترف بخلافة من سبق، لزعمه بيعة المهاجرين والأنصار لهم، فيقول له أمير المؤمنين عليه السلام: قد بايعني نفس هؤلاء، فما عذرُك في التخلّف والنكث؟ ويلاحظ تركيزه عليه السلام على شعبية البيعة، وكونها تمت برغبة وإرادة الأمة، لا كمثّل بيعة من سبقه... ثم بعد أن يقيم عليه السلام الحجة، ويثبت أحقيّته بالخلافة عن طريق هذه المقدمات، يسجّل أمير المؤمنين عليه السلام اعتقاده الحقيقي في مسألة تولّي الخلافة، وهو الجعل الإلهي والتنصيب بالنص.

الدليل الرابع

قوله: (ذهاب الكثير من العلماء والفقهاء إلى أن هذا الحق إنّما هو للناس في هذا الزمان... ومثّل هذا الحق لا يتجزأ على مستوى الزمان، فأما أن يكون لهم على طول الزمان أو للشارع المقدس على طول الزمان أيضاً...)

المناقشة:

إنّا لا نسلّم بما ادّعاء... فإن المعروف والمشهور من الفقهاء أنهم يصرون على أنّ هذا الأمر هو حق الله سبحانه حتّى في هذا الزمان، وأنه أُعطي إلى الأنبياء ثم الأئمة عليهم السلام والأئمة بدورهم قد نصبوا الفقهاء بشروط خاصة للنيابة عنهم في إدارة شؤون الأمة في عصر الغيبة، وأن انتخاب الفقيه من قبل الأمة إنّما هو انتخاب في دائرة تلك الشروط التي حددها الأئمة عليهم السلام، فالانتخاب يرجع إلى تعيين المصداق لمن نصبه الأئمة. لا أن يكون هذا الحق من أساسه راجعاً لهم.

وأما ما ذكر في بعض عبارات الفقهاء - رضوان الله عليهم - مما قد يوهم ما استفاده الكاتب، وهو قولهم إنه لا ولاية لأحد على أحد، فالمقصود به الولاية التي تكون في عرض واحد، لا أنهم ينفون الولاية الطولية، أي أنّ الناس بما هم ناس لا يملك أحدهم الولاية على غيره، بل حتى الأنبياء ليس لهم سلطة على أحد بحسب ذواتهم، وإنما تكون لهم الولاية بتولية الله سبحانه وتسليطه.

وننقل هنا كنموذج كلمتين لعلمين من فقهاءنا، يتضح منهما ما ذكرناه:

يقول المولى أحمد النراقي رحمته الله: (إعلم أن الولاية من جانب الله سبحانه على عباده. ثابتة لرسوله وأوصيائه المعصومين، وهم سلاطين الأنام، وهم الملوك والحكام. وييدهم أزمة الأمور. وسائر الناس رعاياهم. والمولى عليهم. وأما غير الرسول وأوصيائه. فلا شك أن الأصل عدم ثبوت ولاية أحد على أحد. إلا من ولّاه الله سبحانه أو رسوله أو أحد من أوصيائه على أحد في أمر) (٢١).

ويقول الإمام الخميني رحمته الله: (السلطنة والولاية مختصة بالله تعالى بحسب حكم العقل. فهو تعالى مالك الأمر والولاية بالذات. من غير جعل. وهي لغيره تعالى بجعله ونصبه.

وهذه السلطنة والخلافة والولاية من الأمور الوضعية الاعتبارية العقلائية، فالسلطنة بشؤونها وفروعها. لهم عليهم السلام من قبله تعالى، ولا يجوز لأحد التصرف فيها، وتقلدها أصلاً وفرعاً؛ لأن تقلدها غصب. والتصرف فيها وفي شؤونها كائناً ما كانت. تصرف في سلطان الغير) (٢٢).

وخلاصة الجواب عن سؤاله إذن، هي أن هذا الحق هو للشارع المقدس على طول الزمان.. ولئن كان خوّل أو جعل للأنبياء وورثتهم من العلماء،

فإنّما هو حلّ لإشكاليّة واقعيّة، باعتبارهم الأحرص على تطبيق الدّين، والأقدر على فهم النصّ.

كانت هذه مناقشاتٍ مختصرة لأهمّ ما أورده الكاتب من أدلّة على نظريته، والتي قد استخرجناها من كلامه الذي ذكره تحت عنوانه (سادساً)، والتي نعتقد أنّها تمثّل محور الكتاب، والأساس الذي قامت عليه فكرته. وعليه، فكان من الأجدر به أن يقدّمه أولاً كما فعلنا .

يتبع

* * *

الهوامش:

- (١) أحمد القبانجي، خلافة الإمام علي بالنص أم بالنصب: ١١.
- (٢) ولمزيد من التفصيل حول هذه الاتجاهات راجع كتاب: عبد الله الغريفي، التشيع: ٣٠٩.
- (٣) شرح نهج البلاغة ١: ٩٨.
- (٤) فهرست لابن النديم، الفن الثاني من المقالة الخامسة: ٢٤٩.
- (٥) القائلون بالتصويب هم الذين يقولون بتعدد حكم الله بحسب تعدد آراء المجتهدين، أي إن حكمه يتقرر أو يتغير في ضوء اجتهادات المجتهدين!
- أما المخطئون فيقولون بوحدة الحكم الواقعي وسبقه على الاجتهادات، وأنه قد يكون أحد الاجتهادات مطابقاً للواقع، وربما يخطئ الجميع. وتفصيل الكلام في محله من الأصول.
- (٦) انهارت دولة الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤. ونشر كتاب عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) فيما يقارب هذا التاريخ.
- (٧) وقال العلامة الطباطبائي في تفسير هذه الآية: «الولاية بمعنى مالكية التدبير، وهو المعنى الساري في جميع اشتقاقاتها... أي عند إحاطة الهلاك وسقوط الأسباب عن التأثير، وتبين عجز الإنسان الذي كان يرى لنفسه الاستقلال والاستغناء، (تبين أن) ولاية أمر الإنسان وكل شيء، وملك تدبيره لله؛ لأنه إله حي له التدبير والتأثير بحسب واقع الأمر... وذكر بعضهم أن الإشارة بقول: ﴿هَٰذَا لَكُمُ الْيَوْمَ﴾ إلى يوم القيامة، فيكون المراد بالثواب والعقاب ما في ذلك اليوم». (تفسير الميزان ١٣: ٣٤١ - ٣٤٢).
- أقول (أنا): حتى على احتمال كونه إشارة إلى يوم القيامة، فحيث إن القيامة هي ظرف انكشاف الحقائق ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾، فهو اليوم الذي ينكشف فيه أن الولاية في الدنيا كانت لله سبحانه.
- (٨) رسالة الحقوق - تحف العقول: ٢٦٠.
- (٩) يقول ماركس في كلمة له مشهورة: (أفكار الطبقة الحاكمة هي الأفكار الحاكمة)... وقد شهدنا في عصرنا الحاضر كيف استطاعت فكرة باطلة وعقيدة مخالفة للفطرة الإنسانية، وهي الشيوعية اكتساح عقول نصف سكان المعمورة، ولعشرات السنين.. وما ذلك إلا بسبب تبني وإسناد دولة قووية واحدة.
- (١٠) السير الكبير للشيباني ١: ١٦٩.

- (١١) نهج البلاغة ٣: ٢٢٢.
- (١٢) بحار الأنوار ٦: ٦٠.
- (١٣) الميزان في تفسير القرآن ١٦: ٦٧.
- (١٤) بحار الأنوار ٦: ٦٠.
- (١٥) عوالي اللآلي ٤: ١٠٢.
- (١٦) الميزان في تفسير القرآن ١: ٢٢.
- (١٧) دراسات في ولاية الفقيه ١: ٣١.
- (١٨) وبيان السبب في ذلك لا يتسع له مجال هذا الرد المختصر..
- (١٩) أصول الكافي ١: ١٧٥.
- (٢٠) الإصابة لابن حجر ١: ٥٢.
- (٢١) عوائد الأيام للنراقي: ١٨٥.
- (٢٢) المكاسب المحرمة ٢: ١٦٠.

ثنائيات النص القرآني

قراءه في ظاهره الباطن القرآني في ضوء المذاهب الإسلامية

د. فتح الله نجار زادگان (*)
ترجمة: منال عيسى باقر

مقدمة

نقصد بمصطلح بطون القرآن في هذه الدراسة المفاهيم المرادة لله تعالى في آيات القرآن، لكنها مختلفة عن غيرها من المفاهيم بكونها - على خلاف التفسير - غير قابلة للفهم من خلال ظاهر العبارة أو على أساس القواعد العقلانية للمحاوره، ولهذا سميت هذه المعاني والمفاهيم بـ «بطون القرآن».

وما نهدفه هنا البحث المقارن لبطون الآيات من وجهة نظر الفريقين - السنّي والشيعي - وذلك للحصول على النتائج التالية:

- ١ - معرفة نقاط الاشتراك والاختلاف من منظور الفريقين.
- ٢ - إبطال التشكيكات الموجهة على أصل وجود المعاني الباطنية للقرآن عندهما.

- ٣ - تحديد دائرة تفسير النص القرآني عندهما.
- ٤ - ترتيب مناقشات المذهبين لبعضهما البعض؛ بغية تقويم الجهود الماوراء تفسيرية لفهم بطون الآيات طبقاً لمعايير خاصة.
- ٥ - رفع الملاحظات المسجلة على التفسير الشيعي، بنعته بالتفسير

(*) أستاذ مساعد في جامعة طهران.

الباطني من جانب بعض الكتّاب^(١).

أدلة الفريقين على مبدأ الباطن القرآني

من الناحية الثبوتية الإمكانية، لا مانع من وجود المعاني الباطنية للقرآن، لا من الناحية العقلية ولا من جانب القبح العقلائي، كما عبّر بعض العلماء، وقد قيل: إذا قصد المتكلم معنيين من كلامه، يقوم المعنى الأوّل منهما على أساس المبادئ النحويّة وأصول المحاورّة العقلائيّة ممّا له دلالة واضحة، ويقوم المعنى الثاني - بما له من دلالة مخفية غير ظاهرة - على مبنى الرمز والترميز الذي لا يفهمه إلاّ الخواص، فهذا عمل ممكن ومعقول، بل لا يوجد برهان عقلي على استحالتّه، كما لا يعتبره العقل أمراً قبيحاً غير مستحسن، وأكثر ما يمكن أن يقال: إنّ أحد العناصر الأساسيّة التي توجد الآثار الأدبيّة والفنيّة للألفاظ قيامها على معنيين: أحدهما بيّن، والآخر غير بيّن^(٢).

وبناءً عليه، تمسك كل من السنّة والشيعّة بأدلتهم - من الناحية الإثباتية - القرآنيّة والروائيّة على وجود البطون، وذلك من خلال:

١ - الاستناد إلى الآيات القرآنية

تمسك كلا الفريقين بإطلاق بعض الآيات الشريفة أو عمومها لإثبات وجود بطون للقرآن، فقد ورد في القرآن الكريم الآية التالية: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ...﴾ (النحل: ٤٩)، وجاءت آية أخرى تتحدث عن أوصافه: ﴿تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ...﴾ (يوسف: ١١١). وتعني كلمة تبيان أنّ القرآن مبينٌ موضحٌ مجلي، ولكلمة تفصيل ذات المعنى تقريباً^(٣).

وتوضيح ما تقدّم: أنّه إذا كان قد أُريد من «كلّ شيء» في الآيتين السابقتين الشمول التام المستفاد من ظاهرهما، فيظهر أنّ الأفراد جميعهم

غير قادرين على استنباط كل شيء من ظاهر القرآن على أساس أصول المحاوراة واللغة، من هنا، فهناك قسم من علوم ومعارف القرآن سيكون على شكل باطني لا يفهمه إلا أناس خاصون^(٤)، حتى لو فرضنا أن لفظة «كل شيء» قد حُصِّصت بقيود متعددة - مثل: كل شيء يتعلق بمبدأ ومعاد، أو المقررات الأخلاقية والحقوقية، أو كل شيء يتعلق بهداية الإنسان وسعادته - فلا يستطيع عوام الناس استفادتها عبر الظاهر، بل لا بد حينئذٍ من افتراض بطون للقرآن، وأن أفراداً معينين هم من يمكنهم استنتاج تلك المعاني من تلك الألفاظ.

٢ - الاعتماد على الروايات

يرى الفريقان أن مبدأ وجود بطون للقرآن أمر محرز ومؤكد، معتمدين في ذلك على الأحاديث المدونة في مصادرهما، حيث توجد روايات متعددة - في المصادر الشيعية - نُقل بعضها بسند صحيح، تدل على وجود بطون للقرآن، ومثال ذلك الحديث الذي نقله جابر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «يا جابر إن للقرآن بطناً وللبطن ظهراً»^(٥).

كما وتوجد روايات كثيرة عند أهل السنة منقولة عن الرسول صلى الله عليه وآله وبعض أصحابه، تدل - بشكل صريح وواضح - على وجود بطون للقرآن، ومثال ذلك الحديث الذي نقله ابن حبان في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «أنزل القرآن على سبعة أحرف لكل آية منها ظهر وبطن»^(٦).

ويرى بعض أهل السنة أن بعضاً من هذه الأحاديث صحيح السند^(٧)، فيما يرى السند بعض آخر موثقاً^(٨).

وإضافة إلى هذه الأحاديث السالف ذكرها، هناك الكثير غيرها المذكور في مصادر الفريقين، والذي يدل - دلالة ضمنية - على أن للآيات بطوناً، كرواية الفضيل بن يسار الذي قال: «سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه

الرواية: ما في القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن.. قال عليه السلام: ظهره وبطنه تأويله...»^(٩).

ويستفاد من هذا الحديث أنّ تفكيراً من هذا النوع كان قد طرح في تلك الحقبة، ولم ينض الإمام الباقر عليه السلام وجود ظهر وبطن للقرآن.

وهناك حديث آخر عند أهل السنة ذكر بطرق متعدّدة، بعضها بسند صحيح، وهو أنّ أبا سعيد الخدري ذكر عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «إنّ منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله، قال: فقام أبو بكر وعمر، فقال: لا، ولكنّه خاصف النعل، وعليّ يخصف نعله»^(١٠).

إنّ التأويل أحد معاني بطون القرآن، وهذا ما يدلّ عليه الحديث أعلاه ويوضحه، إضافةً إلى روايات كثيرة لا تعدّ ولا تحصى عند الفريقين.

بناءً عليه، لا مجال للشك والتوهّم في هذا الموضوع، مثل ما فعله ابن تيمية الذي يكتب جواباً عن هذا السؤال:

هل صحّ عن النبي عليه السلام أنّه قال: للقرآن باطن؟ قال: أمّا الحديث المذكور فمن الأحاديث المختلفة التي لم يروها أحد من أهل العلم، ولا يوجد في شيء من كتب الحديث، ولكن يروى عن الحسن البصري موقوفاً أو مرسلاً أنّ لكل آية ظهراً وبطناً وحداً ومطلعاً^(١١).

يعتقد ابن تيمية بعدم صحة هذه الأحاديث وأنها كاذبة، والحال أنّها - بعيداً عن وجودها في المصادر الشيعية - نُقلت في مصادر أهل السنة، كما تبين سلفاً، بسند صحيح.

يقول الذهبي في هذا المجال: «يقول الإمامية الاثنا عشرية: إنّ القرآن له ظاهر وباطن، وهذه حقيقة نقرّهم عليها ولا نعارضهم فيها بعدما صحّ لدينا من الأحاديث التي تقرّر هذا المبدأ في التفسير، غاية ما في الأمر أنّ هؤلاء الإمامية لم يقفوا عند هذا الحدّ، بل تجاوزوا إلى القول بأنّ للقرآن

سبعة وسبعين بطناً» (١٢).

وبناءً على قول المتتبعين، لا وجود للروايات الدالة على سبعين بطناً للقرآن، وأنها غير متوفرة في مصادر الفريقين، كما أنه لا امتناع عقلي على وجود سبعة بطون للقرآن، بل تدل بعض الروايات عليه، ولكن بما أن سند هذه الروايات غير صحيح فيصبح وجودها غير حتمي (١٣).

علي أية حال، يعتبر المفسرون والمحدثون وسائر العلماء وجود بطون للقرآن الكريم أمراً مسلماً، وقد تحدث كل منهم عن هذا الموضوع بما يقتضيه البحث ويتطلبه (١٤).

معنى الباطن القرآني، مقارنة مذهبية

لم نصادف في النصوص الروائية لأهل السنة شرحاً حول بطن القرآن أو توضيحاً كافياً له عن الرسول ﷺ أو أصحابه - على عكس النصوص الروائية للشيعة - سوى حديث لابن عباس قال فيه: «فظهره التلاوة، وبطنه التأويل» (١٥).

ونبسط هنا وجهات نظر علماء أهل السنة في هذه الأحاديث، حيث اكتفى بعضهم بشرح ألفاظها شرحاً إجمالياً، مثل النيسابوري الذي قال: «وقوله ﷺ: لكل آية ظهر وبطن أي ظاهر وباطن، فالظاهر ما يعرفه العلماء والباطن ما يخفى عليهم، فنقول ذلك كما أمرنا ونكل علمه إلى الله تعالى...» (١٦).

وقد اختلفت آراء أهل السنة حول هذا الموضوع، مثل البغوي الذي قال: «اختلفوا في تأويل حديث عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ: ... فيقال: الظهر لفظ القرآن، والباطن تأويله، وقيل: الظهر ما حدث فيه عن أقوام أنهم عصوا فعوقبوا وأهلكوا بمعاصيهم فهو من الظاهر خبر وباطنه

عظة وتحذير أن يفعل أحد مثلما فعلوا... وقيل: ظاهره التنزيل الذي يجب الإيمان به، وباطنه وجوب العمل به، وما من آية إلا وتوجب الأمرين جميعاً... وقيل: معنى الظهر والبطن التلاوة والتفهيم...»^(١٧).
كما وكان للغزالي^(١٨)، والشاطبي^(١٩) والآلوسي... آراء مفصلة حول معنى بطون القرآن.

ويعتبر أهل السنة أنه لا بدّ من إحراز شروط معينة لأجل فهم بطون الآيات، وأنه إذا تحققت هذه الشروط فإنّ فهم بطون الآيات يغدو أمراً ممكناً.

ويُتّضح من الدراسات المقارنة عدّة أمور حول معنى بطون الآيات عند الفريقين، وهي:

١ - نظريّة المراتب التنزيليّة للقرآن

يعتقد بعض العلماء من الفريقين أنّ بطون الآيات مراتبُ القرآن التنزيليّة عينها، تلك الهابطة من المبدأ الأعلى إلى عالم الطبيعة^(٢٠). ومن الواضح أنّ هذا المعنى للبطون مغايرٌ للبطون التي تعني مرتبة من مراتب معاني الآيات، والتي تنتمي إلى دائرة المعنى والمفهوم، وهي التي جاء استخدامها في ألسنة الروايات وعند أكثر العلماء.
وقد تُستعمل كلمة البطون أحياناً وتعني المدلولات الالتزامية والدلالات الإشاريّة للآيات القرآنيّة الكريمة^(٢١).

٢ - نظريّة التأويل

ورد مصطلح البطون بمعنى التأويل في روايات الشيعة والسنة، وحاز هذا المعنى على اعتراف الفريقين، ويعني التأويل هنا تطبيق الآية على مصاديق أخرى انطلاقاً من وجود علّة الحكم وملاكه، أو أقوائيّة ملاك الحكم في هذه المصاديق. ولا يتسنى التأويل هنا إلاّ عقب تجريد الآية من

خصوصيات النزول^(٢٢)، وفي هذا المعنى لكلمة البطون حيث كان شمول الآية وانطباقها على تلك المصاديق أمراً مخفياً بحسب النظرة الأولى عبّر عنها بكلمة بطن القرآن.

ويعتقد الشيعة أن بطون القرآن التي تعني تأويله وفق ما بيّناه آنفاً، تمثل جسراً يساعد على فهم جملة من الأحاديث التي جاءت في مصادر الفريقين، حيث تحكي عن حجم عظيم من الآيات القرآنية يتعلّق بأهل البيت (عليه السلام) مثلما جاء في بعض الأحاديث: «نزل القرآن أثلاثاً: ثلث فينا وفي عدونا، وثلث سنن وأمثال، وثلث فرائض وأحكام»^(٢٣). ذلك أنّه في هذه الصورة تغدو ملاكات الفضائل والمناقب وعللها في الأشخاص اللاتقيين ممن شملهم التنزيل... متوفرة في أهل البيت المعصومين (عليه السلام) أو يكون تحققها فيهم عن طريق الأولوية^(٢٤).

٣ - شمول نظرية البطون لمجمل أجزاء النص القرآني

نستفيد من إطلاق روايات المذهبين - السني والشيعة - أن كلّ آيات القرآن لها بطون.

٤ - نظرية انحصار فهم تمام مراتب البطون بالمعصومين

نستطيع أن نثبت - واستناداً إلى أدلة الفريقين - أنّ قابلية فهم بطون الآيات أمر يختصّ بالنبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام)، ذلك مما لهم من مقام رفيع، حيث لا يقدر أحد على إنكاره.

ويُستدلّ على هذا بالروايات والآيات القرآنية، حيث يُنقل عن الإمام الباقر (عليه السلام)^(٢٥) في روايات الشيعة، وعن ابن عباس^(٢٦) في روايات السنة.

وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ...﴾ (آل عمران: ٧)، ومعنى الراسوخ هنا الثبات، والراسخ في العلم - مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ الألف واللام الداخلتين على العلم هما لإفادة

الجنس - هو الثابت في العلم الذي لا يبدل رأيه ولا يزلزله بحيث يكون علمه مطابقاً للواقع؛ لأنَّ الحقيقة واضحة عنده، والجدير ذكره أنَّ مصطلح «الراسخ في العلم» لا يقال بالمطلق إلا للرسول الأكرم ﷺ والأئمة الأطهار ﷺ، فهم يستمدون علمهم من مبدأ الوحي سواء كان بواسطة أو لا، ولا يقال لمن لا يكون عنده ثبات في علمه: هو راسخ في العلم، ولهذا لم يُرَ أيَّ تحوّل في علومهم، لأجل هذا ينحصر هذا المصطلح بهم، كما فسّرت الروايات وأولت به الآية الشريفة، وبهذا تكون الآية الشريفة مع الروايات قد عرّفت البطون بالتأويل، كما ودلّت على أنَّ علم البطون علم خاص بالمعصومين^(٢٧).

ونستطيع الاستدلال على هذا الموضوع - إضافةً لتلك الآية - بروايات للفريقين، ومنها حديث للرسول الأكرم ﷺ دُكر عند أهل السنّة بأسانيد صحيحة وطرق مختلفة، حيث كان قال ﷺ فيه: «يقاتل عليّ عليه السلام على تأويل القرآن».

واللافت أنَّ مثل هذا القول لم يقل بحق أحدٍ من الصحابة، وحيث إنَّ بطون الآيات عين تأويلها بأحد المعاني، كان الإمام عليّ عليه السلام مطلعاً على بطون الآيات أيضاً، وهذا ما تشهد له أحاديث نُقلت عن ابن مسعود أنّه قال: «وأنَّ علي بن أبي طالب عنده علم الظاهر والباطن»^(٢٨).

وهناك الكثير من الروايات الأخرى التي تتحدّث عن هذا الموضوع، بعضها بصورة مستفيضة بل متواترة^(٢٩).

٥ - الاعتراف بالتأويل النصّي

يعتقد الفريقان أنّه لا يجوز إنكار فكرة في الآيات أو معرفة من معارف القرآن نتيجة أحكام مسبقة وتصوّرات قبلية، بل المطلوب لو واجه الإنسان مفهوماً بعيداً عن وجهة نظره أن يكله إلى أهله، إنَّ هذا الأمر

نلاحظه بكثرة في النصوص الحديثية للفريقين معاً، فقد جاء في الأحاديث الشيعية توجيه أكيد من المعصومين عليهم السلام في هذا المجال: إن ما لا نعرفه أو اشتبه علينا يفترض أن نكله إلى أهل البيت عليهم السلام، والأحاديث التي جاءت بهذا المضمون تبلغ حدّ التواتر أو هي متظافرة على الأقل^(٣٠).

وقد جاء هذا المضمون أيضاً في المصادر السنّية - وبأسانيد صحيحة - عن رسول الله ﷺ: «... ما عَرَفْتُمْ مِنْهُ [أي من القرآن] فاعملوا به، وما جهلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ»^(٣١).

وقد كان نقل مضمون هذا الحديث معظمُ الصحابة^(٣٢)، إلّا أنّ الذهبي - وللأسف الشديد - تغافل عن روايات أهل السنّة ومضى في ادّعاءاته غير المنصفة، عندما قال: وكأني بالإمامية الاثني عشرية بعد أن ربطوا بين ظاهر القرآن وباطنه وجمعوا بينهما بجامع التناسب والتشابه.. كأني بهم يعتقدون أنّ مثل هذا الربط لا يكفي في حمل الناس على أن يذهبوا مذهبهم هذا، فحاولوا أن يحملوهم عليه من ناحية العقيدة والإرهاب الديني الذي يشبه الإرهاب الكنسي للعامة في العصور المظلمة من حمل الناس على ما يؤمنون به إليهم، بعد أن حظروا عليهم أعمال العقل وحالوا بينهم وبين حركتهم الفكرية، وعليه أن يسلم بكل ما وصل إليه من طريق أهل البيت وإن لم يفهم معناه»^(٣٣).

لقد غفل الذهبي عن أن الشيعة لم تسدّ باب الفكر والتتظير، فليس هناك في فرق الإسلام من دعا الناس إلى العقل والتفكير كما فعل الشيعة، كما ليس فيهم من روى حول العقل ما روته الشيعة، إنّ مبدأ كون العقل هو الحجّة الباطنية^(٣٤) غدا شعاراً واضحاً للشيعة.

إلّا أنّ الامتياز الذي يميّز الشيعة عن الآخرين أنّهم يعتقدون بأن ليس المراد من عالم القرآن في هذه الأحاديث غير أهل البيت المعصومين عليهم السلام، أو

أنهم المرجع الواقعي لتبديد تمام الشبهات وتفكيك الشكوك، وليس ذلك إلا لأنّ الحجّة في التفسير هي قول المعصوم فقط، كما دلّ على ذلك حديث الثقلين وغيره أيضاً.

خارطة النظرية الشيعية للباطن القرآني

يعتقد أهل السنّة والشيعية على السواء أنّ الأخذ ببطون الآيات لا يستلزم ردّ ظاهرها، فلم يقم أحد من الشيعة والسنّة بنفي ظاهر القرآن بحجّة الأخذ ببطون الآيات، بل مجرد فكرة حذف ظاهر القرآن مرفوضة مطلقاً عند الطرفين^(٣٥).

وثمة نقاط في موضوع بطون الآيات نلاحظها ونحن نطالع الروايات والنظريات الشيعيّة ممّا يلزم علينا الإشارة إليه:

- ١ - يستند معنى بطون الآيات عند الشيعة إلى النصوص الروائيّة.
- ٢ - إنّ بطون الآيات في النصوص الروائيّة الشيعيّة يتخطّى التأويل المذكور ليتحدّث عن مصاديق كثيرة^(٣٦)، تحتاج إلى المزيد من البحث والتقيب، علماً أنّ علماء الشيعة لم يبدوا وجهة نظر واحدة هنا^(٣٧).
- ٣ - من إحدى حكم وجود معانٍ باطنية للقرآن دائمته وسرمدية واستمراره إلى ما لا نهاية^(٣٨).
- ٤ - إنّ عملية فهم تمام مراتب بطون الآيات عملية غير متيسّرة إلاّ للمعصوم عليه السلام، ذلك أنّ هذا النوع من المعارف يتخطّى الدلالة العقلانيّة للألفاظ على المعاني، إنّ فهمها سر ورمز خارج عن القواعد اللغويّة والأدبيّة كما هو خارج عن أصول المحاورات العقلانيّة، ومن ثمّ لا يمكن لأحد فهم هذه البطون إلاّ إذا كان مطلعاً على أسرارها ورموزها.
- وبناءً عليه، فما يذكره فريق من المفسّرين من أمثال الميبدي^(٣٩)،

والنيسابوري^(٤٠)، والآلوسي^(٤١)، وغيرهم ممّا يسمّونه رموزاً، وإشارات، وأسراراً، وتأويلات تتعلّق بالنصوص القرآنيّة لا يمكن القبول بها فيما لو تحطّت إطار الدلالة العقلانيّة للألفاظ على المعاني، أو انفصمت ولم تطابق مع أي من أقسام الدلالات اللفظيّة وأنواعها^(٤٢)، إلّا إذا كانت منقولةً عن المعصوم عليه السلام.

٥ - لا يعني فهم مرتبة من المعاني الباطنيّة للآيات بلوغاً لنهاية المعاني المستكنّة فيها، ومعنى ذلك أنّ الطريق لإدراك المعارف المتزايدة باستمرار ما يزال مفتوحاً.

إنّ درجة خفاء البطون القرآنية لا تتماهى عند الجميع، فكم يمكن أن يكون معنى ما محسوباً على الظاهر القرآني لدى بعض، فيما يتلقاه جمع آخر بوصفه معنى باطنياً^(٤٣).

٦ - إنّ تمام المعارف والمعطيات القرآنيّة تتناغم فيما بينها في مراحلها الباطنيّة برمتها، إنّها تفسّر بعضها بعضاً، ومن ثمّ ليس من سبيل للاختلاف بين بطون القرآن وعوالمه الداخليّة، ذلك أنّ مراحلها الباطنيّة تُعدّ - مثل ظواهره - كلاماً لله تعالى، ولو كان هذا الكلام نازلاً من عند غير الله لوقع الاختلاف فيه حتماً.

وعليه، تتناغم الموضوعات القرآنيّة على الدوام تناغماً تاماً على مختلف الصعد، أي إنّ الظواهر، وكذلك البطون، تتسجم مع بعضها وتتواشج، كما أنّ كل ظاهر يظلّ محفوظاً ومحميّاً في ظلّ وجود الباطن الأسمى منه^(٤٤).

٧ - لا شك أنّ ثمة معايير متوفّرة لتمييز المعارف الباطنيّة للآيات، صحيحتها عن سقيمها، تماماً كما هو الحال في الظواهر القرآنيّة، وحيث قلنا: إنّ العلم بتمام مراتب بطون الآيات خاصّ بالنبي الأكرم عليه السلام.

وأوصيائه عليه السلام، فلا بدّ إذاً من التأكّد من صحّة نسبة الحديث للمعصوم عليه السلام، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا بدّ - انطلاقاً من إطلاق روايات العرض التي تأمرنا بعرض تمام الأحاديث والأفكار على القرآن الكريم لجعله معياراً لها^(٤٥) - لا بدّ من التأكّد من حصول الانسجام والتوافق بين ما وصلنا عن المعارف القرآنيّة وبين روح تعاليم القرآن، ذلك أنّ المعصوم - الذي هو عدلُ القرآن - لا يتكلّم بما هو خارج عن حدود النص الكتابي، إلّا إذا عجزنا عن وعي هذا الانسجام، حيث لا بدّ حينئذٍ - كما أشرنا من قبل - من ردّ علمه إلى أهله.

ومع الأسف الشديد، لم ينصف الذهبي هنا أيضاً، متجاهلاً معايير الصحّة والفساد التي يُرجع إليها في بطون الآيات، ولهذا وجدناه يعتبر نظرية بطون القرآن عند الشيعة متشابكة الأسس مع تلاعب الشيعة بالقرآن الكريم، والحال أنّه لم يدرك - بصحة وصوابيّة - معنى نظرية البطون عند الفريقين، خالطاً بينها وبين الدلالة اللفظيّة^(٤٦).

* * *

الهوامش:

- (١) راجع على سبيل المثال: أحمد بن تيمية، التفسير الكبير ١: ٤٦ - ٤٩؛ وناصر القفاري، أصول مذهب الشيعة ١: ١٥١؛ ومحمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون ٢: ٢٧ - ٣٢، ٤١.
- (٢) راجع: علي أكبر بابائي، مقالة: باطن قرآن كريم، مجلة معرفت، العدد ٢٦.
- (٣) راجع: روش شناسي تفسير قرآن، بإشراف محمود رجبى: ٢٥٤؛ ومحمود الألوسي، روح المعاني ١: ١٧.
- (٤) مثال هذا، الحديث الذي نُقل عن الامام الصادق عليه السلام وهو: «إني لأعلم ما في السماوات وما في الأرض... ثم مكث هنيهة فرأى أنّ ذلك كبر على من سمعه منه فقال: علمت ذلك من كتاب الله عزّ وجلّ إنّ الله عزّ وجلّ يقول: فيه تبياناً لكل شيء». انظر: محمد الكليني، الكافي: كتاب الحجة ١: ٢٦١، ح ٢.
- (٥) محمد العياشي، تفسير العياشي ١: ٨٦، ح ٣٣، ٣٥، ص: ٨٧، ح ٣٩؛ ومحمد الكليني، الكافي ١: ٣٧٤، ح ١٠، وج ٤: ٥٤٩؛ ومحمد الصفار، بصائر الدرجات ١: ٣٣، باب ١٦، ح ٢؛ ومحمد الصدوق، معاني الأخبار: ٣٤٠، ح ١٠؛ بالإضافة إلى المحدث البحراني الذي فتح باباً تحت عنوان «باب في أنّ القرآن له ظهر وبطن»، وجمع أحاديث متعدّدة حول هذا الموضوع.
- (٦) المتقي الهندي، كنز العمال ١: ٦٢٢، ح ٢٨٧٩؛ وعلي الهيثمي، مجمع الزوائد ٧: ٣١٦، ح ١١٥٧٩؛ وابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام ١: ٢٨٧؛ وقاسم بن سلام، فضائل القرآن: ٤٢ - ٤٣؛ وابن جرير الطبري، جامع البيان ١: ٢٢.
- (٧) انظر: ابن حبان، الصحيح ١: ٢٧٦، ح ٧٥.
- (٨) راجع: علي الهيثمي، مجمع الزوائد ٧: ١٥٢.
- (٩) محمد العياشي، تفسير العياشي ١: ٨٦، ح ٣٦، وسند هذا الحديث صحيح؛ وراجع: محمد الصفار، بصائر الدرجات ٤: ١٩٦، باب ٧، ح ٧، وص ٢٠٣، باب ١٠، ح ٢.
- (١٠) إنّ هذا الحديث موجود عند أهل السنة بطرق كثيرة، نُقل بعضها بسند صحيح، راجع: مسند أحمد بن حنبل ١٧: ٣٦٠، ح ١١٢٥٨، وص: ٣٩١، ح ١١٢٨٩، وج ١٨: ٢٩٧، ح ١١٧٧٠، ويقول المحققون عن سنده: «حديث صحيح»، ذاكرين مصادره، راجع أيضاً: أبو عبد الله الحاكم النيسابوري ٣: ١٢٢ - ١٢٣، حيث قال عن هذا الحديث: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، كما وقيل الذهبي هذا الحديث واعتقد بصحّته، كما نقل الألوسي أيضاً بعض هذه الأحاديث، راجع: روح المعاني ١: ١٦ - ١٨.

- (١١) أحمد بن تيمية، التفسير الكبير ٢: ٢١؛ راجع أيضاً: ابن عاشور، التحرير والتنوير ١: ٣٤، ويقول: ليس ثمة رواية صحيحة السند في هذا المجال. ويعتقد ابن حزم بأن الروايات الدالة على بطون الآيات مرسلة، وهو لذلك يذهب إلى التشكيك في أصل وجود بطون القرآن، راجع: ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام ٣: ١٧١.
- (١٢) محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون ٢: ٢٨.
- (١٣) علي أكبر بابائي، مقالة: باطن القرآن، مجلة معرفت، العدد ٢٦: ١٣.
- (١٤) راجع: المصدر نفسه: ٨٦، وقد ذكر المؤلف أسماء العشرات من العلماء. وكذلك راجع: روش شناسي تفسير قرآن: ٢٥٤، إشراف محمود رجب.
- (١٥) جلال الدين السيوطي، الدر المنثور ٢: ١٥٠.
- (١٦) النيسابوري، غرائب القرآن على هامش تفسير الطبري ١: ٢٦؛ وانظر أيضاً: ابن النقيب كما نقل عنه الألوسي في روح المعاني ١: ١٧.
- (١٧) حسين البغوي، شرح السنة ١: ٢٦٤؛ وانظر أيضاً: معالم التنزيل (تفسير البغوي) ١: ٣٦؛ وجلال الدين السيوطي، الإقتان ٢: ١٨٤.
- (١٨) يقول الغزالي: «فاعلم أنه من زعم أن لا معنى للقرآن إلا ما ترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حد نفسه، ولكنه مخطئ في الحكم على الخلق كافة إلى الدرجة التي هي حده ومحطه، بل الأخبار والآثار تدلّ على أن في معاني القرآن متسعاً لأرباب الفهم...»، انظر: إحياء علوم الدين: الباب الرابع في فهم القرآن: ٢٤١.
- بعد ذلك اعتمد الغزالي - لتثبيت رأيه - على الروايات التي تدلّ على وجود بطون للقرآن، حيث اعتقد بأن حقائق معاني القرآن تكمن في عمقه لا في سطحه الظاهري، وهي حقائق تستنبط عن طريق التأمل والتفكير العميق الذي لا يسلكه أي شخص، وقد أوضح الغزالي الفرق بين حقائق المعاني الباطنية وبين ظاهر التفسير حين قال: «ويدرك الفرق بين حقائق المعاني وظاهر التفسير بمثال، وهو أن الله عز وجل قال: «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى...» الأنفال: ١٧، فظاهره تفسير واضح وحقيقة معناه مما مضى، فإنه إثبات للرمي ونفي له وهما متضادان في الظاهر... وإنما ينكشف للراسخين في العلم من أسرارها بقدر غزارة علومهم وصفاء قلوبهم وتوفر دواعيهم على التدبر وتجردهم للطلب»، انظر: إحياء العلوم، كتاب آداب تلاوة القرآن، الباب الرابع ١: ٢٦٦.

ومن الجلي أن مراد الغزالي من حقائق القرآن نفس التفسير الذي يعني إدراك غاية الله تعالى من ظاهر الألفاظ في اصطلاح القرآن.

(١٩) يرى الشاطبي - في احتمال من الاحتمالات - ما يراه الغزالي من أن المعاني الباطنية تعني ذلك، فيما أبدى احتمالاً آخر بالقول: إنَّ المعنى الباطني للقرآن هو التعميم والتوسعة في ملاك الحكم، إنَّه يقول: نقل عن سهل بن عبد الله في فهم القرآن أشياء مما يُعدّ من باطنه، فقد ذكر عنه أنّه قال في قوله تعالى: «فلا تجعلوا لله أنداداً» أي أضداداً قال: وأكبر الأنداد النفس الأمّارة بالنفس، الطّوّاعة إلى حظوظها ومنهيّها بغير هدى من الله... وذلك أنّه لم يقل أن هذا هو تفسير الآية، راجع: إبراهيم الشاطبي، الموافقات ٢: ٣٩٨.

(٢٠) البازوري، الغيب والشهادة ١: ١٧ - ١٨؛ وصدر المتألهين، الحكمة المتعالية ٣: ٣٢ - ٤٠؛ والإمام الخميني، الآداب المعنوية للصلاة: ١٨١ - ١٨٢.

(٢١) خالد العك، أصول التفسير وقواعده: ٣٦٥؛ والنهائدي، نفحات الرحمن ١: ٢٨.

(٢٢) انظر: محمد هادي معرفة، التمهيد ٢: ٢٨؛ ومجّلة بيّنات، العدد ١٤: ٦٥؛ والمدرّسي، من هدى القرآن ١: ٤٤؛ والنهائدي، نفحات الرحمن ١: ٢٨؛ والصادقي، الفرقان ١: ٥٥؛ والشاطبي، الموافقات ٢: ٣٩٨ - ٣٩٩.

(٢٣) انظر: محمد الكليني، الكافي، كتاب فضل القرآن، باب النوادر ٢، ح: ٢ و٤، ص: ٦٢٧؛ ومحمد العياشي، تفسير العياشي ١: ٨٤ - ٨٥، ح: ٢٧ و٣١.

(٢٤) وقد صرّح بهذه الحكمة في تفسير العياشي، كرواية خيثة عن أبي جعفر عليه السلام قال: يا خيثة! القرآن نزل أثلاثاً: ثلث فينا وفي أحبائنا، وثلث في أعدائنا وعدد من كان قبلنا، وثلث سنّة ومثل، ولو أنّ الآية إذا نزلت في قوم ثم مات أولئك القوم ماتت الآية لما بقي من القرآن شيء، ولكنّ القرآن يجري أوّله على آخره ما دامت السماوات والأرض... راجع: تفسير العياشي ١: ٨٥، ح: ٣١؛ وذكر العلامة المجلسي في بحار الأنوار (جزء ٢٣ و ٢٤، باب ٦٧) روايات تدور حول الآيات التي تتحدّث عن فضل أهل البيت عليه السلام وشيعتهم وذمّ أعدائهم، ويعدّ القسم الأهم من هذه الروايات نوعاً من التأويل الحاكي عن المعاني الباطنية للآيات. وانظر أيضاً: محمد الصدوق، علل الشرائع: ٦٤ - ٦٥.

(٢٥) محمد العياشي، تفسير العياشي ١: ٨٦، ح: ٣٦؛ ومحمد الصفار، بصائر الدرجات ٤: ١٩٦، باب ٧، ح: ٧، وص: ٢٠٣، باب ١٠، ح: ٢.

- (٢٦) جلال الدين السيوطي، الدر المنثور ٢: ١٥٠.
- (٢٧) لمزيد من الشرح الموسّع انظر: روش شناسي تفسير، مصدر سابق: ٢٥٦.
- (٢٨) أبو نعيم، حلية الأولياء ١: ٦٥؛ وابن عساكر، ترجمة الإمام علي من تاريخ دمشق ٣: ٢٥، ح ١٠٤٨؛ والحموي، فرائد السمطين ١: ٣٥٥، ح ٢٨١؛ وعلي بن شهر آشوب، المناقب ٢: ٤٣.
- (٢٩) انظر: الشيخ محمد حسين الأصفهاني، البيان: ٥٣.
- (٣٠) انظر: محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار ٢: ١٨٢، ١٨٩، ١٩١ - ١٩٢، ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٤١؛ ج ١٠: ١٠٥؛ ج ٤٤: ٢٧٨.
- (٣١) ابن حبان، الصحيح ١: ٢٧٥، ح ٧٤، والرواية صحيحة السند بناءً على شرط البخاري وصحيح مسلم، وانظر أيضاً: أحمد الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ١١: ٢٦؛ وعلي الهيثمي، مجمع الزوائد ٧: ١٥١، حيث يضيف قائلاً: سند هذا الحديث صحيح؛ وابن سلام، فضائل القرآن: ٤٣؛ والسيوطي، الدر المنثور ٢: ١٤٩ - ١٥١، والجدير ذكره وجود مصادر عديدة نقلت هذا الحديث.
- (٣٢) انظر: جلال الدين السيوطي، الدر المنثور ٢: ١٥١.
- (٣٣) محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون ٢: ٢٩.
- (٣٤) انظر: محمد الكليني، الكافي، كتاب العقل والجهل ١: ٢٥، ح ٢٢.
- (٣٥) انظر على سبيل المثال: محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار ٢٤: ٣٠٢، ح ١١؛ وصدر المتألهين، تفسير القرآن الكريم ٤: ١٦٨ - ١٦٩؛ ومحمد الغزالي، إحياء العلوم ١: ٢٤٣؛ ومسعود التفتازاني، المختصر (شرح عقائد النسفي): ١١٠؛ ومحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) ١: ٣٤؛ ويقول أبو الحسن العاملي - أحد علماء الشيعة في القرن الثاني عشر - : كل من ينكر ظاهر القرآن فهو كافر حتى لو أقرّ بباطنه. مرآة الأنوار: ٣ و ١٥.
- (٣٦) انظر على سبيل المثال: محمد الكليني، الكافي ١: ٣٤٠، ح ١٤؛ ومحمد الصدوق، كتاب التوحيد: ٨٨؛ ومعاني الأخبار: ٣، ح ١، باب «معنى بسم الله الرحمن الرحيم»؛ وعلي الحويزي، نور الثقلين ٢: ٣٩٠، ح ١٩٠، وص ٣٩١، ح ١٩٤، ج ٥: ١٩١، ح ١٧، ص ٥٨٥، ح ٤، ص ٥٨٦، ح ٥؛ ومحمد باقر المجلسي، بحار الأنوار ٢٤: ٣٠٩، ح ١٢، ج ٩٢: ٨٢، ح ١٢، ص ٢٧٦، ح ٤ و ٦، ص ٢٨١، ح ١٢، ص ٢٨٣، ح ٢٢، و....
- (٣٧) للمزيد من الاطلاع على آراء المفسرين الشيعة انظر: علوم القرآن عند المفسرين ٣: ٧٥ - ١١١.

- (٣٨) مسعود العياشي، تفسير العياشي ١: ٨٦، ح ٣٦؛ والصفار، بصائر الدرجات: ١٩٦، ح ٧، وصر ٢٠٣، ح ٢؛ ومحمد الصدوق، معاني الأخبار: ٢٥٩.
- (٣٩) المبيدي، كشف الأسرار ١: ٣٢٠، وج ٢: ٢٩٣، وج ٧: ٣٩٧، وج ٨: ٢٦٥، ٤٥٦ و ٤٩٦ و...
- (٤٠) حسن النيسابوري، تفسير غرائب القرآن ١: ٢١٤، ٣٢٨، ٣٣٤، ٣٥٢، ٣٨٠.
- (٤١) محمود الألوسي، روح المعاني ١: ٦٥ - ٦٧ و ١٠٣، وج ٢: ٢٤، وج ٦: ٦٧.
- (٤٢) لمزيد من الاطلاع والتوضيح، انظر: روش شناسي تفسير قرآن، مصدر سابق: ٢٥٧ - ٢٥٨؛ وابن عاشور، التحرير والتلوين ١: ٣٤ - ٣٧.
- (٤٣) انظر: محمد حسين الطباطبائي، الميزان ٣: ٤٨، ذيل آيات ٧ - ١٩ من سورة آل عمران؛ وقرآن در اسلام: ٢٠ - ٢٢؛ والمدرسي، من هدى القرآن ١: ٤٤.
- (٤٤) لمزيد من التوضيح، انظر: عبدالله جواد آملی، تسنيم ١: ١٢٨.
- (٤٥) تواترت هذه الرواية في مصادر الشيعة، انظر على سبيل المثال: محمد الكليني، الكافي ١: ٦٩، ح ١ - ٥؛ ومحمد بن مسعود العياشي، تفسير العياشي ١: ٨٢، ح ١٨ - ٢٣؛ ومحمد الصدوق، الأمالي: ٣٠٠، ح ١٦؛ والتوحيد: ١١٠، ح ٩؛ وعيون أخبار الرضا ٢: ٢٠، ح ٤٥؛ ومحمد بن الحسن الطوسي، الأمالي ١: ٢٣٦، وقد جعلت السنة النبوية القطعية - إلى جانب كتاب الله - معياراً لتصحيح الروايات وتضعيفها.
- (٤٦) راجع: محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون ٢: ٣٢، وقد ذهب إلى اعتبار بطون الآيات أحد المدلولات اللفظية للقرآن أو أحد معانيه الكنائية، دون أن يقيم دليلاً على مدعاه هذا! راجع: المصدر نفسه: ٣١، ثم حكم - طبقاً لذلك - على الشيعة.

ثنائية الدين والوجدان

١. حسين احمد (*)

الوجدان أو المروءة أو يقظة الضمير، والحساسية المرهفة تجاه الأمور المثيرة للشفقة، أو روح الترحم والانكسار، هو من الأمور التي ركزت عليها التعاليم الدينية، وعالجتها بمختلف أساليب الحث والترغيب. فهذه المفاهيم هي من الأساسيات في المنهج الأخلاقي الديني، لما لها من الدور في تفتح قابليات الإنسان واستعداداته، وسوقه في مدارج الكمال، وهي أيضاً من الضروريات التي يحكم بها العقل العملي.

فبالرجوع إلى مصادر الشريعة، من القرآن والسنة، نرى النصوص الكثيرة المهتمة بهذا الجانب الحيوي من جوانب النفس البشرية، سواء في الحث عليه والدعوة إليه، أو في التحذير من مغبة التهاون به، أو عدم الاستجابة لمتطلبات يقظة الضمير وحياة القلب، والذي يؤدي إلى نتائج خطيرة وكبيرة لخصتها النصوص الدينية باصطلاح (قسوة القلب).

ففي جانب الحث والترغيب على اليقظة وحياة القلب، وروح التراحم والمروءة نقرأ النماذج التالية من القرآن الكريم أولاً:

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ (البلد: ١٧).

حيث اعتبرت الآية صفة التواصي بالمرحمة صفة أساسية من صفات المجتمع المسلم، وهو أن يوصي بعضهم بعضاً بالرحمة على ذوي الفقر والفاقة والمسكنة. وقال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نُّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ١١٤).

(*) كاتب، من العراق.

وحين امتدح القرآن الكريم أتباع المسيح ﷺ ركّز على صفة الرأفة والرحمة، وأشار إلى أنها كانت بسبب جعل الله لها في قلوبهم، فقال: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ (الحديد: ٢٧).

ثم نقرأ ثانياً التركيز على خطر قسوة القلب، وانعدام العاطفة والمروءة، وآثاره التخريبية الهادمة لعرى التلاحم والتعاون بين أبناء المجتمع، إذ يقول تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَتَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾ (ق: ٢٤ - ٢٥)، وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ * وَيَمْتَنُونَ الْمَاعُونَ﴾ (الماعون: ٤ - ٧). وهذه هي صورة المصلين الشكليين فقط، وفي مقابلها صورة المصلين الحقيقيين: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ (المعارج: ٢٠ - ٢٢).

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْتَةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمِلْ إِنَّا غَامِلُونَ﴾ (فصلت: ٥).

﴿فَوَيْلٌ لِلْفَاسِقَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَيْكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الزمر: ٢٢).

وحين يتعرض القرآن لمشكلة بني إسرائيل يلخصها في أنها كانت (قسوة القلوب)!

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة: ٨٨).

﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَعَّ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء: ١٥٥).

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِن مِّنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِن مِّنْهَا لَمَّا يَشَقُّقُ﴾ (البقرة: ٧٤).

وحينما نرجع إلى السنة المطهرة وسيرة أهل البيت ﷺ، نرى العناية الواضحة بهذا الجانب الأساسي الذي يتذرع عليه جملة من الفروع الأخلاقية النبيلة: «لا دين لمن لا مروءة له».

و«هل الدين إلا الحب».

و«أفضل المروءة مواساة الإخوان بالأموال، ومساواتهم في الأحوال».

وعن النبي ﷺ: «أعط كل من وقعت في قلبك الرحمة له».

وعن أمير المؤمنين عليه السلام حين بلغه إغارة أصحاب معاوية على الأنبار: «لقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة، فينتزع حجلها وقلبها وقلائدها ورعتها، ما تمتع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام. ثم انصرفوا وافرين ما نال رجلاً منهم كلم.. فوالله لو أن امرئاً مسلماً مات من هذا أسفاً ما كان عندي ملوماً، بل كان عندي جديراً»^(١).

كانت هذه نماذج يسيرة من جرع الإيمان التي تدفع باتجاه يقظة الضمير وحياة الروح الإنسانية.. وعليه، فمن نافذة القول إن دور الدين هو دور الحث والترغيب والتربية للشعور الحي، والوجدان الصادق وتتميته وتعميقه، بل وإرشاده في حالات تعارض أحكامه وتناقضها، ومن ثم توجيهه الوجهة الصحيحة المطابقة للواقع.

بعد هذه المقدمة، نقول: إن ما ورد في مقال (المسألة الحسينية وأنموذج الثورة الوجدانية)، هو محاولة خلق اثينية، ومقابلة بين العقل والدين من جهة، وبين الوجدان من جهة أخرى. فالمقال يقوم على أساس افتراض التفريق والعزل بين ما يحكم به الدين والعقل، وبين ما يحكم به الوجدان، فهو مثلاً يتصور (أن الفقهاء وعلماء الدين المخلصين.. وموقف رجال الدين في العراق المسلم من حكومة صدام.. إنما كانوا يتعاملون مع أجواء الظلم والجور من منطلقات دينية بحتة، تحتم عليهم استخدام ذلك الموقف المسالم، عملاً بمبدأ التقية، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وأمثاله..).

وفي مقابلة ذلك يذكر ما صنعه الشهيد الصدر رحمته في العراق، والإمام الخميني رحمته في إيران، ويحلّله على أنه انطلق من موقع (الوجدان)؛ أي بعيداً - بحسب زعمه - عن ما يحكم به الشرع والعقل، ثم يدعم فهمه هذا بذكره مثالين من ثورة الإمام الحسين عليه السلام، مؤكداً أن (كل محاولة لدراستها بميزان العقل والدين فقط من الباحثين والكتاب والمؤرخين الإسلاميين باءت بالفشل؛ لانهم وردوا المسألة من غير بابها ولم يراعوها حقّ رعايتها).

وندفع أولاً هذه الشبهة التي أثارها حول العلماء، وصنّفهم فيها إلى صنفين: من يعمل بقوانين الدين والعقل، ومن يلبي نداء الوجدان.. فإن هذا كلام مجانب للصواب؛ إذ ليس همّ العلماء، بل أي مؤمن عاديّ إلاّ العمل بمقتضى تعاليم الشرع في كل أحواله وظروفه ومواقفه، وأما حكم الوجدان، فإن تطابق مع حكم الشرع والعقل، فهو إذن من حكم الشرع والعقل، وإلاّ فالمقدّم هو حكم الشرع. وعليه، فإنّ النظرة إلى الواقع وتقدير الأمور تختلف باختلاف العلماء والظروف التي تحيط بعصر كلّ منهم، إذ يرى بعضهم المصلحة في الحركة والمبادرة، والآخر المصلحة في السكون والعمل الهادئ من أجل تهيئة الظروف المناسب للتحرك.. تماماً، كما تقاسم الأئمة عليهم السلام الأدوار في التبليغ والهداية.

ونعود بعد هذا إلى مناقشة فكرة المقال، فقد عرّف الفعل الديني بقوله: (إنه ما كان بدافع النصوص الدينيّة، والغرض منه الثواب الأخروي. أمّا الفعل الأخلاقي، فهو ما كان بدافع الوجدان، والغرض منه خدمة الإنسانية، وهو يعتمد على النصوص أيضاً - وفق النظرية الإسلامية - لكنّه ينظر إليها بعين الواقع لا بشكل ميكانيكي جامد..).

وهو كلام يؤكد افتراق الفعل الديني عن الفعل الأخلاقي، وكلامه الأخير شبيه أو مطابق للتعريف الغربي للفعل الأخلاقي، والذي تتبناه بعض المدارس الأخلاقية هناك، كأمثال مدرسة جان جاك روسو، رغم محاولة المقال الترقيعية الأخيرة بقوله: (وهو يعتمد على النصوص أيضاً..). يقول (روسو): (الوجدان لا يخدعنا أبداً.. إنه الهادي الواقعي لكلّ الناس، وإنّ نسبة الوجدان إلى الروح نسبة الغريزة إلى البدن، وكلّ من يتابعه فقد أطاع الطبيعة وليس عليه خوف الضلال!).

هكذا إذن، فالمعيار هو إطاعة الطبيعة، والضلال في مخالفتها! ولا نناقش هنا هذا الرأي لروسو، ولكن نقول: يبقى عليه وعلى أتباع مدرسته والمعجبين بها (أمثال كاتب المقال) أن يجيبوا عن الأسئلة الأخلاقية الكثيرة التي ليس للوجدان أيّ حكم خاص تجاهها، أو المواقف التي يتزاحم ويتضارب فيها حكم الوجدان، كأن يتوقف فعلٌ وجداني على ارتكاب فعل مخالف الوجدان، بأن يتوقف - مثلاً - إنقاذ إنسان على الكذب على إنسان آخر..

وحين تحدّث المقال عمّا سمّاه بـ(الإسلام الوجداني)، ترك الباب مفتوحاً أمام كل اعتقاد (وتجربة قلبية.. والحالات الوجدانية المتفرعة على هذا الإيمان القلبي..).

ونسى أنه بناء على هذا الكلام ينبغي الحكم بإسلام كلّ من انتحل نحلة مخالفة للإسلام، بل معادية له، بل كلّ معتقد بكلّ ما يسمى ديناً، وإدخالهم في دائرة (الإسلام الوجداني) رغماً عن أنوفهم!

وقد أخطأ المقال مرّة أخرى حينما صوّر أنّ الفعل الأخلاقي بأنه: (ما يكون الغاية والغرض منه موجود في نفس الفعل، لا أنه شيء خارج ذات الفعل، من قبيل تحصيل الفضيلة أو الثواب والأجر الدنيوي أو الأخروي، ولا

حتىّ تحصيل الكمال المعنوي للفرد نفسه، فكلّ هذه الغايات محلّة بسلامة الفعل الأخلاقي في الصميم).

ولم نعرف مصدراً لتعريفه هذا، ومن أين أتى به؟ غير أن رائحة المادّية الوضعية تفوح منه! وإن كنّا نعتزّ بإنصاف بعض مفكّري الغرب وتبّههم إلى دور الدين في تربية الوجدان وتأصيله.. يقول جارلس بيليس: (تعلّم الكثير منّا في صغره أنّ نداء الوجدان هو نداء الله، وعليه فيجب الثقة به) (٢).

إنّ كاتب المقال يتّصور أنّ الفعل الأخلاقي هو ما لا يكون له دافع آخر غير (حُسنه)؛ أي أنه لا يشترط الحسن الفاعلي، بل بالعكس، فإنّ الحسن الفاعلي مضرّ - بزعمه - بأخلاقيّة الفعل.

وهذه مخالفة لأمر واضح ضروريّ في التعليم الدينيّ الإسلامي، فإنّ الفعل إنّما يتصف بكونه أخلاقياً، فيما لو اتّصف بالحسن الفاعلي، أي ما يكون الهدف والغاية منه هو رضا الله تعالى، وامتنال أمره، والحصول على ثوابه، والرقيّ في مدارج الكمال.. فقد ثبت في محلّه أنّ الكمال النهائي للإنسان هو التقرب إلى الله، وهو هدف الخلقة.

وعليه، فإن أردنا تشخيص الفعل الأخلاقي، فلا بدّ من طرح مسألة الكمال النهائي والقرب إلى الله، وأيضاً لأجل تمييز الأعمال الحسنة التي ترتبط بالكمال النهائي للإنسان، يجب الأخذ بنظر الاعتبار مسألة الخلود والأبدية للنفس؛ لكي نستطيع الترجيح فيما لو وقع تعارض بين الكمالات المادّية والكمالات الأبدية والخلود، فنقول: إن هذا (مثلاً) عمل سيئ، لا من جهة أنه لا يستطيع إيجاد كمال ماديّ لنا، بل من جهة معارضته لكمال أخرويّ..

والخلاصة: فالقول بأنّ الفعل الأخلاقي ما كان غايته في نفسه، هو

تعريف غريب عن المدرسة الإيمانية، ومناسب للمدارس الإلحادية المادية، هذا أولاً.

وثانياً: إن ما تصوّره كاتب المقال من عدم وجود الغاية والغرض خارج ذات الفعل، هو خطأ واضح؛ فإنّ ما ذكره من المثال في إنقاذ الغريق، يوجد فيه غرض أو أغراض وكلّها خارجة عن ذات الفعل..، فإن الذي ينقذ الغريق، مثلاً، إنّما يندفع لذلك بعد شعوره بحالة من التألم والانكسار والترحم بسبب رؤيته لمنظر الغريق.. و..، وهو شعور يؤذيه ويخلق عنده حالة الاضطراب والقلق.. فيندفع لمعادلة ذلك الشعور، وإرضاء نفسه وتخليصها من ألم هذا المنظر.

إذن، فقيمة ما صوّره المقال من (الأخلاق الخالصة!)، ترجع بالتالي قيمة رخيصة مادية نفعية وأنانية! وهذا بالضبط هو ما تحاول معالجته التعاليم الدينية، وتهذيبه وتوجيهه والارتفاع به من حضيض المادية الضيقة، وربطه بحبل التعالي والتسامي، ووصله بمبدأ كل القيم والأخلاق الفاضلة، وهو ما اختصرته النصوص الدينية بمفهوم (القرب من الله). وإلا فلا يبقى بعد فقدان هذا الاتصال إلا (المادة) و(الذات - الأنا) و(الخرافة)، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ (النور: ٣٩).

فما ادّعاه الكاتب من أنّ قصد القرية والحصول على الكمال المعنوي: (مخلّ بسلامة الفعل الأخلاقي في الصميم)، مخالفة صريحة للتعاليم الإسلامية الأساسية. (ونهمس هنا بهدوء في أذن كاتب المقال ونقول: لا ينبغي أن يصل الإعجاب بالفكر الغربي إلى حدّ يُنسى الإنسان حتّى الأرضية التي يقف عليها!).

وأما ما ذكره المقال من موقف العباس عليه السلام المواسي للإمام الحسين عليه السلام في عطشه..، فنقول: إن هذا موقف ديني في دوافعه، وعقلي في صميمه، فإن ما حكم به الوجدان آنذاك، حكم به الشرع والعقل أيضاً، فكما يدعو الدين والعقل لنصرة الحق والدفاع عنه، وبذل أقصى الجهود

من أجل ذلك، يدعو كذلك إلى المواساة، وإلى العاطفة المرهفة، والقلب المملوء حباً ورحمة وإيثاراً، ويدعو كذلك إلى تربية الأمة المنحرفة بسبب قساوة القلب، والتكالب على المنافع الدنيوية، والأنانية البغيضة، وإلى إعطاء الدروس العملية لها في الرحمة والرفقة والإيثار والحنان، وبعث روح الحياة فيها، وهذا بعينه ما فعله أبو الفضل العباس عليه السلام في موقفه الخالد بأرض الطف، حيث شهدنا كيف صار هذا الموقف مدرسة تخرّجت فيها الجموع المؤمنة والمتخلّقة بأخلاق الله، والمليّة لنداء الوجدان الحقيقي في الحركة نحو الله، والتعالي على كلّ القيم المادية الرخيصة.

وكذلك موقف مسلم بن عقيل عليه السلام، وعدم اغتياله لعبيد الله بن زياد.. فإنّ الذي ذكره المقال هو: (أن «مسلم» لم يطاوعه وجدانه على القيام بمثل هذا العمل...).

والواقع أن المسألة لم تكن مسألة (وجدان)، وإلاّ فهل يريد بكلامه هذا أن يشكل على النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بأنه كيف طاوعه وجدانه حينما أمر باغتيال الأعداء؟

فالصحيح إذن، أن يقال: إن همّ «مسلم بن عقيل» يومذاك كان إعطاء منهج في التربية، والنبيل والكرم والتسامي والأريحية، وطهارة الهدف المقدّس.. وكلّ ذلك تعاليم حتّى عليها الدين، فضحّى أولياؤه في سبيل تطبيقها.

* * *

الهوامش:

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٧.

(٢) بل إدواردز، فلسفة الأخلاق: ٣٥٧.

قسمة الاشتراك

الاسم :
العنوان :
المدينة :
البلد :
المهنة :
مدة الاشتراك :
ابتداءً من :
عدد النسخ :

رسالة الثقلين

مجلة اسلامية جامعة

البلد الاشتراك
الإرسال السنوي / لمدة ٦ أشهر
☐ الجمهورية الإسلامية في إيران
(بالريال) ٢٠٠٠ ١٠٠٠
☐ باقي دول العالم بالدولار الأمريكي
٣٠ ١٥ (أو ما يعادلها)

يرافق اشتراكي: ☐ صك ☐ صك بريدي ☐ حوالة بريدية
أرسل هذه القسمة مع قيمة الاشتراك باسم «رسالة الثقلين» إلى العنوان التالي:
الجمهورية الإسلامية في إيران. قم. ص. ب ٨٩٤ - ٣٧١٨٥

الاشتراكات:

☐ داخل الجمهورية الإسلامية في إيران: تسدد قيمة الاشتراك السنوي (٢٠٠٠٠ ريال)

بحوالة مصرفية على العنوان التالي:

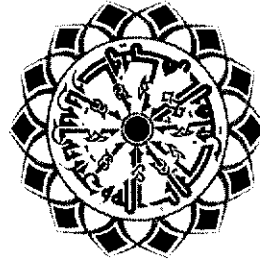
الجمهورية الإسلامية في إيران - قم - بنك تجارت / شعبة سمية، شارع سمية - رقم الحساب
الجاري: ٤٦٢٥٤ - ١٥١٢٠ (بالريال)، المعاونة الثقافية للمجمع العالمي لأهل البيت (عليه السلام).

☐ خارج الجمهورية الإسلامية في إيران: قم - بنك ملي (شعبه مركزي قم) رقم
الحساب: ٢٠٠٦٥ - ٢٧٠١ (بالدولار).

ثمن النسخة:

☐ الجمهورية الإسلامية في إيران ٥٠٠٠ ريال.

☐ وفي باقي دول العالم ٧ دولارات أمريكية أو ما يعادلها



The ahl – ul Bayt (a)
World Assembly

RISALATUTH - THAQALAYN

A General Islamic Periodical

Vol . ١٢, No . ٥١ - ٥٢, May – October. ٢٠٠٥

رسالة الثقلين / السنة الثالثة عشرة / العددان: ٥١ - ٥٢

